كوكب البحر

اسم الكاتب	محمد علي منصور
رقم الإيداع	2023/23393
الترقيم الدولي	978-977-86106-6-6
الطبعة	الأولى
تصميم الغلاف	عبد الرحمن محمد خلف
التدقيق اللغوي	هند محمود كمال
الإخراج الفني	هند محمود كمال
المدير العام	خالد ناصف

0100 018 8557

alwatanpublishinghouse@gmail.com

FB.com/DAR.ELWATAN

68 شارع أحمد ذكي - المعادي - القاهرة

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار الوطن للنشر والتوزيع، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

كل الحقوق محفوظة

رواية

كوكب البحر

محمد علي منصور

إهداء

الإهداء إلى الكتابة.
لأنها الطريقة الوحيدة التي يمكن أن أخبر بها العالم أنني هنا.
لأنها الصوت الذي سيبقى بعد أن تتلاشى أصواتنا.
لأنها الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أعبر به عما بداخلي.. عما
لا أستطيع التحدث عنه.
لأنها الشيء الوحيد الذي يشعرني بقيمة كل شيء.

كما أهديها إلى كل من يحاولون،
وما زالوا يحاولون رغم كل شيء،
وإلى من يأسوا من المحاولة.

مقدمة

للأسف الشديد كنت أتمنى أن أطمئنك بأن أحداث هذه الرواية محض خيال وأنها مجرد ديستوبيا ولن تتحقق على أرض الواقع، لكن ما نشهده في هذا العالم المتقلب لا ينذر بذلك، فبعد أبحاث طويلة وتجميع معلومات عن عالم البحر، يتضح أن الجليد في المحيطات يذوب أسرع مما نتوقع، وأن التلوث الذي اقترفه البشر في حق الطبيعة منذ عشرات الأعوام يؤتي ثماره، وترتفع درجات سطح الكوكب ويحدث تسرب إشعاعي وظواهر كارثية لم تحدث منذ قرون.

والكارثة الأكبر تطوير أسلحة لمحاربة الطبيعة وتسليط الطقس والكوارث الطبيعية على البشر بهدف تحقيق نصر حالي، ولكنها ستسبب في ما لا يُحمد عقباه.

لذلك يجب أن يخرج صوت حكيم بين البشرية يمنع كل ما يحدث..

أنقذوا الطبيعة! أنقذوا الغابات والمحيطات والأرض!

أنقذ هذا الكوكب من يد بني الإنسان!

أرجو أن تظل هذه الرواية مجرد خيال كاتب وألا يتحقق شيء منها على أرض الواقع.

مدينة نيويورك.. عام 2031

"الأمل الذي يبقيك حيًّا هو الأمل الذي سيقتلك"

صراخات الجميع تصم الآذان ولكن لا أذن لتستمع، وقف المراسل يحاول استجماع قواه ليتكلم، لا يعرف ماذا يقول، أو بالأحرى لم يتبقَّ شيء ليقال، استجمع قواه وشجاعته، حاول استرجاع دروسه في دراسته عن تعامل المراسل الناجح مع تغطية الكوارث، ولكن ما يحدث كان أبعد من كل ما تعلم، في النهاية أشار للمصور -الغارق في الخوف من أخمص قدميه إلى رأسه- ببداية البث.

- "سيداتي وسادتي.. الوضع في المدينة كارثي، وقوات الحماية المدنية وعناصر الجيش الأمريكي لا تستطيع فعل شيء سوى إجلاء ما تبقى من سكان المدينة، إنها الكارثة الكبرى منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر... ولكن تلك المدينة مرت بتهديدات أكبر ولم تنكسر ولم تقع، فلم تنهر عندما حاصرتها غواصات النازية، ولم تخفها تهديدات الرشق النووي من السوفيت، ولم تدمرها الحرب الأمريكية الصينية، ومن المؤكد أن ما تتعرض له اليوم قد ينتهي بسلام".

لم يكن المراسل لينهي كلامه، حتى تداعت إحدى البنايات الضخمة من مسافة 20 كيلومترًا لتسقط على الأرض، ويحدث لسقوطها دوي عملاق، كأنما رد قاطع على كلمات المراسل الذي كان نفسه يدرك كذب كلماته، لم تكد الكاميرا تقترب من رفات المبنى المنهار، إلا وأصاب الناس شطط من الجنون، وتحولت الاستغاثات إلى اليأس، فجرى الجميع نحو ملاذ آمن -والذي لا وجود له- فاصطدم المراسل بعدد من المهرولين، وكلما حاول الوقوف أسقطته مجموعة أخرى من الناس، وتحطمت الكاميرا والمصور يجري مع الناس، والمراسل على الأرض ينظر إلى شظايا الكاميرا أمامه، يركلها الناس وهم يجرون، مثلما يسحقون وجهًا حتى انفجرت الدماء منه، نظر المراسل وقد تبدد الأمل من وجهه تمامًا.

- "أعزائي المشاهدين.. مثلما غرقت فلوريدا وكاليفورنيا، الآن تغرق نيويورك في أعماق المحيط الأطلسي. أعزائي المشاهدين.. أولوا الاستمتاع بلحظاتكم الأخيرة على الأرض قبل أن تغرق في أعماق البحر".

لم تمر لحظات إلا وأبراج نيويورك -التي ميزتها دائمًا- كانت تتساقط كأحجار الدومينو، والماء يغمر كل شيء بلا توقف، وسنترال بارك، تقتلع الماء أشجارها، والميادين والشوارع. كوول ستريت، التي لطالما ضجت بالحياة نهارًا وليلًا، يدمرها الطوفان، وحان الوقت للمدينة التي لا تنام أن تهنأ بسبات طويل.

نظر المراسل نظرةً أخيرةً والماء يقترب منه بسرعة 150 كيلومترًا في الساعة، وابتسم الابتسامة الأخيرة، فقد كان يعلم أن البث كان مقطوعًا، وكل موجات الإشارات والإنترنت واللاسلكي لا تعمل، وألا أحد قد استمع لكلماته الأخيرة.

مدينة الإسكندرية.. عام 2031

صوت المنبه وأشعة الشمس في وضح النهار يوقظان السيدة تريزا، التي لم تتوقع أنها ستستيقظ مجددًا بعد كل ما عانت منه، ليست هي فقط، بل العالم بأكمله. لم تكن لتشفق على حالها، فقد بلغ عمرها أرذله، ولكنها كانت تتحاشى مستقبلًا منكوبًا ينتظر أبناء كيرلس الصغار. أصبحت لا تقوى على مشاهدتهم يلعبون، فحتى الأطفال في ذلك الزمن لا يلعبون سوى ألعاب الكر والفر والاختباء، فلتت ابتسامة صغيرة من شفتيها عندما كانت تنصح إسكندر بالزواج وكان يعزف عنه، أدركت أنه الوحيد المُحق، وأنه كان يرى ما كان يخشاه الجميع، لقد كان يعرف الحقيقة التي حاولوا جاهدين إنكارها.

اتجهت من سريرها الصغير وتحركت نحو كراتين وحقائب مغلقة ممتلئة، لم تقوَ حتى على إبعادها بكلتا يديها، تتجه نحو قطعة الأثاث الوحيدة بالغرفة عدا السرير، حيث طاولة خشبية صغيرة تعتليها مرآة شبه مهشمة، وأمامها تمثال السيدة العذراء وهي تحمل طفلها بين يديها، تأملت الصورة للحظات وتذكرت كلمات إسكندر بأن تلك الأيقونة تشبه كثيرًا تمثال الأم إيزيس وهي تحمل طفلها

حورس، وأنها كانت تشكل ثالوث قدس مع السيد أوزوريس، فكانت تطالبه بوقف كلمات الكفر التي يتلفظها، ولكن ما حدث جعلها تعيد هيكلة العالم، ولكنها طردت الشيطان من رأسها وانكبت على مرفقيها حول وسادة على الأرض، متضرعةً بيديها، عاقدةً الأصابع حول صليب خشبي نحيل كحالها، أجوف كداخلها، تمسكت به بقوة.

- أبانا الذي في السماوات، لتكن مشيئتك.

استشعرت الخطأ، فأعادت من جديد:

- أبانا الذي في السماوات، يتقدس اسمك و و و...

كانت الكلمات لا تنساب من شدقات فمها كالسابق، كأنما نسيت أو تناست، أيقنت أنها غير مهيأة الآن للصلاة، فكفكفت دموعًا تتساقط، وحملتها قدماها نحو النافذة حيث يقبع البحر، الذي كان في السابق لا تراه من شرفة منزلها، ولكن الآن أصبح شاطئه أسفل قدميها، وتذكرت عندما كان البحر متنفس هموم البشر ومرقد أحلامهم، والآن أصبح كابوسًا متجسدًا حيًّا، فالأسد يقف على جانب الطريق، ينتظر الشاة الضالة عن القطيع، أما البحر، فهو سيُغرق القطيع بالكامل، ولكنها كانت تحتاج إلى الهواء، وقد استنفذت هواء غرفتها بالكامل، هرعت نحو النافذة، كان المشهد بالخارج مريعًا بقدر مهابته، بقدر جماله. اللعنة! نحن نعشق الورد وننسى كم هو سام.

وأمام المشهد المهيب، تذكرت السيدة تريزا سنواتٍ مرت، كيف تراجعت فيها البشرية. كان من المخطط في ذلك العام أن تصل الهواتف النقالة إلى الجيل السابع، أن يتوفر الإنترنت من الفضاء إلى العالم بأكمله، أن تطير السيارات وكذلك البشر، أن يصل البشر إلى قدر من التقدم ليس له مثيل، ولا يصبح مكانٌ للأمراض المستعصية، قالوا إن سفن الفضاء ستصل إلى مجرات أخرى، قالوا إن أسلحة الدمار الشامل تفككت، والبشرية الآن تنعم بسلام بعيدًا عن الحروب والأمراض، قالوا إنه الآن لن يجوع البشر، رغم أن التعداد تجاوز الـ10 مليارات نسمة، فقد ساعدنا العلم على زراعة محاصيل تنتج عشرات أضعاف الكمية السابقة، وإن الماشية لن تنقرض بفضل استنساخها،

كان البشر في طريقهم إلى السعي نحو الكمال، وعندما كادوا يلامسون نجوم السماء براحة أيدهم، واعتلوا الأرض حتى ناطحوا الكواكب برؤوسهم العاتية، ظنوا أنفسهم أقوى من الموت، من المرض، من الزمن، من كل شيء، ونسوا أنهم ما صعدوا سوى بواسطة صخرة وثلج وقطعة خشب. فأما عن الصخرة فقد فُلقت، وأما الخشب فقد أكله السوس، وأما الثلج فقد ذاب.

فسرت السيدة تريزا بحنكتها ما حدث للبشرية، وسواء أصابت أم أخطأت فهي توقن أن ما حدث تخطى الابتلاء، وأن البشرية الآن تخضع لعقاب الرب. فتحت عينيها ففزعها المشهد رغم أنها تستيقظ عليه كل يوم، ففي صباها وحتى وقتٍ قريبٍ لم تكن مياه البحر المتوسط تصل إلى منطقة العامرية حيث تقطن، فقد كان شاطئ مدينة الإسكندرية بعيدًا عن منزلها، كانت عندما تشتاق إليه تقطع الطريق إليه كالعاشقين. خطوات قد تصل إلى ساعة من السير حتى تلمس المياه بقدميها فقط وتعود أدراجها، ولكم تمنت أن تصبح من الصفوة يومًا وتقطن بيتًا يطل على البحر مباشرةً، ولسخرية القدر! فلم تبرح المنزل ولم تقتنِ البيت الجديد، بل البحر هو الذي قطع المسافة من أجلها حتى حاصر منزلها، بل وكل منازل الإسكندرية، وما زال يشق طريقه نحو مدينة إيتاي البارود بمحافظة البحيرة ولا يفصله سوى 100 كيلومتر عن العاصمة القاهرة. تذكرت ذلك وهي ترى مركبًا صغيرًا يمر أسفل بيتها عليه بعض الأشخاص وقليل من الحقائب وكثير من الخيبة، ينظرون خلفهم يشبعون أعينهم من المدينة التي عاشوا فيها وظنوا أنهم ميتون بها. الأطفال كانوا نائمين والمرأة تنظر إليهم وزوجها ينظر إلى الخلف ويبكي، كانت تريزا تعلم أنه كان يلهو صغيرًا بمكان ما هناك وأنه رأى زوجته بمكان قريب. رأته وهو يمسك يد زوجته خلسة على البحر ينظر إلى عينيها، يظن أن العالم سيتوقف عند تلك اللحظة وأنها خاتمة سعيدة وأن الحياة لا تقف خلفهم، تضحك على سذاجتهم خلسة ولا يعلمون ما تدبره لهم، في حين كانوا يختفون من أمام عينيها مثلما اختفى كل شيء تحت البحر الهائج. تذكرت كيف بدأ كل شيء في سويعات قليلة عندما ارتفع منسوب البحر

على غير المتوقع. فمنذ عام واحد كان البشر يحتفلون في شتى أرجاء العالم بثبات درجات الحرارة وعدم حدوث تغير مناخ، كان احتفالًا باهظ الثمن كلفهم الكثير، فقد كان من المقرر أن تصل البشرية إلى أبعد بكثير مما حققوا، ولكن فوهات مصانعهم كانت النيران الصديقة التي ارتدت بصدورنا ودمرت البيئة.

تذكرت السيدة تريزا كيف استيقظت في الصباح لترى الأجزاء الشمالية من المدينة تغرق ويبتلع البحر بأمواج عاصفة أقرب إلى تسونامي المنازل وكيف غرقت البنايات المرتفعة بسهولة إلى أعماق الماء، وكيف أصاب الشلل والحيرة الأجهزة المعنية بالحماية وكيف ألجمت المياه صرخات الغرقى، وكيف هدأ البحر بعد ذلك بقليل كأنما ألقى شخص بحجر كبير من السماء فصنع دوامةً سرعان ما انتهت، ولكن البنايات التي غرقت رفعت منسوب المياه.

فتوغلت بما تبقى بالمدينة واليوم لا تستيقظ سوى على أصوات الغرقى أو حركات الهاربين.

ولكن كيف تترك الإسكندرية وترحل؟! إنها تفضل الموت على ذلك. ولكن أمام كل هذا لم يشغلها سوى شيء واحد، هل سيعود إسكندر؟

- كان إسكندر يطمح للسفر إلى البندقية، ها قد أصبحنا نعيش بها دون أن نبرح مكاننا.

التفتت السيدة تريزا إلى الخلف لترى كيرلس يحمل حقائب بين يديه وعلى كتفه يسارًا يقبع "نادر" وعلى كتفه يسارًا تمكث "ماري".

استطرد كيرلس حديثه:

- لنرحل يا أمي، لم يبقَ لنا شيء هنا.

- كل شيء هنا يا بني، يا رمز الشجاعة صبرًا ساعة.

- الحكومة أمهلت الجميع ساعات لنخلي المدينة بالكامل والبحر لن ينتظر. سنستقل مركبًا حتى إيتاي البارود ومن هناك توجد سيارات، الجميع الآن يهرب إلى جبل المقطم أو جبال الصعيد. وأنا أخطط للانحراف نحو أسوان، فهناك الأرض مرتفعة ولن نغرق فوق جبالها، الدلتا بالكامل ستغرق خلال أيام، وهذا

البيت الذي وصل الماء إلى طابقيه سيأكله الماء لينهار مثلما فعلت بالبقية.

تطلعت نحوه وعيناها مغرورقة بالدموع.

- أخوك إسكندر، هل نرحل ونتركه؟

- سينجو، سيجد دائمًا طريقةً لينجو، نحن نخشى وحشًا يتربص أمامنا في حين هو يمكث بين براثنه، فلن يضره في حين سنهلك نحن. لقد أحب البحر بعنفوان منذ الصبا جعله يكره الأرض ويهوى البحر، يقضي معظم أيامه داخله. ولَّيتِه عنايةً فيما تركتِ الجميع خلفك، جعلتِ منه غواصًا فبات يهوى التسكع مع الأسماك ويمقت السير على الأرض. لو حدث شيء سيستطيع الصمود، حاول البحر مرارًا أن يغلبه وانتصر في حين لن نستطيع نحن حبس أنفاسنا للحظات لو ابتلعتنا المياه.

- سامحني بني، لم أكن أعرف أنك تضمر كل تلك الكراهية لأخيك، بإمكانك الرحيل أنت وأبنائك، أما أنا فسأنتظر.

ضرب كيرلس الباب براحة يده جعل المنزل يتراقص صانعًا دوامات مياه حوله، فارتعد الأطفال وهو يحاول كظم غيظه.

- لا تجبريني على هذا يا أمي، البقاء يعني الهلاك.

- الوداع يا بني، الوداع يا أولاد!

تعلق كيرلس بعين أمه ولكن ذراعه تخور من حمل الأولاد وقلبه يرتجف، كان يتلمس سبيل الخلاص بعين أمه حينما كانت ماري الصغيرة تطلع إلى الخارج نحو الضيف الذي يقترب وابتهجت أساريرها في سعادة لاستقبال الضيف ورفعت ذراعيها.

- يا جدة، إن البحر قادم ليحتضننا.

التفتت الجدة وقد جال شيء واحد بذهنها في تلك اللحظة..

هل ستنبت الأزهار مرةً أخرى؟!

الشر

الشر كالأفعى تبعثر سُمَّها بكل أرجاء المدينة

الشر يقتلع السلامَ والسكينة

والريح تعصفُ بالشراعِ وبالسفينة

أوزوريس يا سيد الحقِّ أغثنا

فقد تبددت الحياةُ لرؤى حزينة

[متون الأهرام]

موسيقى الكاريبي، رقصات السامبا، كانت أول ما يصل صداها إلى مسامع إسكندر، فظل على مدار يومين لا يسمع شيئًا سوى صوت الأسماك ولا يرى سوى الركام، كان الصوت يثلج صدره، وكان في الماضي يمقت تلك الموسيقى.

والآن لو استمع لموسيقى موتسارت الكئيبة لتراقص عليها طربًا. خرج من الماء وهو يرقص وأصبح الصوت أعلى وصديقه على ظهر المركب "ميجاس غوستافو" ينقر مؤخرته يمينًا ويسارًا، فور أن رأى إسكندر هرول صوبه في سعادة يُري له حبل المركب الصغير ليعتليه.

- يومان أسفل الماء يا ابن العاهرة! لعلك اصطدت لنا سمكة بحجم مؤخرتك في النهاية.

صاح الاثنان في سعادة وهما يتعانقان، في حين ينزع غوستافو عن إسكندر الأنبوب والزعانف وما علق به من قاذورات البحر.

- هل أحضرت الفطور لماما؟ لقد كانت تتضور جوعًا وأنت بالأسفل.

- أحضرت لكِ فطورًا يكفيكِ عشرة أعوامٍ يا أمي.

ما كاد إسكندر ينهي كلمته حتى أخرج من حقيبة صغيرة مُعلَّقة بملابسه بعض الأقراط والمصوغات الماسية التي حُجِب لمعانها بانعكاس الشمس على أعينهم للحظات، وأطلق غوستافو صرخات مدوية من السعادة صمّت أذُني إسكندر الذي لم يكن يستمع على مدار يومين لسوى أنفاسه.

- السيدة دكوكو مالكة المركب فرزاتشي ستمنح كثيرًا من السجائر والطعام، سيصبح في المركب مخزون لأشهر عديدة.

- نعم، وسيجعل هذا السفينة تغرق أسرع!

- لا تشغل عقلك، فالمهام معروفة، أنت تجلب خير العالم القديم وأنا أتولى الحراسة، تعلمتُ في اليومين اللذين تغيبت فيهما، هاجمتني كم سفينة، لولا قاذفة الصواريخ التي منحها لنا السيد سيونغ غان لهلكنا، كانوا يهاجمونني وأنت بالأسفل. هم هلكوا وأنا أرقص السامبا، أستمع لنصيحة فتى جاب شوارع كولومبيا جوعًا. الغرق ببطن ممتلئة أعظم من الموت بعظامك. صدقني، ستلعنك الأسماك البريئة التي لن تجد فيك شيئًا لتأكله، وآخر ما ترنو إليه سخط الأسماك، سيجعلون منك برازًا.

- اللعنة عليك وعلى الأسماك! لقد شاهدتهم بالأسفل يبتلعون ما تبقى من كوبا. الجزيرة غرقت بالكامل، أظن أنني كنت في البهامز، لقد كنت أسحب تلك الجواهر من أجساد حلَّلتها المياه المالحة.

خبط غوستافو بيديه في سعادة.

- هذا هو المقصد، نحن نبّاشو البحر نسرق الغرقى أشياءَ لا يريدونها، حولنا نباشون كثر، لو لم نحصد خيرات كوبا لاستمررنا في النزول بالأسفل ولن نستطيع الوصول إليها، لنظل نعمل حتى نستطيع اقتناء غواصة. أتعلم كم أصبح ثمنها الآن؟ إنها باهظة الثمن، سعر الواحدة يعادل أكثر من عشر طائرات بوينغ.

كان الحوار ترتفع حرارته أكثر من حرارة الشمس المحيطة بهم وتعكس نورها على الماء والبحر، فسحب إسكندر قدميه إلى غرفة القيادة بمركبهم القديم، التي بالكاد تكفي لأربعة أشخاص وغرفة وحيدة بالأسفل للنوم. جلس يستعيد أنفاسه ويدير دفة المركب نحو تجمع بوسيدون[1].

وظل كل منهما يرمق الآخر حتى ابتسم إسكندر وتذكر كيف كان اليوم الأول بينه وبين غوستافو.

- غوستافو هل تظن أن كولومبيا ستصمد؟ لقد غرقت نصف أمريكا الجنوبية، سمعت أن دولًا بأكملها تلاشت.

- فلتذهب إلى الجحيم هي ومَن عليها! لم أحيَ بها سوى مثل جرذ مصائد لا يعرف لمن فتحت أمه ساقيها، فلفظتني وهي تقول لي: مرحبًا بك في الجحيم، لعل الماء الذي سيغرقها يطفئ قليلًا من ناري. فقط سأفتقد مرقد القديس بابلو اسكوبار وعاهرات كولومبيا، كنت لأدفن أحزاني وأبكي بين نهودهن الكبيرة.

- هل كان اسكوبار هذا رجل دين؟

- لا لقد كان أعظم تاجر مخدرات ابن العاهرة.

حاول إسكندر منع ضحكاته ولكنها انسابت، فضحك الاثنان للحظات تمنَّا لو أصبحت سنوات كان يداري بها إسكندر خيبته وقلقه الجارف، سدًّا متماسكًا هزمه غوستافو بمعول سؤاله القادم.

- هل تظن أنت أن مدينتك أو مِصر بأكملها ستصمد؟ لقد سمعت أنها أقل ارتفاعًا من باقي إفريقيا، إنها دعابة لطيفة أن تغرق الأرض بأكملها وتبقى إفريقيا فيهرول البيض نحوها وفي تلك اللحظة يمسك زنجي بسوط ويصيح: أيها البيض الملاعين أنتم على أرضنا، أنتم الآن عبيد لدينا، ويحكم الرجل

---

(1) بوسيدون: إله البحر لدى الإغريق القدامى.

الأسود العالم. تلك قصة رائعة لفيلم خيال أو رعب.

ضحك غوستافو في حين وجم إسكندر، لم تكن الدعابة طريفة أو أنه خشي من تحقق نبوءة صديقه وتكون مدينته التي لم يحبها يومًا غارقة.

- أتعلم يا غوستافو، لم أعشق يومًا شيئًا مثل البحر منذ الطفولة، كان أبي الوحيد الذي يصطحبني إلى هناك في الوقت الذي كانت أمي تخشى ذلك. فمن بين أربع أشقاء لأمي غرق اثنان في البحر، ومن يومها صار بينها وبينه حقد دفين وعداوة مستترة. فأن يعترف إسكندراني بأنه لا يحب البحر فكأنما ارتكب جريمة، لذلك كان كرهًا طي الكتمان، حاولَتْ توريثه لي مثلما ورثتُ منها بعض الملامح ولكن لم أفعل ذلك، على عكس أبي الذي علمني بدايةً من الطفو على الماء وحتى الغوص إلى الأعماق، لوهلة شعرت أنني سمكة عالمها هو البحر، والأرض هي سجن كبير أكرهه مثلما أكره تسلط أمي، مثلما أكره خنوع أخي لسطوتها. وكان موت أبي هو ما كسر ما بيني وبين الأرض وجعلني أعزف عنها وأتجه إلى البحار. ليته كان معي! لجلب ضعف ما جلبت ولوصل حتى أعماق كوبا الغارقة وجلب ثرواتٍ لا نحلم باقتنائها.

- قصة تاريخ رائعة يا عزيزي، ليتني أستطيع التعاطف معك أو تقبيلك من فمك، ولكني لست عاهرةً برازيليةً ولن أستطيع فهم موقفك، لأن أبي كان ابن عاهرة وأنجب ابن عاهرة مثلي! هيا لننطلق، فمعنا طريق طويل إلى بوسيدون.

تناسى إسكندر ذكريات والده بالضحك الماجن على كلمات غوستافو النابية التي لا تفارق لسانه ونظرا حولهما، كان عملهما بتلك البقعة قد انتهى، ونظرا إلى خريطتهما المجسمة الثلاثية الأبعاد وحددا وجهتهما التالية نحو المقاطعة بوسيدون، وكان لديهما مخزون كافٍ من الغاز السائل مع الألواح الشمسية على المركبة تكفيهم من رفات كوبا وحتى مكان المقاطعة المستقرة،

مكان ولاية نيفادا سابقًا، وكان معهما مسيرة طويلة تصل إلى سبعة شموس وثمانية أقمار، وعلى الفور حصرا ثروتهما من عمق البحر ولم يغيِّرا ملابس الغوص التي يرتديانها وانطلقا بالمركب صوب البحر الذي لا ينتهي.

***

لم تكن الكلمات تسع لتصف المشهد رغم كونهما شاهداه مرات عديدة، ولكنها الصدمة ذاتها، الدهشة واتساع الفم وبؤبؤ العين عن آخراهما من نهاية المشهد، فلو أنهما وقفا في حضرة بوسيدون نفسه لما كانا بتلك الدهشة. كانت مقاطعة بوسيدون قريبةً من سواحل بقايا ولاية نيفادا الأمريكية التي دمرها الفيضان واقتطع معها أجزاءً من جورجيا وكارولاينا وحتى جنوب فيرجينيا، وكانا من هول الصدمة لم يظنا أن تغرق تلك المدن بسهولة، فما كان لبرج واحد أن يسقط حتى يرفع منسوب المياه فتلحق به البنايات الشاهقة في لحظات. وصارت الناطحات التي ناطح بعض البشر هامات بعضهم من أجلها هي الوقود المسكوب على النار ليزيدها اشتعالًا، وعندما أفاق البعض من صدمتهم تحركت السفن التي كانت في وضع استعداد في ولايات إلينوي وكنتاكي، تلك الولايات التي لم ترَ البحر قط، وكم عظُم تعجب قاطنيها عندما شاهدوا أجزاء العبَّارات العملاقة تُشحَن إلى أراضيهم في وضع انتظار، وبعد تجميعها وقفت كأسد رابض ينتظر فريسته ولم يدرِ أنه هو الفريسة، وكم اندهش سكانها أكثر عندما وجدوا البحر هو من يقترب إلى قلاعهم الحديدية، كانت مفاجأةً حزينةً ولكنها متوقعة.

وتذكروا كيف تقاتل البشر على الظفر بمقعد على السفينة، كم من دماء أُريقت من أجل الصعود إلى سفينة النجاة أو الموت والراحة من المصير المشؤوم المنتظر. كيف تقاتل الرَّاقون والسفهاء وبعض جنود البحرية

الأمريكية يشاهدون ما يحدث بحسرة انقلبت إلى سعادة، شعروا أنهم يوليوس قيصر يشاهد العبيد بالأسفل يتقاتلون على حيواتهم وقد ضمن الجنود مقعدًا كحرس السفينة، وفي النهاية لم تكن السفن على اتساعها لتستوعب تلك الأعداد المهولة، وكانت الأوامر الصادرة الصارمة تفيد أن مع وصول عدد الركاب إلى مقدار معين على كل سفينة فلن يزيد ولو فرد واحد، وأنهم سيطلقون الذخيرة الحية في صدر كل من يحاول الركوب. والآن هم يوفِّرون العناء والذنب عن الجنود ويقتل بعضهم بعضًا، فالطبيب يقتل المعلم والإخوة تتناحر والابن قد يتسلق كتفَيْ أبيه ليحيا. كان المشهد مرعبًا تحول إلى ممتع وبحر الدم كان كفيلًا ليحرك السفينة قبل وصول الماء لتحملها، حتى إن جنودًا ألقوا بسكاكين وأسلحة ليزيدوا جرعة المشهد، واختلط صياحهم بأنين القتلى وبعض الجنود لم يتحملوا المشهد، أفرغوا ذخائرهم في أفواههم فسقطوا صرعى إلى الناس بالأسفل، في حين البقية اعتلوا عرش ملكهم، ظنوا أنفسهم في ساحة الكولوسيوم وأنهم أباطرة من الزمن الروماني يشاهدون ألعاب القتل والعبيد يصارعون أسودًا للظفر بحياتهم.

لم يبقَ بعقل العالم سوى الذكريات الملعونة، ولم يبقَ من تاريخ أمريكا سوى تلك النهاية المؤسفة. والجميع يعرف أن النهاية وشيكة، ولكنهم يمسكون بتلابيب الأمل. ولكن تلك الذكريات انمحت من عقل إسكندر وغوستافو وهما يشاهدان مقاطعة بوسيدون العملاقة أول مدينة ينشئُها البشر منذ بداية الغرق العظيم فوق سطح البحر، مكونةً من 10 سفن وحاويات عملاقة، يصنعون دائرةً كبيرةً في البحر يمكن رؤيتها من الفضاء بوضوح. وأصبحت أول مقاطعة عالمية، إذ يسكن فيها سكانٌ من 43 دولة ممن غرقت أجزاء من أراضيهم، وكانت تُدار من الأمم المتحدة قبل أن يتلاشى دورها وتبعثر أوراقها.

رغم أن غوستافو وإسكندر شاهدا بوسيدون آلاف المرات منذ بداية عملهما صائدَيْ جوائز البحر، فإنهما ما زالا ينبهران كلما شاهدا سفنًا عملاقةً بحجم جبال يقطنها المئات. اتَّبَعَت السلم الهرمي مثل كل شيء، فالفقراء على الأرض هم فقراء هنا يمكثون في قاع السفينة حتى إذا ما سقط الوحش الهائل فلا سبيل لهم للنجاة. ويندرج إلى الأعلى كل من كان مُرفَّهًا بالخارج، ولكن على السفن الجاثمة في مواقعها اختلف كثيرًا التداول، فأصحاب الدولارات الأمريكية كان لهم السبق في كل شيء، ولكن بعد انهيار البورصة والأسواق العالمية صارت الدولارات أوراقًا يلوكونها بين أسنانهم للتنظيف، وأمست بلا قيمة، وصعد مكانهم من احتفظوا بالجواهر والأشياء الثمينة حتى أدركوا أنها حجارة صماء للتزين في عالم يبحث أولًا عن سد رمق جوعه، فتناقصت قيمتها، ولكن هؤلاء الذين صعدوا بالدقيق والسجائر أصبحوا هم الصفوة، ففي الأوقات الكاحلة لا صوت للدولار والماس أمام رغيف خبز وسيجارة، ومن صعدوا السفن بطعام أصبحوا هم السادة، وأصبحت المقايضة والمبادلة هي العملة التي يعرفها السكان الجدد لعالمهم الجديد.

وعندما ساءت الأمور، رغم أن مقاطعة بوسيدون لم تكمل العام، وبعدما تضاءل ما ترسله الدول إليها ولم يجدوا سيطرةً كاملة، وكادت تحدث جرائم سلب ونهب أو حتى قتل لهؤلاء الماكثين بالأسفل الذين يقتاتون على الفتات ولم يجدوا استجابةً من دول العالم المتبقية، وزيادة أعداد النازحين من البحار والهروب خلسةً إلى سطح السفينة، قرروا صناعة مجلس حكم لبوسيدون يتألف من شخصين من كل سفينة، ليصبح المجلس عشرين عضوًا يجتمعون كل بداية دورة قمرية من أجل مناقشة الأوضاع التي تسوء، فالجوع ينتشر والأمراض ووباءٌ واحدٌ مع جرذ نتن كفيل بإبادة جماعية. وبعد غرق معظم أمريكا الشمالية والجنوبية وغرق جرين لاند وألاسكا، فالحياة

بالمحيط الأطلنطي ستصبح مستحيلة. ورغم توقف محركات السفن العملاقة مع محاولات مستميتة لصنع طاقة نظيفة دائمة من ألواح شمسية أو طواحين هوائية وتوليد الكهرباء، فإنها بالكاد تكفي الطاقة المنتجة لتشغيل نصف كفاءة السفن. وظلوا يتناحرون بين شد وجذب للتحرك نحو الأراضي الباقية التي لم تغرق في آسيا وأوربا وإفريقيا وظلوا يجذبون أواصر الحديث، وهذا يهين الآخر، فهذا زنجي وذلك أسيوي لئيم، وتلك عربية إرهابية، وبين شيوعي وأناركي، ولا أحد يعلم.. هل تلك المصطلحات تهم أحدًا الآن؟! وهل ما تناحر البشر من أجله في الماضي سيكون له وجود في العالم الجديد؟!

قطعت صوت الدرونات المحلقة شتات أفكار إسكندر، رفع رأسه إلى أعلى بمركبه الصغير ليرى مئات الطيور الحديدية المعلق بأعلى كل منها لوحٌ شمسيٌّ يجعلها تعمل، كانت تشبه طيور النورس بملامح جوفاء، جعلتها الأمم المتحدة قبل اندثارها تعمل كوسيلة عالمية للدعاية وإعلان الأخبار والأحداث الهامة مرئية وسمعية. اجتمعت الدرونات بأجنحتها في وسط الدائرة الكبيرة بين السفن العشرة وصنعوا مستطيلَ عرضٍ كبير يمتد إلى أربعة كيلومترات، ومن أشعة هولوجرام من أفواه الدرونات بثَّت صورًا وأصواتًا تتحدث بالتحية بكل لغات العالم، حتى بدأ الحديث باللغة الإنجليزية، فأنصت الجميع واشرأبت أعناقهم، المئات وقفوا يتابعون ما تعرضه الدرونات، أسطح السفن تجمعت بالمشاهدين حتى إسكندر وغوستافو المبتعدين بأميال عن مركز مقاطعة بوسيدون كانا قادرين على السماع والمشاهدة.

- سكان كوكب الأرض، نذكركم بكلمات الملك هاري ملك المملكة المتحدة في السابق، أن العالم يشهد محنةً عظيمةً أعادتنا ملايين السنين إلى الخلف، نحن نقف عاجزين مثلما وقف قوم الرسول نوح في الماضي. لا أعلم إن كان ما اقترفناه في حق أنفسنا وأمام الرب كبيرًا لنحيا تلك المحنة من جديد. أبنائي.. إخوتي..

أصدقائي.. رفاقي في العالم، تكاتفوا، لقد مرت الأرض بأسوأ من ذلك وصدمت، لم تنطفئ الشمس ولم يدم الظلام، ستنبت أرضنا من جديد، ستعود الزهور، سنتسلق الأشجار، سنمضي في الطرقات ونتسلق الجبال، سنحيا من جديد. والآن وبعد إعادة كلمة الملك هاري، نذيع لكم أنباءً هامة: شهد العالم منذ قليل زلزالًا كبيرًا ضرب منطقة البحر الأدرياتيكي بقوة 8 ريختر، هو الأعنف في تاريخ المنطقة، ووصلت قوته إلى شمال البحر المتوسط وشرقه، تسبب هذا الزلزال في سلسلة من أمواج التسونامي الكبيرة التي ضربت مدنًا كبيرةً في أوربا وإفريقيا وآسيا، وتسبب في دمار غير مسبوق، وغمرت المياه مدنًا هامة في إيطاليا وقبرص، وغرق معظم كرواتيا وهنجاريا وسيلوفكيا وصربيا والبوسنة وتركيا، وفي آسيا أصاب سوريا وغرق لبنان والعراق وأرمينيا، وفي إفريقيا ضرب الساحل الشمالي والأراضي العربية حتى نواكشوط بموريتانيا، وغرقت مدن أثرية هامة كطنجة وزيغرب وسرايفو وإسكندرية و و و و و و و و و و و...

هل سمع إسكندر ما تلا الإسكندرية؟

هل ما زال لديه القدرة ليستمع لأي شيء؟

هل حقًّا شعر بنفسه وهو يسقط وغوستافو يجري محاولًا لحاقه؟

لماذا جال بخاطره أن أمه كانت تقف تتطلع إلى الأزهار نظرةً أخيرة، وأن كيرلس كان يدفعها إلى الرحيل وكان يسمع حديثهما وهو يخبرها أن إسكندر لن يعود وقد كان محقًّا، وأن ماري الصغيرة صاحت بسعادة مع اقتراب البحر وأنها ظنت أنه قادم ليحتضنهم، ولم تكن لتعرف المصير المشؤوم، وأنه الآن يرى فوق مركبه الصغير بأعماق الأطلنطي عائلته الصغيرة مع الإسكندرية وهم يغصون بأعماق البحر الكبير، وأن القدر لم يمهله أيامًا للعودة مثلما كان يخطط فور تسليم غنيمته التي اقتنصها من بقايا كوبا، وأنه الآن يرى عيني أمه وهي تغوص بأعماق المتوسط إلى الأبد؟!

إنه يرى الترام والشوارع والأزقة وقصر المنتزه وقلعة قايتباي والوجوه الماكثة على البحر تلتمس السعادة منه، ولا تعلم أنه سيسلب كل شيء، بائعي الترمس والسمك وسيدي بشر والأنفوشي، كيف يكون العالم دون الإسكندرية؟!

حاول غوستافو إنقاذ صديقه الراقد على الأرض، خارت قواه ولم يقدر على الوقوف، لم تسعف الكلمات غوستافو ليتفوه بها، ولكن ما رعاه بعد ذلك لم يجعله يفعل شيئًا سوى المشاهدة وترك صديقه الملقى ما دامت أنفاسه تتصاعد، تعلقت أعين الجميع نحو مقاطعة بوسيدون، لم يكن وقع الخبر صادمًا على إسكندر فقط، ولكن على الجميع، منهم مَن لم يتحمل.

كان غوستافو قادرًا على رؤية ما يحدث في المقاطعة، ورغم أن مركبه يقطع أميالًا بحريةً نحو أقرب باخرة، فإن الأصوات كانت تتعالى. غبط غوستافو إسكندر لأنه لم يرَ ما يحدث أمامه، كان جحيمًا مصغرًا اشرأبت عنقه وفغر فاه، لم يصدق ما يراه رغم أنه يحدث أمام عينيه.

بدأ الأمر بشخص يعتلي قمة السفينة، لم يميز غوستافو من بعيد هل هو رجل أم امرأة، شخص صعد قمة الوحش الحديدي، لم يرَ قسمات وجهه ولكن استشعر برود عينٍ انطفأت من بريق الحياة، فرد ذراعيه أو هكذا شعر غوستافو وأطلق جسده للعنان، ظل جسده يسقط لثوانٍ طالت، صنع دوامة كبيرة وهو يسقط في الماء، لا يعرف هل قتلته صدمة السقوط أم السقوط من ذلك الارتفاع أم الغرق أم جميع ذلك، ولكن ما فعله وشاهده أغلب سكان المقاطعة بعد رحيل الدرونات كان شرارة ثورة انتحارية. ما اقترفه البطل الراحل شجع الكثيرين على اعتلاء قمم السفن العملاقة أو أقرب نقطة منها. هؤلاء من فقدوا كل شيء، من فقدوا الأمل، الأمل هو ما أبقاهم على الحياة وهو الذي قتلهم، لقد رحلت أوطانهم إلى الأبد، المدن التي ساروا بها، الحانات التي ارتادوها وأسطح منازلهم وحوانيتهم وأماكن عملهم وضحكاتهم

وبكاؤهم وذكريات وأحباب رحلوا إلى الأبد وظنوا أنهم في نزهة ستنتهي، ولم يدركوا قط أنهم ذهبوا بلا عودة.

احتشد المئات على أسطح السفن، فقدوا كل شيء ولم يتبقَّ لهم سوى أجساد وأرواح خاوية، كان غوستافو يراهم من بعد كنمل يتساقط من زهرة عملاقة، البعض يرمق ما يحدث دون استجابة، كان هناك رجل يرى ما يشاهد، يشعل سيجارة، ينظر إلى البحار الممتدة إلى ما لا نهاية، يطلق دخانًا سيجوبُ الأرض ولم يصل إلى وجهته، في حين تعتلي فتاة بجواره سطح السفينة وتقفز، كانت بجواره لم يمد لها يد العون، رآها تسقط وغض الطرف عنها، أكمل سيجارته، فرغ منها وقذفها خلفها تأبينًا لروحها المعذبة، صوت صراخ الصرعى والمنتحرين أصم آذان الجميع، البعض اختبؤوا داخل غرفهم وأغمضوا أعين الأطفال وباليد الأخرى أصمّوا آذانهم، لا أحد يريد أن تعلق تلك الذاكرة الملعونة في عقله إلى الأبد، استمر الأمر لثوانٍ ظنوا أنها سويعات، ظنوا أنها قرون لا تنتهي.

لن يذكر أحدٌ الساقطين ولن يحصي أحد أعدادهم، لن ينظر إليهم أحد، سيسقطون في أعماق البحر ولن يراهم أحد مجددًا، لا أحد في العالم الجديد لديه وقت للرثاء والنعي، سيكملون بؤس حياتهم، لا أحد يحمل دموعًا ليبكي، لا أحد يحمل مشاعر بجوفه ليحزن، سقط من سقط وانتهى أمره، البعض تأثر، البعض، وبعضهم لم يكترث ولم يبالِ، بعضهم انبهر بالمشهد الدموي وتمنى لو كان بيده كاميرا ليصور ما حدث، البعض تراقص فرحًا بأن حصص الطعام ستصمد قليلًا وأن هؤلاء البواسل المضحين قد تركوا مكانًا لغيرهم.

كان غوستافو غير مصدق ما يحدث واختلطت المشاعر بداخله، وانتهى المشهد العبثي ورحل من رحل إلى الأبد، وهو يتمنى لو كان كل ما حدث مجرد خيالاتٍ بعقله فقط.

الجميع يعرف المستقبل

الجميع يجهل الحاضر!

البشر هم البشر

يعشقون طريقة حياتهم المزرية، بعضهم يفضل أن يظلوا عبيدًا يقرعون بالعصا ويقتاتون الفتات، وبعضهم يعشقون صولجان الحكم، وبين النقيضين بشر لا يرغبون في شيء. هؤلاء هم البشر، ينقلون قوانينهم وقيود أعناقهم يجرونها خلفهم، سواء سكنوا الأرض أو سكنوا البحار أو افترشوا السماء.

كأن شيئًا لم يحدث! كانت مقاطعة بوسيدون تمر بيوم طبيعي، كأنه لم يحدث من ساعة واحدة انتحار أكثر من مئة وأربعين شخصًا في التقدير الأول وإحصاء الأعداد، كان الأمر طبيعيًّا في المقاطعة، فالبعض لديه القدرة على التحمل والبعض الآخر ليست لديه القدرة، والحياة ستستمر حتى بعد غرق اليابسة وحتى بعد انتحار زمرة من الجبناء وضعاف القلوب. وكحال الجميع، كان يسير إسكندر وغوستافو في السفينة "تي-88"، ثاني أكبر سفينة في المقاطعة التي ينافس طولها طولَ برج إيفل قبل أن يغرق البرج وتغرق فرنسا، وكان مركبهم الصغير قد شُحن على ضفاف السفينة العملاقة حيث مرسًى كبيرًا

يحيط بها، ويصل عدد المراكب واليخوت المحيطة بالسفينة إلى سبعين مركبًا، بعضها للتجار وصائدي الجوائز وبعضها لأثرياء العالم القديم الذين يحبون التجول بيخوتهم الفاخرة ثم العودة إلى المقاطعة.

خطوات غوستافو كانت سريعةً في حين خطوات إسكندر كانت بطيئة، ما زال تأثير الخبر الصاعق عليه، شعر أنه لا مكان له الآن وأن أمنيته بأن يصبح ابن البحر صارت حقيقة، لأنه ليس هناك مكان آخر يذهب إليه، وتمنى أن تكون أمه وأخوه قد نجيا في السفن أو أن تكون هناك يابسة على الكوكب لم تغرق بعد. ظل إسكندر يسير صامتًا بجوار غوستافو وظنا أنهما يسيران لساعات، فالمركب كان ضخمًا بحق حتى ظن أنه في ضعف حجم مبنى "سان ستيفانو" بالإسكندرية، وكانا يعلمان وجهتهما بالطابق السابع بالسفينة، حيث حانة "بلاك مان"، وما إن وصلا وجدا رجلين من "قوات بوسيدون"، وهي الجهة المعنية بالحماية في العالم الجديد والجيش الخاص بالمقاطعة، وفتشا غوستافو، في حين أخذ إسكندر يتأمل ملابسهما التي تشبه ملابس الجيوش ولكن باللون الأزرق، وعلى أذرعهما شارات بوسيدون "سيد البحر"، وظَهْراهُما محنيان دائمًا بسبب أسطوانات الأكسجين البلاستيكية التي يرتدونها باستمرار لحالات الطوارئ، في حين أفلتت ابتسامة من غوستافو، فنظر إليه المفتش عن يمينه.

- ما الذي يجعلك تضحك أيها اللاتيني؟

- تقفون هنا لتحرسوا الأثرياء، في حين منذ قليل كان المئات يلقون بأنفسهم من السفينة ولم تحركوا ساكنًا. الشرطة هي الشرطة في كل مكان وزمان!

- نحن في عالم أكثر حرية الآن، سنمنعك لو حاولت قتل شخص، ولكن لن نمنعك من قتل نفسك، في النهاية ستترك طعامك لشخص آخر يستحق.

أنهى المفتش كلماته وطرق طرقتين على باب الحانة لتفتح، ليدخل

غوستافو وإسكندر من خلفه، لم يُغيِّرا ملابس الغوص التي باللون الأسود والتي بالطبع لم تكن ملائمةً لطابع المكان الذي لم يتغير من صالة الرقص وبار الخمور ومقاعد في الزوايا لحكام العالم الجديد، فتلك الحانة رغم أنها ليست الوحيدة بالسفينة، يرتادها السيد كيتاشي والسيد نورمان قائدا السفينة وممثلاها بمجلس حكم المقاطعة، يتخذان القرارات الهامة على صوت كاتي بيري والنبيذ الفاخر، وبينما الصديقين يسيران يتأملان حالة الناس من السكر واللهو لا يظنان أنهما يعرفان ما حدث بالخارج منذ ساعات وأن المئات قفزوا من عرض السفن بمشهد سريالي ليودعوا العالم، وأن بعض الجالسين هنا قد يكونوا من سكان المدن التي غرقت، ولو علموا للحقوا بالمنتحرين ولكن بعد أن يفيقوا من سكرة الخمر والنساء، وشقَّا طريقهما نحو طاولة منزوية تجلس عليها السيدة دكوكو الإيطالية التي رغم أنها قاربت خمسين عامًا ولكنها داخل ملابسها المثيرة بالفستان الأزرق شبه العاري الذي يطل منه نهداها الفائران، تبدو كمونيكا بيلوتشي في العشرينيات من عمرها، ولم تكن بمفردها، بل كان بجوارها رجل سمين يرتدي جواهر ويرتدي الجلباب والعقال المميزين، فأيقن إسكندر أنه من الخليج العربي، فوقفا الاثنان قليلًا على حافة الطاولة في حين نظرت إليهما دكوكو بسعادة وأشارت لهما بالجلوس، فحيَّا الرجل العربي الجالس واستمعا في صمت لما يدور والعربي يكمل حديثه بإنجليزية ركيكة.

- تعلمين يا سيدتي أن ما حدث رغم مأساويته سبب لي فائدةً كبيرة، فقد كان السيد نورمان عضو المجلس يخطط أن يمنحني سبائك الذهب مقابل البترول الذي ضختُه منذ عام، وهو ما يجعل السفن الصغيرة تدور والكهرباء لا تتوقف عن السفينة، والآن بعدما غرق بنكه في موناكو لن يستطيع تعويضي عن بترولي، وبالطبع لن يحدد نفوذي داخل السفينة التي يحيا سكانها بفضل بترولي، وسأنفذ لكِ كل ما تريدينه من المجلس الحاكم.

تنهدت السيدة دكوكو في حزن واضح.

- رغم أن وطني جزيرة صقلية قد غرق منذ عام، فإني حزينة لغرق باقي إيطاليا ومدن البحر المتوسط، أشعر الآن أني ضائعة في الماضي، لا يمكن أن يمر عام دون السفر إلى عشر دول مختلفة، واليوم أنا أجلس بتلك السفينة كمقبرة عملاقة لا مناص منها، حتى يختي فرزاتشي لن يمنحني السعادة، فكل السفن تشبه بعضها، والعالم الآن قطرة ماء ضخمة لا تنتهي.

رشفت بعض الخمر من كوبها ونظرت إلى إسكندر.

- لماذا لا تشرب يا إسكندر؟ لقد عرفت أن مدينتك غرقت هي الأخرى، اشرب معي نخب البحر المتوسط وهلاكه، وأنت أيضًا يا غوستافو، فكلنا الآن أبناء البحر الواحد.

شرب الجميع الخمر حتى العربي تجرع كوبًا كبيرًا، وموسيقى موتسارت في الأجواء أضفت طابعًا من الكآبة على المكان حتى حاول غوستافو تخفيف الأجواء وإنهاء ما قدم له.

- سيدة دكوكو لقد جلبنا لكِ ما تريدينه وقد سلمناه لرجالك قبل أن ندخل إليك.

ابتسمت دكوكو وأمسكت بجهاز لاسلكي بجوارها ليصدر صوتًا بالإيطالية لم يفهمه أحد من الجالسين، عدا إسكندر الذي ابتسم، وتبعته دكوكو بابتسامة لتردف قائلة:

- من الرائع أنكما عثرتما على بقايا كوبا وثروات كوبا، كنت أحب زيارتها. أخبرني يا إسكندر، هل ابتعدت كثيرًا بعمق البحر؟

- لا سيدتي، لم تبتعد سوى 30 ميلًا بحريًّا عن موقعها فوق سطح البحر، ولكن أظن أنها ستستمر بالانحراف داخل البحر حتى يختلف مكانها.

بان القلق على وجه دكوكو فباتت تخفي وجهها خلف جرعة من الخمر تجرعتها مرة واحدة.

- حتى رفات صقلية تحت البحر قد لا أعثر عليه يومًا بسبب حركة الأنقاض تحت البحر والتحلل، هل تصدق ذلك يا سيد صقر؟

أشارت دكوكو إلى الرجل العربي بجوارها الذي صادف أن اسمه صقر، فابتسم الرجل لها وقال:

- أتعلمين سيدتي الجميلة أن لي أقارب أرادوا أن يؤدوا شعائر الحج وطلبوا مني الذهاب معهم، ولكني أخبرتهم كيف يجوز الحج وقد غرقت الأرض؟! فأخبروني أن حتى الموت لن يمنعهم من أداء الحج ولو سكنوا في الفضاء. فأخبرتهم لتصحبكم السلامة. وساروا على الخرائط البحرية والجغرافيا لتحديد موقعهم من بوسيدون. هنا حيث السواحل الأمريكية في الماضي وحتى الأراضي المقدسة، ولكنهم نسوا شيئًا هامًّا، أنهم يسيرون على دليل العالم القديم وليس العالم الذي نقطن فيه الآن. وذهبوا وبعد شهرين عادوا في سعادة وأروني الموقع الذي كانوا فيه من القمر الصناعي، فانفجرت من الضحك دون أن يدركوا لماذا كنت أضحك، وظللت أسعل من الضحك دون توقف، فتحول تعجبهم إلى غضب ونهروني عن الضحك، ولم أكن أريد أن أخبرهم، ولكن أمام ثقل ظلهم أخبرتهم أن القمر الصناعي أشار أن الموقع الذي كانوا فيه في البحر أسفله توجد إسكتلندا وليس مكة المكرمة.

انهمر الرجل في الضحك بخلاعة لا تناسب ملابسه وعمره، ومجاملةً له ابتسمت دكوكو وإسكندر على استحياء، في حين نظر إليه غوستافو بحنق واضح ولكن لكزه إسكندر فأظهر غوستافو أسنانه في إشارة للسعادة.

- أشكركم يا أصدقائي الأعزاء، سيصل إلى غرفتكم الآن ما اتفقنا عليه من الطعام والسجائر والوقود. وأشكركم على الهدايا الثمينة من البهامز، وأيضًا أريد أن أخبركم أن السيد صقر ينتظركم، فقد أخبرته عنكم وعن خبرتكم، ولديه مهمة مناسبة لكم وبمقابل ضخم.

انتهت دكوكو من كلماتها في حين لمعت عين غوستافو لمهمة جديدة مع ثري عربي، حينما لم تكن نفس الحماسة من إسكندر الذي لا يخوض مغامرة في البحار دون معرفة الغرض المرجو منها.

- سيدة دكوكو، يبدو أن ضيوفك منهكون من وعثاء الطريق، والبحر متقلب غدار كما كان يقول عنه شعراؤنا القدامى، دعيهم يرتاحون قليلًا وغدًا سنتحدث على المركب الصغير الذي أملكه وهو قريب من المقاطعة، فإني لا أحب أن أوقفه أسفل السفينة خشية أن تنتحر عليه حشرة نافقة من سكان تلك السفينة الكريهة الرائحة. سأنتظركم غدًا، والآن يمكنكم الراحة.

فور أن انتهى السيد صقر من كلماته، نظر إسكندر إلى غوستافو للرحيل، فقد تمت الصفقة ويبدو أن السيدة دكوكو وضيوفها لديهم أمور كثيرة ليناقشوها، سواء في الحانة أو في سرير مركب فاخر، وحيُّوهم مغادرين، وفي لحظات كانوا قد غادروا الحانة ذاهبين نحو غرفتهم المغلقة، منذ أن غادروا لمهمة السيدة دكوكو في الطابق الثاني وهبطوا خمسة طوابق تبدل فيهم الكثير، فالسفينة كدرجات الجنة كلما صعدت، وكدرجات الجحيم كلما هبطت (عندما كان يوجد من يؤمن بالجحيم والنعيم)، فالطبقات العليا للفئات العليا والطبقات الدنيا للشراذمة والكادحين، ولكن لم يشكل ذلك فارقًا بالنسبة إلى إسكندر وصديقه، فكانت السفينة "تي-88" بالنسبة إليهم ليست أكثر من مجرد استراحة طريق يمكثون فيها للاتفاق على المهام الجديدة مع الفئات المرموقة أو لراحة المركب ريثما يستأنفون طريقًا جديدًا يتلمسون منه عطاءً كبيرًا من الطعام والوقود. وما كادا يصلان إلى غرفتهما في كابينة بالطابق الثاني حتى أخرج غوستافو مفتاحًا ليفتح باب الغرفة الخشبي الموصود منذ رحيلهما، ولكنه قد فتح حديثًا على يد حرس السيدة دكوكو، وما إن فتح الباب وجدوا صناديق كبيرة مكونة من ثلاثة صناديق، فتح غوستافو الأول ليجد فيه

كميةً من علب سمك التونة وعلب سمك السلمون لا حصر لعددها، ووجد في الصندوق الثاني أعدادً كبيرةً من علب السجائر والتبغ الأمريكي الفاخر الذي بات يُستَعمل كعملة مقايضة لا مثيل لها، وكان على الأرض صندوق ثالث، فتحه إسكندر ليجد فيه عبوات من زيت المراكب، الذي يكفي ليقطع مركبهم الصغير نصف الكوكب والعودة ذهابًا وإيابًا. ابتهج غوستافو بالغنيمة الكبيرة ونظر إلى صديقه.

- إسكندر أيها اللعين، لقد صرنا أثرياء بحق، يمكننا بتلك الغنيمة شراء مركب أكبر كثيرًا وترسانة أسلحة، نحن الآن سادة البحر، أشعر أن المهمة مع هذا العربي ذي الصدر الكبير الذي يضاهي صدر السيدة دكوكو، سيمنحنا مكافأةً نستطيع شراء مقاطعة بوسيدون بها.

صمت إسكندر وتأمل الغرفة الصغيرة ذات السريرين أحدهما فوق الآخر وبعض الأثاث الصغير العديم القيمة.

- ماذا ستفعل الآن؟ لم أحظَ بالنوم لمدة أيام، سأحصل على بعض الماء للاستحمام ثم سأخلد إلى النوم، أشعر أنني سأنام لأيام.

- تستحق الراحة يا صديقي، سأذهب أنا إلى الخارج لأشعل سيجارة وأجلس أمام البحر قليلًا.

ابتسم غوستافو ووضع يده على كتف رفيقه ونظر إلى عينيه عميقًا وتكلم بجدية يفتقدها ويفتقر إليها:

- لا تقلق يا أخي، حتى لو غرقت إفريقيا بالكامل لا بد أن عائلتك الآن على متن سفينة إغاثة تبحر إلى مقاطعتنا أو مقاطعة "نوح"، ستراهم من جديد، أنا أصدق هذا.

اكتفى إسكندر بهز رأسه وأخرج علبة سجائر من جيبه وهو يغادر الغرفة حيث الممر الطويل الموصِل إلى حافة السفينة، حيث البحر الممتد على مرمى

البصر، وتلك المرة لن يكون هناك نهاية للبحر، حقيقة مرعبة أن تصدق أن ما كنت تظنه هو الحرية تكتشف أنه سجن كبير لا مناص منه، دومًا ما كره إسكندر الأرض، كره خوف أمه المبالغ عليه وغيرة إخوته، ظن أنه كالطائر الماكث في السماء دون العودة إلى العش، كان البحر ملاذه ومهربه من الأرض رغم ضجيجها، أحب سكون البحر حتى وقت هياجه، كان صوت أمواجه يطربه، والآن شعر أنه خائف منه للمرة الأولى، وأن صوت الأمواج لن ينتهي، سيظل يسمعه من الآن وحتى النهاية، لا صوت سطوة أمه أو صوت غيرة إخوته، الآن سيكسر رتابة البحر، وما عاد في الكون لون آخر سوى الأزرق، واليوم اختفت سائر الألوان وما عاد شيء في الوجود سوى البحر.

- هل أنت سيد إسكندر؟

أشاح إسكندر بعينيه عن البحر المظلم الممتد إلى الأبد نحو فتاة صغيرة ترتدي فستانًا صغيرًا وعليه سترة نجاة صفراء رغم أن السفينة لا تغرق، فتعجب من ارتدائها مثلما تعجب من معرفتها اسمه.

- ماذا تريدين؟ وكيف عرفتِني؟

- لقد أرسلتني سيدتي من قلعة أفروديت ترسل في طلبك منذ أيام، وعلى مدار أيام كنت أحضر كل يوم إلى غرفتك وأنتظر عودتك حتى وجدتك.

- ولمَ تريد رؤيتي تلك المومس؟

- لا أعرف سيدي.

لم يبالِ إسكندر بكلماته أمام الفتاة الصغيرة فهي تعمل في قلعة أفروديت ومعنى ذلك أن عشرات الرجال ضاجعوها قبل أن تصل حتى إلى سن البلوغ. تحركت الفتاة في حين تبعها إسكندر، لم يستوعب بعد لمَ تطلب أفروديت البرازيلية رؤيته وهو لم يأتِ إلى قلعتها سوى مرة واحدة منذ شهور لا يحصيها وفعل ما فعل وترك المال ورحل بسلام، لم تكن القلعة بعيدة،

فقد كانت في الطابق الخامس في منتصف السماء بين عالم الأثرياء من أعلى وعالم الفقراء في الأسفل، وتفتح القلعة المكونة من حجرة كبيرة كانت تستعمل مطعمًا في السابق قبل نهاية الأرض، ليسمح المجلس الحاكم بتحويلها إلى بيت دعارة مرخص ومحمي من قوات بوسيدون. ويوجد مثلها في كل سفينة من العشر سفن، واحدة على الأقل ولكل منها مدير مختلف حسب من دفع أكثر للاستحواذ عليها، فالمجلس الكبير لن يمنع باقي البشر من الجنس والعربدة، وهذا ضروري لحفظ الأمن في العالم الجديد حتى لا يتجه البعض إلى الاغتصاب أو الخيانات الزوجية وما يعقبها من جرائم، ولكل منزل بغاء قانون واحد متفق عليه تسير عليه باقي المنازل بالسفن لا يتخطاه أحد، وجاء منزل السفينة "تي-88" من نصيب سيدة برازيلية في الخمسينيات من عمرها تدعو نفسها أفروديت ولا أحد يعلم اسمها الحقيقي، وكانت سمراء استوائية تملك قلبًا كبيرًا يعلوه صدر كبير ومؤخرة كبيرة تضاهي جبلين ثلجيين ممن أسقطوا السفينة تيتانك حتى يقال إنها قتلت زوجها بحبس أنفاسه بين مؤخرتها فلم يستطع التنفس حتى كانت آخر ما رأته عيناه فتحة شرجها، وظل إسكندر طوال الطريق يحاول تذكر هل بدر منه شيء في زيارته للقلعة يستدعي طلبه مرة أخرى سوى تلك الفتاة الشقراء التي ضاجعها، وما إن وصل إسكندر والفتاة إلى الطابق الخامس وجد رجلين من حرس بوسيدون بملابسهما الزرقاء وأنابيب الأكسجين على ظهريهما وبيديهما هرواة غليظة، لم يفتشا الفتاة ولكنهما فتشا إسكندر ثم سمحا له بالدخول، وعلى عكس الصمت بالخارج كانت موسيقى التكنو تملأ المكان صخبًا، والرجال والنساء يرقصون، والبعض يقفون حول طاولات مرتفعة بها عمدان حديدية بعضها عليها رجال عراة يتراقصون وبعضها عليه نساء عرايا يتراقصن، وبعضهم الآخر يجتمعون حول رجل يعتلي امرأة أمام الجميع دون خجل، والآخرون يصفقون

لهم مع كل وضعية جديدة كأنهما يخوضان مباراة ملاكمة وليس مضاجعة جنسية. وقف إسكندر يتأمل المكان من حوله الذي زاد معدل فاحشته أكثر من آخر زيارة له، فقد كان بيت بغاء محترم والآن تحول إلى عربدة كاملة بكل الملذات والرغبات الغريبة، أيقن أن لو كان للإله سخط فلا بد أن يغرق هذا المكان في البداية.

نظر حوله إلى الفتاة فلم يجدها، تبخرت وسط الجموع في حين وجد رجلًا ضخمًا أمامه يشير إليه بالتحرك معه، دون كلمات أكمل إسكندر سيره معه، فقد كان يريد معرفة سبب وجوده هنا خصيصى في ذلك الوقت المتأخر من الليل، وظل يسير به يشق عباب المدعوين المترنحين كالموج من فرط الخمر والشهوة حتى غرفة صغيرة في نهاية القلعة لها باب حديدي، نقر الرجل الضخم الباب مرتين ففتح له وأشار لإسكندر بالدخول، ويبدو أنه مقر قيادة القلعة الماجنة، فقد كان عليه كاميرات مراقبة ورجال حراسة، وفور دخوله أُغلِق الباب ووجد إسكندر نفسه أمام غرفة خالية من كل شيء عدا مكتب خشبي وسرير كبير، وكانت السيدة أفروديت البرازيلية تجلس على المكتب تدخن غليونًا تفوح منه روائح الماريجوانا وتنظر نحو الصالة بالخارج من شاشة كبيرة، وتشير لإسكندر بالجلوس دون أن تنظر إليه، فيجلس على كرسي مبطن، يتطلع إلى المكان حوله وينتظر كلمات تكسر رهبة الصمت، وكاد يتكلم لولا جدية مفرطة مرتسمة على وجه السيدة أفروديت كأنما وجدت شيئًا لافتًا، ولكنها أغلقت الشاشة بعد لحظات ونظرات إلى إسكندر المتشوق إلى معرفة سبب وجوده.

- زيوس لتحضر لي الرضيع.

أيقن إسكندر أنها تخاطب لاسلكيًّا بيديها ولم تكن تكلمه، وتمنى لو تنتهي سريعًا مما تريده ليغادر جبل الأوليمب المدعو به من أفروديت وحتى زيوس،

وتمنى أن يرحل قبل أن يقابل هرقل، وكاد يوجه إليها سهام أسئلته كصواعق برق زيوس التي نادته، ولكن سرعان ما انفتح باب جانبي بالغرفة غير ذلك الذي دخل منه، وظهر منه رجل أسود عملاق يبدو أنه من عصابات الزنوج بأمريكا من رابطة رأسه وحتى ملابسه التي تشبه ملابس كرة السلة، ولكنه يحمل لفافةً بيده بها طفل صغير وضعه أمام أفروديت الأبنوسية، وسرعان ما حملت الطفل وقامت من مقعدها بصوتٍ مصدره حركة مؤخرتها مع احتكاك الكرسي، لتقترب من إسكندر وتضع وجه الطفل بجوار وجهه، وتتأمل الرضيع النائم مع وجه إسكندر الذي لم يتحمل الصمت أكثر من ذلك.

- ماذا هناك سيدتي؟ لماذا أنا هنا؟ ومن هذا الرضيع؟ ولماذا تقارنين وجهي بوجهه؟!

لم تجب السيدة البرازيلية واستمرت في التأمل حتى ابتسمت قليلًا وحملت الطفل إلى يد زيوس وصاحت:

- أخبر إدارة السجلات البشرية على المركب أن الطفل المولود منذ شهر أصبح اسمه إسكندر ليسجلوا ميلاده لديهم.

هز زيوس رأسه وغادر الطفل، أما إسكندر فيكاد يجن جنونه من الطفل الذي منحوه اسمه منذ لحظات ولا يدرك ما يحدث حتى. علت نبرة صوته بحدة فقد كان يومًا طويلًا شاقًّا ولا يتحمل أن تتشابك ألغازه أكثر من ذلك.

- أريد تفسيرًا الآن وإما سأغادر، هل تفهمين؟!

نظرت أفروديت بنظرة خالية من المشاعر نحوه، وكاد قلبه يتوقف من الخوف، حتى إن زيوس وقف عند الباب وعلى وجهه نظرات توحي أنه سيدق عنقه لو أشارت إليه السيدة بذلك، ولكنها أشاحت بيدها لزيوس ليرحل بالطفل، وأشعلت الغليون من جديد وخاطبت إسكندر للمرة الأولى.

- إسكندر ميخائيل، مصري الجنسية، قدمتَ إلى قلعة أفروديت منذ عام

تقريبًا في الأيام الأولى لمقاطعة بوسيدون قبل أن ينهار العالم بالكامل، لدينا سجلات بكل الزوار، البعض نحتفظ بهم والبعض نرميه لسمك البحر إذ لا قيمة لهم، وأظن لولا عملك صائدَ جوائز البحر لرمينا ملفك، ولكن عملك هام في العالم الجديد، فليس للبعض مهارة الغوص في البحر مثلك، كأنك برمائي، وبعض كبار المقاطعة يعتمدون عليك لتجلب لهم من البحر ما يريدون، ولكنك هنا ليس من أجل عملك، بل بسبب عضوك الذكري، فقد تسبب لنا ببعض الأضرار، عندما قدمت منذ عام قضيت سهرةً لطيفةً انتهت بفيكتوريا البولندية، تلك الفتاة ذات الشعر الأحمر، هل تتذكرها؟!

لم ينسَها إسكندر قط ليتذكرها، فقد كنت أجمل امرأة عرفها في حياته، كما كانت بريئةً وخجولةً كما لو أنها زوجته في ليلتهما الأولى، وكم تمنى لو عاد إليها مرات أخرى، ولكن مغامرات البحر أبعدته لفترات طويلة، وجعلت أحداثُ العالم البعضَ أكثر نهمًا للجنس والمتعة قبل الرحيل، وتفعل العكس تمامًا بالبعض الآخر فيزهدون كل شيء.

- هل تجلبون كل من يضاجع امرأةً منكم لتُجروا معه تحقيقًا؟!

- الزبائن الأذكياء الذين يعلمون أن حيواناتهم المنوية مصيرها إلى القمامة لا، ولكن الحمقى الذين يتخلصون من قذارتهم في أرحام فتياتنا نعم، فبعد رحيلك بما يقارب شهرًا حملت الفتاة، ومن قواعد المقاطعة بوسيدون عدم الإجهاض، فالموتى هنا كثيرون والمنتحرون أكثر، وقد سنُّوا هذا القانون الغبي حتى لا ينقرض البشر في تلك المقاطعة. وإذ إنني أعمل تحت إمرتهم ويحرسون قلعتي فلا حق لي بفعل شيء، كما أنني سيدة تقدم المتعة للجميع حتى لفتياتها، ولو كنت استشعرت لديها رغبةً في إجهاض الجنين لفعلت ذلك رغمًا عن القواعد، ولكن استشعرت لديها حبًّا لبقائه، فتركته وأحصيت الرجال الذين ناكحوا فيكتوريا قبل الحمل لمعرفة والده، ولم يكن ذلك بالعمل الشاق،

فقد كانوا أربعة رجال في المدة التي سبقت حملها، ومع مولد الجنين كان من الصعب قليلًا معرفة الوالد، فأنت تعلم، لقد أنقذ البشر بعض التكنولوجيا وحملوها على السفن والبعض الآخر لم يحالفه الحظ، أو ظنوا أن العالم الجديد لن يهتموا فيه بمن ضاجعت مَن ومَن أنجب ممَّن، لذلك أحضرنا الثلاثة رجال فور الولادة، وكم كان من الرائع معرفة أن رجلًا منهم أسود البشرة لا يشبه الطفل، والثاني صيني، والثالث أمريكي، والرابع أنت، وظل الشك والحيرة بينكما، بخاصة أن فخامتك دائمًا مبتعد عن السفينة ولا تظهر، فجعلتُ فتاةً تنتظرك كل ليلة حتى علمت بقدومك، والآن وبعض المقارنة بينك وبين الطفل، أستطيع أن أيقن أن الرضيع هو ابنك أنت.

لم يستوعب إسكندر ما يقال، شعر أنها تهذي أو هو من يهذي أو كأنما نقله شخص من الواقع إلى الحلم، أو أقرب إلى الكابوس، أو تلك مزحة رخيصة نوعًا ما كبرامج المقالب التي كانت تعرض في شهر رمضان في الماضي، أو أن السيدة تتلاعب به وتريد أن تلقي على عاتقه ابن زنا لشخص ما. ظل يحدق إلى السيدة ببلاهة ولا تسعفه الكلمات لقول أي شيء، وينتقل بنظره بينها وبين الحائط وبين حك جبهته.

- كنت أظن أن مشاعر الفرح أو الغضب ستتملك منك، ولكن تلك النظرة لم أعهدها من قبل، لست الأحمق الأول الذي يفعل ذلك، بعض الرجال كانوا يفرحون جدًّا أن صار لهم ابن بعد هلاك عائلته، وبعضهم الآخر يغضب بشدة خشية أن تعرف زوجته. أعلم أن أبناء العاهرات ليسوا مصادرَ للفخر ولكنهم أبناؤكم أيضًا!

- لا أصدق ما تقولين يا سيدتي، بالتأكيد يوجد خطأ ما، ومَن تلك التي ضاجعها الرجل ولكنها حملت مني من مرة واحدة؟! كيف هذا؟! بل هو شطط الحديث!

- بإمكاني أن أحضر لك الطفل مرةً أخرى لتراه بنفسك، إنه يحمل قسماتك ووجهك ولون شعرك الأسود وبعيد كل البعد عن الرجل الأمريكي الآخر.

- لا أريد رؤية شيء، أنا لا أعرفه، لا أعرفك، ولا أتذكر العاهرة التي تتحدثين عنها، وأشكرك على هذا الوقت القصير. الوداع!

قام إسكندر ليغادر مكانه، ولكن صوت السيدة أجَمَ قدميه وثبته.

- ليس من المعروف عن قلعتي أنها تأوي اللقطاء، بل تلقيهم إلى القروش الجائعة.

- لماذا لا تتركينه لأمه لتربيته أو تطرديهما معًا؟

تنهدت السيدة وقالت بحزن:

- لقد ماتت أمه وهي تلده، ولا أظن أن أحدًا هنا سيرعاه مثل أبيه.

لم يبدُ على إسكندر التأثر، ولكن صاح بنفس الجدية:

- لتضعيه بين مؤخرتك الكبيرة، هذا لا يعنيني.

أكمل إسكندر سيره، وفور أن فتح الباب وجد زيوس العملاق ويبدو أنه احضر معه هرقل بالفعل، يتوسطان باب الخروج، فنظر إليهما إسكندر وأيقن أنه سيتعرض لضرب مبرح، ولكن السيدة أفروديت أشارت لهما ليفتحا الطريق له ليعبر وهي تشير له وهو يغادر.

- فكر في ما أخبرتك به ولا تطل التفكير، فالقروش دائمًا جائعة.

ما هذا اليوم الذي يبدأ بغرق الإسكندرية وينتهي بطفل من أم عاهرة كل مَن يملك المال يمتطيها! كان هذا جلُّ ما جال بعقل إسكندر وهو يغادر قلعة أفروديت يلتقط نفسه بصعوبة أمام البحر، يتطلع إلى باقي سفن المقاطعة البعيدة المترامية الأطراف، التي يشع منها نور يضيء عتمة البحر القاتم. تلمس طريقه وسط السفينة التي لا تنام، فالبعض يشبهها في المقاطعة

بمدينة نيويورك، ولو كان البعض يسهرون للعمل أو بنظام "النوبتجية" فيجب أن يستيقظ طاقم السفينة الكبيرة والحرس على دوريات، وكذلك النظام موحد في التسع سفن الباقية.

هبط إسكندر درجات سلم السفينة الضخمة، لا يعلم كم من الوقت مر ولكنه يعلم أنه يريد أن يحظى بنوم هادئ في يوم عصيب لا يبغي الرحيل، وبصعوبة عثر على ضالته، فتح باب الغرفة ودلف إلى الداخل، وكان صديقه غوستافو يحتضن صناديق الطعام وفمه مفتوح يسيل لعابه منه ويغطُّ في نوم عميق. لم يشأ إسكندر التفكير في شيء سوى أنه يريد النوم، فحمل نفسه حتى سريره ودون أن ينزع ملابس الغوص التي يرتديها منذ أيام، وارتمى على السرير عسى أن يجد السلام والسكينة، عسى أن يتوقف عقله المشتت عن التفكير في كل شيء وبداية كل شيء، لم يكن بين جسده وبين السرير سوى سنتيمترات قليلة، ولكنه ظن أنه يسقط من مكانٍ عالٍ كأنما وضعه شخص على قمة الباخرة وألقاه نحو البحر العاتي في ليلةٍ ظلماء، سقط في النهاية ولكن ليس في البحر، بل سقط داخل عقله، وهو أسوأ من ظلمة البحر.

الديناصورات على الأرض انقرضت
الطيور الضخمة في السماء انقرضت
وحوش البحر انقرضت
فلماذا تظن أيها الإنسان أنك ستنجو؟!

عام 2029

"النهاية قادمة ونحن من صنعناها بأيدينا الأثمة"
[نيويورك تايمز]

كأن هذا العقد يأبى الرحيل دون أن يعلن نهايةً للبشرية بدايةً من عام 2020 بظهور وباء الكورونا، الذي قضى على ملايين البشر هو ومشتقاته من الأمراض الأخرى، مرورًا بالحرب بين روسيا وأوكرانيا التي كانت بداية النهاية لكوكبنا، فلم تمر أعوام قليلة ونشبت حرب ضروس بين الصين وتايوان وأصاب العالم سعار الحرب والدمار، فتبعتها حرب بين الهند وباكستان وحرب بين إيران وإسرائيل وحروب شرق آسيا وغرب أوربا، ثم أزمة كبيرة في الولايات مع انفصال كاليفورنيا، فتصدعت القوى العظمى بالعالم وتفككت إلى ولايات مستقلة متحاربة. ورغم اتفاق العالم في مؤتمرات عديدة اختُتِمت بمؤتمر وقف النووي، إذ بالفعل وقف العمل بالترسانات النووية لأنها ستعني نهاية

العالم بالكامل، وحتى المنتصر والمهزوم سيخسران كل شيء؛ لم يمنعهم ذلك من استخدام أسلحة لا تقل بشاعةً ودموية، بدايةً من القنابل الكهرومغناطيسية والقنابل الجرثومية والصواريخ العابرة للقارات، مع انتشار أسلحة بيولوجية وطائرات ودبابات أكثر فتكًا من الماضي، فلم تكن نهاية العالم متوقفةً على الأسلحة النووية فقط، فالبشر دائمًا متفنِّنون في البناء ومتفنِّنون في التدمير.

وفي الأيام الأولى للصراع الكبير احتشدت الدول في تكتلات ونشبت الحرب العالمية الثالثة على أكثر من جبهة، وعلى طاولة الصراع تقاسم الجميع الغنائم من الخراب، ولم يتكمل شهرٌ حتى سقط ما يقرب من مئة مليون قتيل من جنود ومدنيين، وقُصِفت مدن ودول، وحتى القطبيين تحولا إلى ساحة معارك، وتبخرت دول في الحرب وظهرت على الساحة دول جديدة، وانتشرت الأبخرة السامة في الأجواء، وكان العالم دون شيءٍ يعاني من نوبات جفاف جعلت المياه في أوربا وفرنسا تتبخر، واشتعلت الحرائق في الغابات مع ظهور أمراض جديدة، ناهيك عن وجود حرب. وظهرت تحذيرات من علماء المناخ والطبيعة تحذر من كوارث تقترب أكثر من الحروب وضحاياها، وعن توسع أكبر في خرم الأوزون جراء تكثُّف سحابات من غازات ضارة جعلت أشعةً فضائيةً وشمسية تنفذ من أقطار السماء نحو الأرض وموجات ترددية، عالم يعاني حربًا وجفافًا وأمراضًا، لا تنتظر منه ألا يغضب، ألا ينتقم، ألا يعاقب البشر جراء ما يفعلون. بدأ الأمر بجفاف عظيم ضرب معظم العالم مع ارتفاع درجات الحرارة، ما تسبب في مجاعات ضخمة راح ضحيتها الملايين في كل دول العالم، ولكن سرعان ما فاضت المياه من جديد بأمطار تنهمر لا تتوقف، فامتلأت الأنهار مثلما امتلأت المحيطات، وأدرك الجميع أن درجات الحرارة والإشعاعات جعلت كثيرًا من الجبال الجليدية في القطبيين تتعرض للتصدع والانهيار ويرتفع معهم منسوب

المياه، لتغرق الجزر الصغيرة والمتوسطة في كل البحار والمحيطات، من البهامز وحتى الكاريبي، ولم تسلم الجزر الكبيرة، فقد جزرت سواحل اليابان وقبرص وأستراليا وإندونيسيا، وتحولت مراكب العالم والسفن الكبيرة والبضائع من الأمم المتحدة إلى محاولة نجاة سكان تلك المدن والجزر، بعضهم غادر على متن السفن والسواد الأعظم منهم غادر إلى قلب المحيط، وبدأت الإسكندرية في الغرق مع باقي المدن المصرية وسواحل إفريقيا من الجنوب وسواحل أوربا من الشمال، وانهمرت المياه كشلال جارف من مضيق جبل طارق مدمرًا المدن المغربية والإسبانية في طريقه، مما جعل المتوسط امتداد ضخم للمحيط الأطلنطي، وكاد الأمر يتوقف عند ذلك، ولكن سلسلةً من التفاعلات البركانية الضخمة أسفل المحيط الهندي نشطت بشكل غريب، مما تسبب في مئات من التسونامي الضخمة الممزوجة بحِمم بركانية دمرت شكل الحياة في كثير من مدن آسيا، ودمرت المراكب والسفن الذاهبة للإغاثة، ودمرت كل أشكال الحياة على قارة أستراليا بالكامل واليابان وكوريا، مما تسبب في ارتفاع منسوب المياه بدول العالم كافة، وارتفعت ألسِنة الدعاء من المساجد وأجراس الكنائس، بكى اليهود عند حائط المبكي وتبتل الرهبان في جزر التبت، قُدِّمت القرابين وأُشعِلت النيران وسُفِكت دماء الطير والحيوان والبشر، وكل من له إله تضرع له، وكل مَن لم يكن له شرب الخمر حتى ثمل كي لا يشعر بالنهاية عندما تقترب، وكان الحل الوحيد في مطلع عام 2030 من اقتراح بعض العلماء باختيار أكبر السفن العملاقة وحاويات البضائع الضخمة وصنع قواعد بشرية منها بعد غرق باقي اليابسة الوشيك، وكانوا على النحو الآتي: قاعدة بوسيدون في الشرق الأمريكي سابقًا مكان غرق ولاية فلوريدا، والقاعدة الثانية قاعدة أطلانتس وموقعها جنوب إنجلترا سابقًا، والقاعدة الأخيرة هي قاعدة نوح وتقع وسط دولة الهند في السابق، إذ تحتها بقايا

سلسلة جبال الهيمالايا وجبل إفرست يمكن رؤية قمته داخل الماء في وضح النهار. واستطاعت كل القواعد احتواء ما يقارب مليون بشري حسب الأسرع في الوصول إلى القواعد، وما زال الآلاف يحيون فوق سفن ويخوت خاصة، منهم من لجأ إلى القواعد ومنهم من فُقِد داخل البحر الكبير إلى الأبد. ومنذ بداية العام 2030 تصل أخبار غرق مدن جديدة في إفريقيا وآسيا عبر الدرونات الطائرة، كما كانت تصل إلى بعض القواعد كنوح وأطلانتس وفود جدد، كان يُستَقبل بعضهم إذا توفر مكان وكان يُطرد بعضهم. ورغم صراخهم واستغاثتهم من السفن الصغيرة إلى اليخوت العملاقة، فإن أصداء أصواتهم لم تصل إلى أحد بالأعلى، ويهيمون على وجههم يشقون عباب البحر كالمهاجرين غير الشرعيين، ولكن تلك المرة حيث لا وجهة يتجهون إليها، وما إن يبتعدون عن القواعد يسقطوا من السفن والقوارب منتحرين، ولكن هذا لم يشغل بال أحد بالقواعد، هؤلاء من ضمنوا نجاةً مؤقتةً وأرضًا حديديةً محدودةً يقضون عليها ما تبقى من حيواتهم. ورغم أنه يُختار اثنان من كل سفينة بكل قاعدة للمجلس الكبير ولم يكونوا سوى رجال أعمال في العالم الماضي أو سياسيين وقادة أحزاب سياسية، فقد شغل تفكير البعض أين ذهب الرؤساء والحكام والملوك، فهؤلاء هم السادة الحقيقيون للعالم القديم والجديد، فهم كالفراعنة يدفنون داخل أهرام عملاقة أو مقابر ثرية بالذهب والمقتنيات ليثبتوا حقهم بالعظمة والسمو، سواء في العالم الأرضي أو العالم السفلي، وحتى عالم الملكوت.

تذكر إسكندر، وهو بين إغماء وإفاقة وهو لا يعي ما يحدث حوله سوى شريط سينما يتذكر فيه الطوفان العظيم، بعض المحللين السكارى الذين جالسهم مرةً في إحدى حانات السفينة "إيفر جرين"، عملاقة الحاويات الأضخم في مقاطعة بوسيدون.

- إسكندر يا عزيزي، إن الملوك والرؤساء في باخرة سياحية ضخمة كانت معدةً لتصبح فندقًا داخل البحر وهي محصنة، يمكثون فيها ليلهم ونهارهم ويديرون شؤون القواعد الثلاثة، لقد سمعت أن لديهم فيها ملعبًا بحجم استاد الكامب، ومضمار سيارات وملاعب جولف صناعية، إنها قارة متنقلة.

فأوقفه سكير آخر بيديه ليصمت وأكمل هو بجدية مفرطة.

- الملوك والرؤساء وكبار المصرفيين ورجال المال ليسوا فوق البحر، بل هم تحت البحر الآن، فقد أنشأت البحرية الأمريكية غواصةً نوويةً ضخمةً جدًّا مستقرةً في أعماق البحر، بها تجهيزات تكفي مئة عام، فقد أُعِدت لرئيس أمريكا وكبار رجاله فور قيام حرب نووية، ويقال أيضًا إن داخلها غرف تجميد سيدخل فيها القادة فور أن يملوا الحياة تحت البحر، ليتجمدوا لأعوام طويلة حتى تظهر الأرض من جديد.

وبينما توقف الرجل الثاني عن الكلام، صاح ثالث كأنما يعرف أسرار العالم الخفية والجميع من حوله حمقى.

- كل كلماتكم محض ترهات! الملوك والحكام ليسوا مثلكم ليحيوا حيواتكم، إنها فئة أعلى من البشر. ما لا تعرفونه أن الحكام الآن ليسوا في البحر، بل هم على آخر جزيرة على الأرض لم تغرق، تستعملها الصين لبرنامج الفضاء الخاصة بها، وعلى تلك الجزيرة مكوك فضائي ضخم ومعه كمية هائلة من البترول لم تغرق، ستحملهم إلى المحطة الفضائية بالأعلى (وأشار بيده إلى أعلى)، ومن المحطة الفضائية سيتجهون إلى السر الكبير الذي أخفوه علينا، وهو أنهم وجدوا ماءً على المريخ وسيذهبون ليُنشئوا مستعمرةً جديدةً للبشر هناك مع كل ما جنوا من البشر عبيدهم. أتعلمون، في العالم الجديد سيجلبون خمسين شخصًا من العامة معهم؛ عشرةٌ منهم علماء لتهيئة الحياة، وأربعون عارضة أزياء لتهيئة أعضائهم الجنسية. سيصبح عالمًا جديدًا مهيبًا للعاهرة

فيه قيمة أكثر من العلم، مثلما كانت دائمًا، لطالما تساءلت.. لماذا لم يصنعوا جائزة نوبل للعهر أكثر من العلم؟! فهم مفيدون للبشرية أكثر، مثلهم كمثل صناع السلام.

لم ينتهوا من كلماتهم حتى طارت الدرونات في أرجاء قاعدة بوسيدون الجديدة من كل سفينة إلى منتصف الدائرة التي تجمع السفن جميعًا، وشكلت الدرونات مربعًا كبيرًا ظهر منه صوت جهوري من المؤكد أنه من المتحدث الرسمي لمجلس حكم القاعدة بوسيدون، فأنصت له الرجال وخرجوا من الحانة إذ السماء كانت نهارًا، فشاهدوا وجه المتحدث دون أن يتعرفوا عليه، وبدأ بالحديث فيما تجمع البشر من حول أعلى السفن ليستمعوا له.

- إلى أبناء قاعدة بوسيدون، يمر العالم بمحنة كبيرة من الخالق، لم يتعرض لها من قبل منذ طوفان نوح، ولكن ما دامت البشرية تخطت ما هو أكبر من ذلك بتكاتف الجميع معًا، وإذ إن معظم القارات والمدن قد غرقت، فقد أصبح الملجأ الوحيد للبشرية هي القواعد الثلاثة: أطلانتس وموقعها خط طول 92، وبوسيدون وموقعها خط طول 150، ونوح وموقعها خط طول 230. وقد سُنَّت مجموعة من القواعد والقوانين التي ستُفعل من اليوم دستورًا عامًّا للقواعد الثلاثة ويُعمَل بها، ومن يخالفها يتعرض للعواقب المفروضة. وذلك بتاريخ 10 نوفمبر 2030، حيث التاريخ الميلادي هو التقويم الموحد للقواعد الثلاثة من اليوم.

(1)

تتشكل كل قاعدة من 10 سفن، وهم على النحو الآتي: تكون في مقدمة السفن حاملة طائرات خارج الخدمة العسكرية، تُطلَق الطائرات بها في البحار، ويترك عدد 3 طائرات فقط لكل حاملة لحاجة السفن إلى ما أُنقِذ من البترول،

وحتى تفعيل نظام أكثر تطورًا للطاقة الشمسية يستطيع تسيير الطائرات دون بترول، وسيكون دورها استكشافيًّا للبحث حول البحر العظيم عن بقايا يابسة والطائرات من طراز "فانتوم" و"إف 35" وطائرة مروحية، ويمكن تسييرهم فقط في الحالات القصوى كالنجاة وعمليات إغاثة المراكب الضالة، ويُستَخدم باقي مساحة الحاملة في تخزين الاختراعات والأدوات الهامة العلمية والتاريخية والمختبرات والمعامل الكيميائية التي أُنقِذت قبل الغرق، وخلف كل حاملة طائرات عبارتان لنقل الحاويات، ستُفرَّغ الصناديق في البحر ويُترك القليل منها لتخزين الطعام والزراعة في الصوبات، والجزء المتبقي يستعمل لتربية جميع أنواع الحيوانات من الماشية والطيور وكل أنواع الحيوانات التي أُنقِذت وتركها للتكاثر للحفاظ على الوجود الحيواني وطعامًا للبشر، والفصل بين الحيوانات المستأنسة والحيوانات المفترسة، وكل من يرغب في العمل بالزراعة وتربية الحيوانات سيتجه إلى سفن الحاويات، هو وعائلته، أما السبع سفن الباقية فهم من العبارات السياحية ولنقل الركاب وستصبح سكنًا للبشر المتبقين.

(2)

سيُرسى على خط الطول المذكور وتُنزَل المرساة الخاصة بكل سفينة ليصنعوا شكلًا دائريًّا حتى نتمكن من إرسال إشارات وموجات لاسلكية إلى سفن البحار للوصول إلينا ولمعرفة باقي القواعد موقعنا، وهم سيفعلون المثل، وأيضًا لعدم استهلاك ما تبقى من البترول في التجول للبحر، وستصبح مقاطعة بوسيدون مدينة بشرية دائرية متكاملة في البحر يصل عدد سكانها إلى أكثر من 300 ألف، والاستعداد لاستقبال 200 ألف من باقي الناجين.

(3)

ستُطلَق أنوار مع حلول الليل دائمًا من مرايا منعكسة تحمل ضوء الشمس من كل سفينة، وستتقاطع جميعًا في شكل هرم عملاق فوق المقاطعة، ويمكن رؤيته من على بعد 200 ميل بحري، ليرشد التائهين إلى موقع السفينة، وسيطلق عليه "منارة بوسيدون"، وكذلك سيحدث في بقية المقاطعات.

(4)

سيُتاح لكل سفينة مجلس قضائي مكون من قاضٍ وثلاثة محلفين للبتِّ في كل القضايا والمنازعات، ومن منطلق الحفاظ على البشرية، فإن جميع المخالفات ستقابل بعقوبات رادعة، إما بالإعدام بالقذف من فوق السفينة في جرائم القتل والتعدي والسرقة والاغتصاب، وإما بالنفي للعمل في سفن الحاويات في الجرائم الصغيرة ومن هم دون 18 عام.

(5)

ترشيد استخدام الكهرباء على متن السفن في الغرف والقاعات والاعتماد على الطاقة الشمسية، من خلال وضع الألواح على قمم السفن ومن طاقة الرياح من تركيب طواحين الهواء المتوسطة الحجم على متن السفن، ووسائل الإعلام الوحيدة المتاحة عن طريق الدرونات الحاملة للأخبار من المقاطعة أو المقاطعات الأخرى، ولا مجال لنقل الشائعات على متن السفن، وسيُعاقب مروِّجوها بالغرق أو بالنفي.

(6)

ترشيد الطعام بمنح وجبتين يوميًّا؛ وجبة وقت الظهيرة ووجبة وقت الغروب، بكميات متوسطة من البروتين والنشويات، وحتى يبدأ حصاد الزراعة على متن سفن الحاويات وتربية الحيوانات والاستعانة بعملية تدوير مياه الشرب من تكرير مياه البحر ومياه البول على متن حاملة الطائرات، وإعادة توزيعها على السفن للحفاظ على مخزون المياه العذبة.

(7)

ومن أجل البقاء ستُستغل الطوابق في قيعان السفن السكانية السبعة مكان قاعات تخزين السيارات، لتحويلها إلى مصانع للعمل، ويُجبر كل مَن يتخطى 15 عامًا على العمل فيها، من الرجال والنساء، وستكون لتصنيع المواد وصيانة المعدات البحرية وأجهزة الملاحة، مع تخصيص جزء للتحكم بالأقمار الصناعية التي لم تسقط للبحث عن مصادر جديدة للحياة.

(8)

يُستَخدم الهيكل الخارجي لكل سفينة ميناءً خاصًّا لاستقبال اليخوت والسفن الصغيرة والحفاظ عليها، سواء كانت للاجئين أو يخوت سكان المقاطعة أو منقبي البحر، كما ستحاط الجوانب الأخرى بمزارع سمكية كبيرة لتخزين الأسماك الطازجة مصدر الطعام المتجدد الآن، ويُسمَح للراغبين في التقدم لفرق الصيد تسجيل أسمائهم للخروج إلى مراكب صيد الأسماك الكبيرة والحيتان.

(9)

يتولى بقية عناصر جيش حلف الناتو حماية المقاطعة تحت اسم "حرس بوسيدون"، ويؤدون أعمال الحماية الخارجية والداخلية، على أن يصبح زيهم الأزرق وشعارهم بوسيدون ويرتدون بدل الإنقاذ البحرية.

(10)

على جميع السكان والعمال الحفاظ دائمًا على ارتداء بدل الغوص السمراء لمن يجيدون الغوص أو ارتداء سترات النجاة الصفراء حال الوقوف في الخارج، وليس في الغرف، كما ستُكوَّن بقية المنشآت البشرية داخل السبع سفن السكنية، فيصبح لكل سفينة مستشفى وحانة ومطاعم خاصة، ويتوقف العمل مؤقتًا بالعملات الورقية المتداولة حتى استصدار نوع جديد من التعامل، ويسمح التعامل بالمقايضة ما دام ارتضى الطرفان بالقيمة.

ظل الصوت الجهوري يتردد في جنبات المقاطعة، ولم يستمع إسكندر لما دار ولم يدرِ هل كان يجلس مع أصدقائه الغواصين في عام 2030 أم إنه خارج منذ دقائق من قلعة أفروديت في عام 2031. شعر أنه غير موجود في أي مكان وأنه طيف يحلق، يشاهد ذكريات سحيقة.. هل هو ميت بالفعل أم إنه يتوهم كل ذلك أم إنه ما زال نائمًا في غرفته بمنطقة العامرية في الإسكندرية؟! يشعر بيد توقظه، يجدها والدته تريزا، يصدر صوته رغمًا عنه، يجد نفسه يتشاجر مع والدته هو نفسه ولكنه ليس بالفعل، بل هو مجرد شبح منزوٍ في ركن الغرفة يستمع لنفسه يتشاجر مع أمه في بيتهما القديم، ويسمعها تحدث جسده وليست روحه المستمعة.

- لن ترحل يا إسكندر، لن أتركك للبحر يقتلك مثلما فعل بأبيك، كيف لم تتعظ؟! لقد جعلك أبوك تعشق البحر فيما قتله غرقًا! كيف ما زلت تُكِن له

الحبَّ وقد هجر والدك عنا إلى الأبد وسيجعلك تهجرنا أنت الآخر؟!

يرى إسكندر نفسه وهو يحمل حقيبته ويبتعد عن أمه عازمًا على الرحيل.

- أمي، العالم ليس مكانًا آمنًا اليوم، والأرض أكثر خطورة من البحر، لطالما كانت كذلك، بينما نتكلم الآن قد تصيبنا قذيفة حرب، وعملي يقتضي عليّ السفر للإغاثة، لدينا أنا ورفاقي مهمة من الأمم المتحدة لنجدة جنود الحرب على السواحل الأمريكية وإخراج الغرقى، تلك الحرب التي تدمر العالم بالفعل كان مقدر لهذا الكوكب الخلود لملايين السنين، والآن يبدو أن عام 2028 هو نهاية الكوكب بسبب تلك الحرب.

وقف إسكندر الشبحي غارقًا في أفكاره، مع كل رؤية يعود عامًا إلى الخلف، وما القيمة من مشاهدة حياته بالمعكوس؟! يقف حائرًا تائهًا يتطلع إلى عين أمه التي تبكي من أجل بقاء إسكندر، لطالما اشتاق إليها وقد انقطعت السبل بهم ولم يتواصل معها منذ رحيلهم، يتمنى لو يملك القدرة ليوقف إسكندر القديم ليخبره أنه لن يراها مجددًا، لن يشتمَّ رائحتها، لن يدفأ بعد اليوم من برودة البحر بين أحضانها، يتمنى لو يصفعه ويجعله يمكث وقتًا أكثر بين يديها، لطالما كانت السيدة تريزا صمام الأمان له، تلك التي تعرف تقلُّباته كموج البحر من السلام إلى النفير ومن الهدوء إلى الزمجرة. ماذا لو تعرف أنه سيصبح لابنها إسكندر ابن مثلما تمنت، كان يتمنى لو يستطيع إخبارها فتطرب فرحًا، ولكن هل يخبرها أنه أنجبه من زانية؟ لطالما أحبت السيدة تريزا قصة العاهرة التي ذهبت إلى المسيح فقال للجمع: من كان منكم بلا خطيئة فليرمِها بحجر. ولكن ماذا لو أصبح الحجر بيديها وحفيدها من عاهرة، فعلى من ستقذف الحجر؟!

ظل ينظر إلى المشهد وأمه تحاول منعه من الرحيل وتصيح:

- أشعر أني لن أراك مجددًا يا بني لو رحلت! ابقَ معنا.

- لا أستطيع يا أمي، سينطلق المركب بعد ساعة من ميناء الإسكندرية،

يجب أن أرحل، أنا منقذ بحري وأفضل غواص في البحر المتوسط، لا أستطيع البقاء.

- ابقَ أيها الأحمق، لا تغادر!

يبكي إسكندر الشبحي وهو يداري وجهه، ولكنه تذكر أن لا أحد يراه وأن إسكندر الحقيقي رحل وبقيت السيدة تريزا تبكي على الأرض وحيدة. يقترب الشبحي منها، يتطلع إلى عينيها، يحاول أن يربط بيده على رأسها، ولكنه يتذكر أنه ليس موجودًا بالفعل، ولكن السيدة تتوقف عن البكاء، تنظر نحو إسكندر، يشعر بنظراتها نحوه كأنها تراه، كأنها يمكنها لمسه وشم رائحته، كأنها تعلم ما حدث في مستقبله. يكاد قلب الشبحي يتوقف من نظراتها المتطلعة إليه، ولكنها سرعان ما تتحرك إلى النافذة فيذهب خلفها، يستمعان لصوت هائل مُوحٍ بالرعب، فقد كانت موجةً كبيرةً من مياه البحر ضربت الشاطئ حتى إنها أقسمت أنها شاهدت المياه تقترب من بيتها رغم بعدها عن البحر، مع صفير السيارات وخوف البشر في الشوارع، وكان إسكندر وتريزا يشاهدان إسكندر يبتعد، يسير بلا مبالاة كأن شيئًا لم يحدث منذ قليل. لم تكن السيدة تريزا تعلم مصير ابنها، ولكن إسكندر كان يعلم أن نسخته القديمة ستذهب إلى الميناء بصعوبة وقد غمرت المياه شوارع الإسكندرية وسيستغرق الصرف أيامًا لإبعاد المياه، وأن المركب الذي يحمله هو وبقية الغواصين سينتظر لساعات عن الموعد المحدد حتى يتم تصريف المياه عن الميناء، وهم كفريق إغاثة من الصليب الأحمر نحو المحيط الأطلنطي، حيث موقع معركة "تايتن" بين البحرية الأمريكية والبحرية الصينية، سيشاركون في إنقاذ الناجين وإخراج الغرقى قبل أن تتغذى عليهم الأسماك، ولكن ما إن وصلت مركبهم إلى الموقع وصلتهم أخبار انهيار القطب الجنوبي في نهاية عام 2028، وتناقلت الأنباء بفزع حتى إن الحرب بين الدول توقفت لوقف التلوث والإشعاعات من الحرب مع غرق كثير من الجزر الصغيرة

حول العالم، ولم يكن ما شاهدوه أقل فزعًا من الأخبار، فكانت مئات السفن مدمرةً وحولها آلاف الجثث المتكدسة كأنها شاهد قبر ضخم حديدي وبقع كبيرة من الزيوت المحترقة على قمة المياه اختلطت بها الدماء مع الجثث مع الأسماك النافقة، وخشي إسكندر الهبوط معهم إلى الماء ونصح أصدقاءه بعدم النزول إلى الماء، وأن لا إشارة في تلك المقبرة (البحيرة) على وجود حياة لشخص أو سمك، ولكن البعض قرروا الاستبسال ببطولة واهمة واهية حتى علق أكثرهم في الماء بسبب بقع الزيت، والبعض الآخر بمجرد الغوص في المياه لم يستطيعوا الصعود من كتلة الزيوت والدماء المتراكمة.

شهد إسكندر الوهمي وإسكندر الحقيقي التقاعسَ الحقيقي عن نجدة أصدقائه وتركهم يموتون وهو يخشى الهبوط في المياه من أجلهم، كانت جثث أصدقائه ستعدها شجاعة ولكنه أدرك أنها محض حماقة وانتحار، ولم يتبقَّ غيره رفض الامتثال للأوامر والغوص في المياه، فتحرك بالسفينة وحدد على الملاحة البحرية التوجه صوب الولايات المتحدة التي لا تبعد سوى 200 كيلومتر، ولكن كلما اقترب لم يشهد اليابسة، ولم تعمل أجهزة البث على المركب، فأدرك الكارثة أن خليج فلوريدا ومدينة نيويورك والسواحل الشرقية والمواجهة للمحيط الأطلنطي قد غرقت، وحتى السواحل الغربية من كاليفورنيا المواجهة للمحيط الهادئ غرقت، وأن مئات البواخر العملاقة في طريقها لنقل ما تبقى من سكان الولايات، ولكن غرق القطب جعل كثيرًا من العبّارات العملاقة تغرق قبل الوصول وبعده مصحوبةً بصرخات الآلاف الذين تقاتل بعضهم أسفلها وسفكوا الدماء من أجل الحوز على مقعد واحد على السفينة المتراكم عليها بقية البشر.

وعندما وصل إسكندر بالمركب -الذي أصبح الناجي الوحيد عليه ومالكه- إلى ما تبقى من خليج فلوريدا، لم يجد أمامه سوى حاملة طائرات أمريكية

عملاقة ومعها 7 عبّارات وسفينتا حاويات عملاقة هم جل ما تبقوا من أمريكا الشمالية، وأنهم أطلقوا اسمًا مبدئيًّا على هذا التجمع "مقاطعة بوسيدون"، نسبةً إلى اسم حاملة الطائرات من البحرية الأمريكية، ووجد إسكندر نفسه يتوجه نحو المقاطعة العملاقة ليرسو بجوار سفن الحاويات العملاقة "إيفر جرين"، وكان يتذكرها جيدًا، فقد كانت تلك السفينة الأضخم في العالم من سفن البضائع، والتي اشتهرت في مصر عندما جنحت بشكل خاطئ في قناة السويس وتسببت بوقف الملاحة داخل القناة لوقت طويل حتى عُوِّمَت السفينة، وكان حادثًا عالميًّا مشهورًا في ذلك الوقت، وسمح له بركن المركب الذي ما زال يحمل شعار الأمم المتحدة رغم تفكيكها وتعليق عملها إلى الأبد، وصعد على متن السفينة، وهناك تعرف على عدد من الغواصين الذي عملوا جميعًا على مساعدة اللاجئين وإنقاذ المراكب المنكوبة الضالة في براثن البحر الذي كان محيطًا، وبعضهم بعد ذلك سيصبحون صائدي جوائز ومغامري البحر بعد أن تستقر أمور المقاطعة، إذ منحت لهم تصاريح للعمل كمنقذين ومغامرين، وهو اسم لبق كثيرًا على عملٍ متدنٍّ يقوم على سرقة المدن الغارقة تحت البحر ولم تصل بعد إلى أعماق دفينة، والعمل قائم ما دام يوجد عرض وطلب، فبعض الأثرياء الفارين بمقتنيات أو بطعام واحتياجات يرغبون في هدايا تذكارية من عالمهم القديم، بعضها سهل المنال وبعضها محال، وأغنياء العالم الجديد يختلفون قليلًا عن العالم القديم، فيذكر أن واحدًا من الأثرياء الجدد كان في الماضي سائق شاحنة مياه غازية بنيفادا، وعندما بدأت المياه بالتدفق دخل بالشاحنة في واحدة من السفن مقابل رشوة الجنود بالمياه، وأصبحت حصة المياه نصيبه ونصبته شخصًا هامًّا لعالم لا يبالي الآن بأوراق مالية وحسابات بنكية فانية، بل لكل ما يملك موارد الطعام والشراب.

وعلى متن تلك السفينة تقابل إسكندر مع رفيق دربه المستقبلي غوستافو، الذي كان واحدًا من عمال ناقلة الحاويات العملاقة المعني بتفريغ المنتجات وتخزينها، وكان مجرمًا سابقًا في كولومبيا وابنًا للشارع، فلا عائلة

له، ويعمل على متن السفينة منذ سنوات هاربًا ليبتعد عن الشرطة الدولية (قبل أن تتلاشى)، وقد اختص نفسه ببعض الأسلحة التي عثر عليها في الحاوية فأصبحت ملكه وخبأها، فأخبره إسكندر أنه يملك مركبًا أسفل السفينة يمكنهم نقلها عليها كأنها معدات غوص، وإذ إنه رجل من الصليب الأحمر فلن يشكك أحد في محتويات الحمولة، وتعاهدا أن يصبحا صديقين منذ ذلك اليوم. ولكن سؤال واحد شغل بال غوستافو الذي لم يرَ من إسكندر سوى أنه غواص هام ذو مكانة مرموقة، فلمَ يأوي أسلحة؟

- لماذا تفعل ذلك يا صديقي؟ لست تعرفني سوى منذ أيام، وما نفعله به خطورة لا أعدها عليك.

- سيصبح للعالم الجديد قوانينه، بعضها مُنافٍ لما في السابق، وقد اكتفيت من أعمال الإغاثة، أريد أن أكون مغامرًا في أرجاء البحر الشاسع، وتلك الأسلحة ستوفر لنا الحماية من أخطار البحر، ما ظهر منها وما بطن. فهل ستحيا حياتك على السفينة لتطعم وتكسو بعض الناجين أم ستملك معي زمام البحر الذي رغبت طوال حياتي في استكشافه والآن أريد الهيمنة عليه؟

ابتسم غوستافو ولم يعقب، وقد أدرك إسكندر موافقته، وما زال شبح إسكندر الهائم يشاهد ماضيه والفيلم الذي يراه مفعمًا بذكريات الماضي يتقلب إلى رؤى حزينة، وتابع نسخته القديمة تعود إلى السفينة ويجالس أصدقاءه الغواصين.

وقد استمع إسكندر الشبحي لحوار إسكندر مع زملائه الغطاسين عن موقع حكام العالم القديم، واستمتع مثلما استمع البقية لبعض قواعد العالم الجديد التي لا يمكن مخالفتها، وعلم كلاهما الآن أن العالم القديم قد ولّى وأن عالمًا جديدًا قامَ بوجوه جديدة وقواعد جديدة أُصيغت، وأن كوكب الأرض من الآن سيصبح كوكبَ البحر.

ما قيمة أن تستسلم أو لا؟
ما قيمة أن تستلم أخيراً؟
في النهاية الكل استسلم
الجميع يعلم أنك حاولت
الجميع يعلم أنك قاومت
الجميع يعلم أنك فشلت!

- استيقظ أيها الأحمق، سنتغيب هكذا عن موعد صديقك العربي ذي المؤخرة السمينة الثمينة!

أفاق إسكندر من غفوته للحظات، ظن أنه غير قادرة على الرؤية ثم شاهد دنيا مشوشة أمامه، أغلق عينه ثم فتحها مرة أخرى، كان يظن أنه مات وأن ما شاهده من ماضيه استعدادات انتقال إلى عالم آخر، مثلما كانت تقول السيدة تريزا -التي شاهدها في منامه- إن العقل قبل الموت يذكر صاحبه بكل ما اقترفه ليُنقّيه من آثامه قبل الرحيل. لم يكن يظن أنه ما زال حيًّا وأن آخر شيء فعله هو مغادرة قلعة أفروديت بخبر ابنه الذي لا يعرفه، وليس أنه استيقظ من غرفته في الإسكندرية وودع أمه وداعًا لا يليق إلى الأبد، ثم إلى موقع معركة تايتن والتعرف إلى بوسيدون وغوستافو للمرة الأولى، ووجد لسانه يتحدث بصعوبة، بين شدقيه جاف وملح كمرارة ماء البحر.

- ما الذي حدث يا غوستافو؟

- عثر عليك حرس السفينة تهيم على وجهك حتى سقطت أرضًا فحملوك

حتى الغرفة، وكنت تهذي كثيرًا فأعطيتك حبوب هلوسة، وها أنت ذا تفيق بصحة، كان على أبي اللعين أن يلحقني بكلية الطب، كنت سأتخصص في مداوة رجال المافيا والمخدرات وأجني الكثير وأخفف من آلام المرضي بالكوكايين.

- وكم لبثت في النوم؟

- منذ منتصف ليل أمس وحتى غروب شمس اليوم، كنت سأتركك تنام ولكن لدينا موعد خارج السفينة في مركب صديقك العربي صقر.

أفاق إسكندر قليلًا من كبوته وقد شعر أن عددًا من المطارق تضرب رأسه بقوة، ولكن ما كان يجب أن يتأخر على صديق السيدة دكوكو، ويبدو أنه سخي ولديه طلب هام، وكان هذا الفرق بين إسكندر وغوستافو، فإسكندر يهتم بالمغامرة وكم هي شيقة ويستكشف فيها أماكن جديدة في البحر المترامي الأطراف، فيما لا يشغل بال غوستافو سوى ما سيحصده في المقابل من عطايا وجوائز نظير تحقيق المراد، وعندما استطاع إسكندر الوقوف على قدميه اشتم رائحته فوجدها كريهة، فقرر ارتداء طقم غوص جديد بعد الحصول على بعض الماء للاستحمام، وقد صار الاستحمام في العالم الجديد من الرفاهيات التي لا يقدر عليها إلا من استطاع إليها سبيلًا.

- غوستافو سآخذ من نصيبي زجاجة مياه كبيرة لأستحم.

نظر غوستافو بغضب الذي كان يبلل شعرَ من بصقه بيديه.

- هل ستقابل ملكة إنجلترا؟! يكفي زجاجة مياه صغيرة، ألا تستمع لبوق المقاطعة الداعر الداعي إلى الترشيد.

- عليك أيضًا أن تستحم!

- سأجعلهم يستنشقون الهواء من رائحة إبطي لو استدعى الأمر، لن أضحي بالمياه من أجل زمرة من العفنة ليشموا رائحةً طيبة! أنت أيها الداعر من عليه الاستحمام، ذهبت إلى قصر أفروديت وأنا نائم ولم توقظني، تظن أنك

رجل قوي، من المؤكد أنهم دعوك ليسألوا على قدومي، كل الفتيات هناك تعرفني بغوستافو الجبار، حتى أفروديت البرازيلية نفسها امتطيت مؤخرتها الكبيرة على يومين متتاليين، تظن أنك تحظى بالمتعة وحدك أيها الحقير!

ابتسم إسكندر ثم ذم شفتيه مستنكرًا، يتمنى لو كان هذا ما حدث بالفعل رغم سذاجته، ولم يفجر الكارثة في وجهه، ولم يعلم هل يخبر غوستافو بما سمعه من أفروديت أم ينكره أمام الجميع، ولكن بمَ سيخبره؟ فحتى هو نفسه لا يصدق، صحيح أنه قضى ليلة مع تلك الفيكتوريا البولندية، ولكنه كحال عشرات الرجال معها، بل يكاد يجزم أن سبقه رجل وتبعه رجل في نفس الليلة، فبمعركة الحيوانات المنوية العظيمة تلك يصبح هو المنتصر، هل هو العرق المصري الذي كان يشدو به ضعاف الخصوبة في مقاهي الإسكندرية ليداروا سوء أعمالهم أم إنها حقيقة لا تقبل الشك؟!

ظل الشك يساور إسكندر من أعلى رأسه إلى اخمص قدميه يخلخل جنباته ويزعزع يقينه، ولكن كان الوقت قد أزف لمقابلة الثري العربي، فغادروا الغرفة بعدما حملوا غنيمة السيدة دكوكو وهبطوا بها بصعوبة نحو الأدوار السفلية، حيث ما كان قديمًا موقف سيارات الباخرة العملاقة، إذ إن عددًا من جنود مقاطعة بوسيدون يحرسون ميناء السفينة خارجها، حيث قارب صغير عليه جندي يحمل الوافدين من مراكبهم الصغيرة ليرسو بها أمام الباخرة أو العكس، ولكن فقط لحملة التصاريح البلاستيكية، سواء القادة أو الأثرياء أو مغامري البحر كإسكندر وصديقه غوستافو، اللذين لوَّحا بشارتيهما البلاستيكيتين وبملابس الغوص التي يرتديانها وما يحملان، فوقف أحد الحرس أمامهما يتطلع إلى شارتيهما ثم تطلع إلى ما يحملان، وقد كانت الصناديق من الخارج عليها كتابات بالإيطالية.

- السادة مغامري البحر، إلى أين تذهبان؟ وما هذا الذي تحملانه معكما خارج باخرة المقاطعة؟

- بها أعضاء ذكرية صناعية لوالدتك.

تفوة بها غوستافو بإسبانية خافتة يكاد يسمعها الحارس الذي يتحدث بالإنجليزية.

- لا أفهمك سيدي، تعلمان القواعد، الحديث بداخل أرجاء المقاطعة باللغة الرسمية وهي الإنجليزية، وخاصة اللكنة الأمريكية.

تدخل إسكندر ليرد:

- سيدي نحن مُكلَّفان بمهمة توصيل تلك البضائع من السيدة دكوكو بالطابق السابع إلى مركب السيد صقر خارج المقاطعة.

أمر الحارس بعض رجاله بفتح الصناديق، فأشار إسكندر لغوستافو بيده لمنع ارتكاب حماقة، فيما اكتفى الرجال بفتح صندوق الطعام والسجائر وبحثوا بينها على ألا يكون أحد الأجهزة الإلكترونية المتبقية من رفات الأرض معهما، وبعدما أنهى الحراس بحثهم سُمح لهما بنقل بضاعتهما إلى الزودياك الذي سيحملهما إلى مركبهما بجوار السفينة، وقد كان مركب السيد صقر يجوب أرجاء البحر قريبًا من المقاطعة خارج دائرة الماء المحيطة بالسفن، وكان يسهل عليهما رؤيتها من داخل الباخرة، فكانا محظوظان بعدم استهلاك كمية كبيرة من الوقود لصغر المسافة، وما إن وضعا محتوياتهما في الزودياك انطلق جندي معهما نحو مركبهما حتى أمسك كبير الحرس بغوستافو من الخلف، أوقفه وصاح به بإسبانية بليغة:

- لولا أنكما من مغامري البحر وقد ترحلان بلا عودة من الأهوال قد التي تواجهانها في عرض البحر، لهبطت على رأسك بالعصا ووضعت الأعضاء الصناعية في مؤخرتك!

دفع كبير الحرس غوستافو بقوة ليركب الزودياك دون أن ينطق ببنت شفة من الخجل، في حين يداري إسكندر ابتسامة السخرية من أجل لسانه الفالت، ولم

تمر لحظات حتى وصلا إلى مركبهما التي ما يزال عليها علامة إغاثة الأمم المتحدة التي أصبحت شعارًا لاغيًا الآن مثل بقية الشعارات القديمة، ونقلا صناديقهما بها ليخزناها في أسفل المركب وينطلقان صوب مركب صديقهما العربي. وكان غوستافو صامتًا يمسك ببندقية حربية في يده وعينيه تفصح عما يضمر لسانه أنه كان ليسددها في قلب كبير الحراس عندما يراه مجددًا، فيما أكمل إسكندر قيادة المركب من قمرة القيادة وأطلق صوتًا من البوق فور الاقتراب من السفينة، إذ لم يحتَجْ إلى تشغيل الرادار أو الخرائط المنبعثة من الأقمار الصناعية التي لم تسقط في البحر ونُقل مركز قيادتها على حاملات طائرات المقاطعات الثلاثة لإرشاد من تبقى من البشر داخل البحر المترامي الأطراف وإبقاء بعثات ورحلات القواعد البشرية الثلاثة داخل البحر مستمرة.

عند وصولهما ربطا مركبهما في مركب صقر ورميا المرساة في البحر، ونظرا غير مصدقين أعينهما مما شاهداه، فقد سمعا كثيرًا عن يخوت الأغنياء وكبار الأثرياء حتى قبل الطوفان العظيم، ورغم أن إسكندر وغوستافو جابا كثيرًا من الموانئ والدول قبل ابتلاع البحر لها، لم يشاهدا مركبًا بهذه الروعة، وكان حديث العهد، فقد صُمِّم وبُنِيَ في اليونان عام 2027، وكان ارتفاعه بطول قصر مكون من ثلاثة طوابق، ورغم أنه صغير جدًّا أمام العبارة "تي-66" فإنه لا يزال ضخمًا أمام مركبهما المتناهي والمتضائل الحجم، وكان باللون الأزرق الداكن وتعتليه طائرة هليكوبتر متوقفة منذ مدة، ويبدو أنها أصبحت جزءًا من الشكل المكمل للمركب، ومن الخارج يوجد حمام سباحة حوله مقاعد استجمام، وبجواره يوجد ملعب تنس صغير مغطى بشبكة ضيقة لمنع سقوط الكرات في البحر.

كان هذا فقط ما استطاعا رؤيته من الخارج، ناهيك عما يوجد داخل الأدوار الباقية، وظلا محدقين هكذا في دهشة حتى خرجت لهما فتاة صهباء ترتدي ملابس البحر من قطعتين، تكاد تضيء كأنها كوكب دُرِّيّ أسفل الشمس

التي كانت في طريقها إلى الغروب، وطلبت منهما تتبعها إلى الداخل، فتتبعاها، وكان إسكندر لا يستطيع غلق فمه من الدهشة، أما فم غوستافو فكان يكفي لتمر ثمرة تفاح كاملة منه من فرط اندهاشه، وكان هذا لا شيء يذكر مقابل ما شاهدا بالداخل، ففي المركب من الداخل كل شيء مُطعَّم بالذهب والفضة والأحجار الماسية، من الأثاث والسرائر وحتى هواتف المحمول، التي صارت زينةً ليس أكثر بعد توقف خدمات الإنترنت، التي أصبحت مقتصرةً على بعض الأجهزة في مراكز قيادة السفن وتأتي من الأقمار الصناعية التي أطلقتها شركة "سبيس إكس للسفن والملاحة البحرية" قبل الطوفان، وكان المركب من الداخل كقصور الملوك بالفعل، يوجد به لوحات من عصر النهضة وآثار تعود إلى العصور المصرية القديمة والبابلية، وتماثيل عارية من البطالمة والإغريق، وسيوف عربية قديمة، بالإضافة إلى جلود الحيوانات الموجودة كأغطية في كل مكان من الدببة والنمور الآسيوية والذئاب، حتى أنه يوجد عظام ديناصورات وكثيرٌ من الأشياء العجيبة المدهشة.

ظلا يتعثران في طريقهما من فرط ما يتطلعان حولهما، حتى كادا يكسرا أشياء ثمينة، إلى أن عثر إسكندر في الحائط على صورة تجمع السيد صقر بعدد من الصقور حوله في الصحراء وهو يبتسم ملء فمه وسعيد، والصورة بحجم كبير ولها إطار من الذهب المرصع بالماس، ولكنها لم تنَل اهتمام غوستافو، فقط الإطار ما خبل لبه وتمنى لو يستطيع نقل المركب بالكامل على متن مركبهما.

- تأخرتما كثيرًا يا أصدقاء، الفتيات بدأن يسأمن من انتظاركما.

نظر الصديقان نحو مصدر الصوت فوجدا السيد صقر يجلس على أريكة كبيرة حوله ثلاث فتيات، منهن التي استقبلتهما، وكُنَّ جميعًا من جنسيات وأعراق مختلفة، فرقتهن الأرض وجمعتهن أريكة السيد صقر وملابس البحر المطبوع عليها اسم صقر بالأعلى والأسفل، فأسرع غوستافو ليجلس بجوار

الفتاة التي تفصل بينه وبين صقر على الميمنة، وجلس إسكندر على الميسرة أبعد قليلًا عن الفتاتين اللتين تفصلان بينه وبين صقر. وما إن جلسوا اقترب منهم رجل يبدو أنه الرجل الوحيد على المركب مع صقر، قدم من السلم العلوي ليقف أمامهم وتأمله إسكندر جيدًا، كان رجلًا يرتدي بذلة رمادية ويعتمر عمامة رأس كالسيخين وله لحية كبيرة وملامح قمحية قريبة إلى المصريين، ويتوسط ملابسه حزام به مسدس جعله الرجل بارزًا للجميع، فنظر نحوهم صقر الذي يرتدي جلبابًا عربيًّا أبيض طويلًا وفوقه جاكيت النجاة الأصفر.

- لا تخشوا، هذا حارسي شاروخان، بالتأكيد هذا ليس اسمه الحقيقي ولكني أحببت الممثل شاروخان فسميته تيمنًا به، حتى إني لا أتذكر اسمه الحقيقي، وهو من فرط طاعته لا يتكلم، بل يستمع فقط، إنه ودود جدًّا مع أصدقائي وجبار على أعدائي، ولكن يبدو في هذا العالم أن أعدائي هم القروش والحيتان فقط.

- لكل عالم أشراره، يبدو أنك سيدي لم تبتعد بهذا المركب كثيرًا عن حدود المقاطعة، ففي البحر أشرار كثر يسمون أنفسهم بالبطاريق، تستطيع القول إنهم القراصنة في هذا العالم.

قالها غوستافو والسخرية تنسكب من شدقي فمه، في حين صمت صقر وأفرغ بعض الخمر من إناء ذهبي عليه نقوش عربية، شرب القليل منه وتكلم:

- ترى هل ما زال أحد هنا يؤمن بالآلهة؟ هل هناك من تبقوا في هذا العالم صالحين يدعون لنا بزوال الغمة؟ هل بيننا شخص صالح كالنبي نوح في الطوفان الأول؟ لم يتوقع أحد في الأديان أن ينتهي العالم هكذا، إلا لو كان الإسلام يقول إن المسيح الدجال سيأتي على متن قارب، أو أن يأجوج ومأجوج هم دزينة من سمك مرعب، كون لا قشة لتُمسك بها وأنت تغرق في دوامة كبيرة تترنح دون هدي، وقد كنت تظن أنك تملك الصواب وأنك تحيا في أمان.

هل كانت الآلهة مجرد إيحاء نفسي لنقبل بالتعايش أم إننا كنا مجرد حمقى؟!

لم يجب أحد عليه، فالفتيات العاريات أتفه من خوض تلك النقاشات، في حين تأكد غوستافو وإسكندر أن السيد صقر أتفه من خوض نقاش معه في تلك الأمور، كما أنهما لم يباليا بسوى أنفسهما وأنهما في عرض البحر سينجوان فقط بأيديهما وعقولهما، ولن يشفع لهما دعاء أو طلب نجاة من شخص ما، ولكن السيد صقر شرب مجددًا فجالت الخمر برأسه ليتكلم.

- نحن البشر نعشق الشر واستحواذ بعضنا على حق بعض أحيانًا، بعد أن أنتهي من تلك الغانيات الجميلات اللاتي استعرتهن من قلعة أفروديت مقابل ثروة من الذهب، أتساءل في اللحظات القليلة التي يعود فيها رشدي من الخمر، ما قيمة الحروب التي خاضها البشر؟ ولم بعد الاقتتال والعنف لسنوات طويلة نستيقظ ونلبث على قضايا الأرض؟ أخبرني، ما قيمة حرب فلسطين وإسرائيل الآن؟ وأين ذهبت الأرض التي تطاحنوا عليها؟ لقد غرقت! ما قيمة تكالب إنجلترا وفرنسا في الماضي على استعمار الأراضي، كل ذلك ذهب هباءً، والوحيد الخاسر هو ملايين الأرواح التي أُزهقت بلا داعٍ وبلا تمييز، ما قيمة الأبيض والأسود أو إفريقيا وأوربا؟ كل هذا أصبح ماضيًا ثقيل الظل الآن! فلمَ كنا نتقاتل في البداية رغم أننا نعرف أنها ستزول، سواء في غرق غير متوقع أو بدمار الكوكب لأسباب كثيرة؟!

نظر الصديقان أحدهما إلى الآخر، فلم يكن إسكندر يرغب في خوض النقاشات الفارغة.

- سيدي، هل لنا أن نعرف ما المهمة التي تريد منا فعلها؟ وما المقابل المنشود؟

- أنت رجل أعمال بحق يا سيد إسكندر، لا تحب ضياع الوقت سدى، رغم أن أكثر ما نمتلكه الآن هو الوقت الضائع، ليس هذا من عادات المصريين، أين

ذهبت الروح المرحة في الأيام الخوالي ووقت الصبا؟! كنت أحب زيارة مصر. أتعلم، لدي هنا بعض التسجيلات لأم كلثوم اشتريتها بثمن باهظ، فما قيمة البشرية إن احتفظنا بلوحات فان جوخ وأهملنا أغاني الست؟! من المؤكد يا سيد غوستافو أن رفيقك المصري أسمعك أغانٍ لها، صحيح؟

- نعم سيدي، لقد سمعت لها أغنية الحب ابن العاهرة.

تمالك صقر وإسكندر أنفسهما، ثم انخرط صقر في الضحك بصوتٍ عالٍ وأخذ يضرب بيده جسده في دلالة على شدة الضحك، أما إسكندر فقد صمت يتابع خلاعة شخصية صقر ويدرس كيف يمكن الحصول على عائد ضخم من هذا الأخرق.

- أم كلثوم تغني الحب ابن العاهرة! إنها أغنيتي المفضلة، سأشغل بعض الأغاني لها لنستمع فيما نتحدث.

أشار صقر لرجله فاتجه نحو جهاز كاسيت قديم جدًّا من ضمن تراث التكنولوجيا البائدة، حتى استمع إسكندر لصوت السيدة التي قال البعض عنها إنها صوت مصر وإنك بمجرد الاستماع لها فإنك تستمع لمصر تحدثك، سواء كنت قريبًا أو في أقصى البعد، وتذكر أن السيدة تريزا دائمًا ما أحبت صوتها الذي لا ينقطع في البيت، وخالجه شعور غريب لم يعرف لمَ ساوره، كان الشيء الأكيد أن الجميع تبخر أمامه، وتمنى لو أنه يرى أمه ويرى الإسكندرية، وكانوا بالفعل يتجسدون أمامه تلك اللحظة، ولكن لماذا كان في الإسكندرية كلمات إسبانية في الشوارع؟ ولماذا أمه بشعر أشقر وهي ليست كذلك؟

"الليل وسماه.. ونجومه وقمره.. وقمره وسهره.. وانت وانا.. يا حبيبي أنا...".

تمايل صقر في سعادة وغوستافو يقلده في عدم فهم، في حين تصبب إسكندر عرقًا وصوت كوكب الشرق لم يجلب إلى قلبه سوى التعاسة والفزع، إذ

لم يتذكر إسكندر منذ زمن أن يتأمل ملامح نشأته ومدينته ووالدته، ناهيك عن أخيه وبقية أصدقائه، وأدرك إسكندر الكارثة، فقد نسي ملامح والدته بالكامل وملامح أبيه السيد ميخائيل، حتى الإسكندرية التي لطالما جاب شوارعها ومناطقها رُبِطت في عقله بمدن أخرى إسبانية وإيطالية، ولم يعرف هل هذا الزمن أم إنه عقله أم ذاكرته تخونه أو تتآمر عليه لتنسج واقعًا مغايرًا أم إن مياه البحر قد أنسته الأرض وما عليها، وشعر بتسارع أنفاسه وأن شيئًا ما يُلِمّ به مثلما حدث عندما سمع بخبر غرق الإسكندرية، وكاد يقع وهو يقف ليستعيد توازنه.

- هل من الممكن الخوض في العمل يا سيدي؟

لم يشعر إسكندر بنفسه ولا أن صوته كان مرتفعًا جدًّا إلى درجة تعجب غوستافو وفزعت الفتيات واعتذار أم كلثوم عن استكمال الحفل الخاص عندما أغلقها شاروخان ولوّح بمسدسه أمام إسكندر لشعوره بوجود مشكلة جسيمة، ولكن عندما عاد إسكندر إلى هدوئه كاد يعتذر قبل أن ينظر صقر بسعادة وأشار لشاروخان بخفض سلاحه.

- يبدو أن صديقي المصري إسكندر يمقت صوت أم كلثوم وتلك حالة غريبة كغرابة عالمنا الجديد، ولكني اعتدت المفاجآت، فلتتبعاني يا أصدقاء حتى أخبركما بالمهمة التي ستكُلَّفان بها.

قام صقر من مكانه بصعوبة، فوزنه السمين داخل الجلباب الأبيض لا يساعده على الحركة دون أن تدفعه الفتيات النحيلات، وعبث بشعره الأسود الناعم وشعر لحيته المشذب وتحرك، وتبعه غوستافو وإسكندر الذي نظر بحذر إلى الحارس الهندي الذي بادله نفس النظرات، وتحرك الأربعة في موكب صغير حتى سلم يقود إلى أسفل حيث أدنى طابق بالمركب، وكان طابقًا باردًا مظلمًا قليلًا، به معدات كثيرة، وفي نهايته عدد من الثلاجات الضخمة الموضوع بها في زجاج شفاف عدد ضخم من لحم الإبل والماعز والخراف المرصوصة بعناية، لتكفي الجمع الموجود لسنوات في المستقبل دون نفاد.

وصلوا إلى نهاية الثلاجة وأشار صقر بفتحها، فأخرج الهندي من الثلاجة صندوقًا كبيرًا مستطيلًا مصنوعًا من المعدن وله حاملان، واحد في البداية والآخر في النهاية، ويبدو للوهلة الأولى كنعش حديدي، وضعه الحارس أمام الصديقين اللذين تبادلا نظرات الحيرة حتى حسمها صقر.

- حدسكما مصيب، عندما هربت على البحر بعد غرق الخليج العربي كنت أنا وأخي مع شاروخان، والآن أصبحت أنا وشاروخان فقط، ومن في الصندوق هو أخي.

- وما المطلوب منا يا سيد صقر؟

قالها إسكندر بحسم، فيما تردد صقر قليلًا في الإجابة.

- على بعد أميال بحرية طويلة باتجاه الشرق يوجد مصفاة بترول بحرية لم تغرق، أريدكما أن تذهبا إليها، سأعطيكما أجهزةً ستساعدكما في تحديد موقعها بالقمر الصناعي وبوصلة إلكترونية لا تحتاج إلى إنترنت، وموقع طبوغرافي يحدد موقعها بالنسبة إلى خطوط الطول ودوائر العرض، وعندما تصلان سيكون معكما هذا الصندوق وصندوق آخر به تراب أرضي، أريد دفنًا لائقًا لذكرى أخرى في أعلى منطقة بالمصفاة، وإذ إنني لا أعرف موقع القبلة فلا يهمني أي اتجاه ستضعانه فيه، فقط احترما مثواه، فحتى إن ترنحت لديَّ بعض الثوابت واليقينيّات فسيظل دفن الإنسان في التراب أقدس من إلقائه لقروش البحر لتتبرزه. افعلا ذلك وسأعطيكما أيضًا كاميرا حديثة لتصورا لي بعد الانتهاء من عملكما، وعندما تعودان بالصور فكل الأجهزة التي سأعطيكما إياها ستصبح ملككما، ستساعدكما كثيرًا في عملكما، كما أن هديةً أكبر بكثير تنتظركما نظير عملكما، وأظن أنكما ستحبان أن تكون مفاجأة حتى تعودا. ما رأيكما بهذا العرض؟

نظر غوستافو إلى إسكندر وحاول إخفاء جم سعادته بهذا العرض المدهش الذي لم يحظيا به من قبل ولن يحظيا بمثله مهما عملا، فأعاد صقر كلماته حتى يقطع أي تردد لهما ويثنيهما عن قرار بالرفض.

- الزيوت التي حصلتما عليها من السيدة دكوكو لن تمسوها، فأنا

سأمنحكما ما يكفي مركبكما للرحلة ذهابًا وإيابًا. أظن على الأغلب حسبما أكد لي صديق قبطان بحري أن الرحلة ستبلغ شهرًا لتصلا إلى الوجهة، وشهرًا آخر للعودة، واخترتكما في هذا الوقت فالصيف لم ينتهِ بعد، ولن تقابلكما عواصف الشتاء، فأسرعا بقراركما قبل أن يتبدل الجو ويتلبد بالغيوم.

- نحن موافقان.

نظر غوستافو بدهشة إلى صديقه الحذر الذي لا يبدي موافقةً سريعةً أو حتى رفضًا سريعًا، بل يتأنى كثيرًا في قرارته، ولكن أذهله تلك الموافقة التي أثلجت صدر صقر واقترب منهما يحتضنهما بجسده الذي شملهما هما الاثنان بسهولة، وعلى الفور عاد الجميع إلى الغرفة بالأعلى حول النساء يحتسون الخمر، يتجرعها إسكندر بغزارة وغوستافو يحاول الانفراد بصديقه ليتساءل عن سر موافقته المباشرة، في حين حمل الحارس الهندي الصندوق إلى مركبهما الماكثة بجوار مركب صقر، وحمل بعض الأجهزة والمعدات التكنولوجية الحديثة الصغيرة الحجم، فما كان من غوستافو وإسكندر سوى الإشراف على نقل المعدات مع الحارس، فيما ظل صقر مكانه وسط الفتيات، وظل الحارس يجلب بعض الأشياء، وفي النهاية أحضر صندوقًا خشبيًّا كبيرًا فتحه غوستافو ليستشفَّ ما به، فوجد زجاجات كبيرة من خمر الفودكا، فتحدث الهندي بالإنجليزية المميزة للمرة الأولى والأخيرة.

- إنها هدية من السيد، وتلك علبة الكاميرا، أنجزا المهمة قبل أن يخلق الآلهة كونًا جديدًا من البحر لا مكان لكما فيه.

رحل الحارس إلى داخل المركب بعدما أنهى كلماته، وأنهى غوستافو وضع صندوق الجثة في أسفل مركبهما، وقد كان ثقيلًا جدًّا، وعاد إلى صديقه الذي كان في غرفة القيادة يحدد مكان حقل البترول عبر الأجهزة التي منحت لهما مع خريطة التحرك نحوها.

- صندوق الجثة ثقيل جدًّا، يبدو أن الأخ نسخة مطابقة من هذا المدعو صقر.

- يبدو أنه لا يزور صالة التمرين بأيٍّ من سفن المقاطعة.

- أظن ذلك، ولكن أخبرني يا صديقي العزيز الذي لا يتملق أحدًا، ما الذي دفعك إلى الموافقة الخاطفة على عرض صقر؟ لم أعهد عليك ذلك!

- مهمة يسيرة لا غوص بها، سنكسب منها الكثير، وتلك المعدات الملاحية رائعة، من آخر إنتاجات الأرض المذهلة، فلماذا نرفض؟!

بخبث قال غوستافو:

- من منقذ للغرقى سابقًا إلى حفار قبور حاليًا، هل تتودد له لتصبحا أصدقاء؟

- لا صديق لي بهذا العالم سواك.

- هو عربي مثلك.

- وأنت مسيحي مثلي.

- وهل ما زلت تؤمن بالمسيح؟

- وهل تظن أن هناك شيء اسمه عربي أو إفريقي أو أوربي الآن؟!

صمت الاثنان ولم يكملا الحديث، ولكن غوستافو أدرك أن صديقه يكذب أو يوجد دافع خفي لا يبوح به لقبوله بتلك المهمة، ولم يستغرقا كثيرًا حتى فحصا المركب جيدًا وأصبح جاهزًا للتحرك فور وجهتهما الجديدة، فهما لن يعودا إلى السفينة أو المقاطعة إلا عندما ينتهيان من المهمة، وتحركا بسرعة 50 عقدة في البحر، أما السيد صقر والفتيات فقد وقوفوا يلوحون لهم من بعيد حتى ابتلعهما البحر بين كنفيه مثلما ابتلع قرص الشمس المائل إلى الاحمرار ليقع الكوكب في ظلام دامس، لا شيء فيه سوى قمر منعكس على صفحات المياه الممتدة إلى ما لانهاية.

"اللي فيها ربنا مبتغرقش"

[مثل مصري شائع]

من قال إن وحوش البحر غير حقيقة؟

ولكن من قال إنها بالضرورة يجب أن تكون من لحم وعظم؟!

فها هما ينظران نحو الوحش الكامن في مكانه يبث في نفسيهما الهلع والرعب، كان قاتمًا وصدئًا من احتكاك الماء به فأتلف لونه، صوت الريح يمر به يصدر خوارًا كالثور الهائج، يسمعان صوته من بُعد أميال، وكلما اقتربا تعاظم صوته، كان وجوده كشاهد قبر عملاق يشهد حضارةً غابرةً انتهت وبقي هو كفزاعة الحقول في الماضي لا تتحرك، ولكن فقط يكفي مشاهدتها لتهرب من أمامها.

كانت بحق تليق أن تكون مقبرةً للبشر، ففيها كل المقومات دون الحيلولة عن مهمتها الأولى، وقف غوستافو ينظر إليها وهما يقتربان منها بهيبة، يبتلع ريقه في حين يتمنى إسكندر الوصول إليها لإنهاء تلك المهمة والبحث عما يريد البحث عنه، ورغم أنهما من مركبهما يستطيعان رؤية مصفاة البترول في قلب البحر بحجمها الهائل وصوتها مثل صوت الريح الهادر، فقد كانا يحتاجان إلى

ساعات للوصول إليها في أقرب تقدير، وكان من حسن حظهما استقرار المناخ طوال مدة الرحلة التي استغرقت خمسةً وعشرين يومًا بفضل سرعتهما، والآن أمامهما سويعات قليلة للوصول إلى حقل البترول المنشود الذي صمد أمام الفيضانات وأمواج المد والجزر ولم يتهالك أو يسقط ككثير من مصافي البترول، فأكمل إسكندر وأسرع من سرعة المركب، فيما هبط غوستافو ليجلب صندوق الجثة وصندوق التراب استعدادًا لمهمتهما وحمل حقيبة الكاميرا على ظهره.

حدد إسكندر موقع سلم صعود المصفاة ليتوجها صوبها، وجهز غوستافو بعض الأسلحة خشية أن يقابلهما البطاريق أو تكون تلك المصفاة واحدةً من قواعد ارتكازهما في البحر وبها رجال مختبئون مستعدون للانقضاض عليهما، ولكن كلما اقتربا تسري بداخلهما الطمأنينة، فالبطاريق في الغالب يتبعون سياسة المعارك البعيدة، وكلما اقتربت منهم في البحر يهربون، وكان إسكندر بالفعل على أعتاب سلم الحقل، فأرسى المرساة داخل البحر أسفل السلم مباشرةً، وكانت مكونةً من العديد من الطوابق، ولكن آثروا السلامة باختيار الطابق الأول حيث كان موقع متابعة المهندسين والعمال في الماضي، وهو مكون من أرضية حديدية بحواجز صلبة تمنع الواقف عليها من السقوط في الماء. وعلى الفور اعتلى غوستافو درجات السلم بيد وبالأخرى تمسك بصندوق الجثة المربوط حول جسده بحزام من الحبال، ومن خلفه يصعد إسكندر ومربوط حول جسده صندوق التراب المستخدم للدفن، وعلَّق في قدمه قطعة قماش بها الكاميرا المستخدمة لتصوير المراسم حتى تتم الصفقة بينهم وبين صقر. وفور وصولهما إلى الطابق الذي يرتفع عشرين مترًا عن سطح البحر أخفَضوا الصناديق عن ظهريهما، ووقف الاثنان بجوار المانع الحديدي يتطلعان إلى البحر يلتقطان أنفاسهما من صعود درجات السلم بتلك

الحمولة، وينظران إلى البحر الذي لا يريان غيره في كل وقت وفي أي مكان.

- هل نتراهن؟

- على ماذا؟

- على توقع قيمة المكافأة المرصودة من صقر عند العودة.

- لا أعرف، ولكن أظنها باهظة القيمة، ولكن ما قيمة أشياء كانت مهيبة في العالم القديم وبين هنا؟! أنا كإسكندر علب الطعام لها قيمة أكبر من المجوهرات.

- هذا الرجل رغم حماقته يدرك ذلك جيدًا، دعك من الذهب والآثار التي يحتفظ بها في مركبه الفاره، هو يعلم ما نحتاج إليه بحق، فلو افترضنا أنه قال لي بصوته الفظيع (وبدأ بتقليده): يا غوستافو لقد أحسنت العمل وحققت لي أمنيتي، خذ هذا التمثال. سأشكره كثيرًا وأضع التمثال الذهبي في مؤخرته!

ضحك إسكندر حتى سعل ثم نظر أمامه إلى امتداد البحر الواسع.

- كم ستستغرق من الوقت بمفردك لتتم المهمة؟

حك غوستافو رأسه وقال ببلاهة:

- من ثلاث إلى أربع ساعات حتى أدفنه، ولكن لماذا تسأل؟ ولماذا بمفردي؟

- سأتفقد شيئًا هنا وأعود إليك.

أمسك غوستافو بصديقه من ذراعه وقال:

- هل ستذهب لتجلب وردةً لحبيبتك من جزر الكاريبي هنا؟! هل أنت أحمق! لو كان في البحر صحراء فيمكن القول إننا وسط صحراء البحر الكبرى، لا يوجد شيء هنا لتذهب إليه.

أخفضَ إسكندر ذراع صديقه المتيبسة نحوه وهتف بحماس:

- الأجهزة التي مُنحت لنا عظيمة بحق، إنها ترصد مواقع اليابسة بدقة

تحت البحر أكثر من أجهزتنا القديمة، وبالقرب من تلك المصفاة رصدت الأجهزة يابسةً عظيمةً لعلها مدينة هامة، لعلنا فوق إنجلترا أو فرنسا، يمكن أن نغنم شيئًا قيمًا جدًّا قبل العودة، لن أتغيب كثيرًا، لقد وصلنا مع وضح النهار وأحضرت لك طعامًا وماءً لتعتبر نفسك في راحة وأنا سأؤدي العمل.

منذ تقابل غوستافو وإسكندر لم يتركا فرصةً للاستكشاف في البحر عن الغنائم إلا واقتنصاها، وفي ظروف أكثر تعقيدًا من هذا، وفي حالات طقس أكثر خطورة من الوقت الحالي، ولكن تلك المرة تعجب بشدة غوستافو، هو لم يعهد شطحات الجنون على صديقه الأكثر عقلانيةً وارتكازًا منه، ولم يكن صلدًا قط، وهما بالفعل سيحظيان بأضخم مكافأة حظيا بها منذ عملهما، فلمَ يغامر في مغامرة طائشة ستكلفهما نقصًا في الطعام والوقود وما زال أمامهما رحلة عودة طويلة؟ ولكنهما صنعا قانونًا خفيًّا بينهما غير مُعلَن، أن إسكندر هو الربان والقائد ويحق لغوستافو المناقشة ولكن لا يحق له الاعتراض.

- ولِكم من الوقت ستتغيب؟

- الموقع يبعد عن هنا بعض الأميال القليلة، بمجرد الوصول سأهبط إلى البحر باستكشافٍ سريع، لو وجدت أشياء دون قيمة فسأعود بأسرع وقت.

هز غوستافو رأسه في حين أخرج له إسكندر بعض الطعام والماء والخمر وسجائر تكفيه يومًا كاملًا، وتحرك نحو السلم مغادرًا، ثم استوقفه غوستافو بيديه هذه المرة بشكل رقيق مع نظرةٍ بعينيه وقال:

- نحن العاصفة.

- في البحر الهادي.

- نحن الرواسي.

- في البحر العاتي.

- نحن النسور في السماء.

- نحن القروش في البحر.
- نحن سادة البحار.
- وحتى تعود الأرض.

أنهى الصديقان شعارهما الخالد الذي دومًا ما يرددانه قبل كل مهمة جديدة، ولكنهما نسيا طوال مهمة صقر التي لا تليق لتعتبر مهمةً كبيرةً لسادة البحر، بل لنباشي قبور، ولكن حان الوقت لمغامرة جديدة ولترديد الشعار الرنان حتى لو كانت منفردةً دون قطبي سائر المهمات.

سرعان ما غادر إسكندر وهبط درجات السلم بسهولة وحمل قليلًا نحو المركب الرابض، وسرعان ما أدار دفة المركب نحو الشرق مبتعدًا، في حين يلوح له غوستافو من أعلى وبيده زجاجة خمر، وظل يلوح هكذا حتى لاحت في الأفق شرارة برق، ولكن لم تتبعها واحدة أخرى، وكان إسكندر قد تتبع شاشة الملاحة المرفقة من القمر الصناعي المشير إلى يابسة كبيرة على عمق ضئيل أسفله يمكن الهبوط إليها بسهولة، وعند الوصول إلى الموقع المنشود في نقطة في البحر ارتدى أسطوانة الأكسجين البلاستيكية ووضع قناعه وقفز في الماء بوضعٍ معكوسٍ ليهبط داخل المياه الباردة، وكشّافات الرؤية تعمل كسراج منير يضيء عتمة البحر. وفي طريقه إلى تحت البحر لمح مدينةً كبيرةً غارقةً تضيف منظرًا مهيبًا بمنازلها وطرقها وحضارتها الكاملة التي تداعت، والتي ظن الإنسان أنها ستخلد إلى الأبد ولم يعلم أنها ستصبح مستقرًا للأسماك والطحالب.

فيما يقترب إسكندر أكثر وأكثر يشعر أنه وجد ضالته، عثر على ما يبحث عنه، من المؤكد أنه كذب على غوستافو أو أنه لا يكذب، فهي كنز أيضًا، فهي أهم من أي شيء قد يعثر عليه، إنها غايته ومبتغاه الآن. ارتسم على وجهه من خلف قناع التنفس ابتسامةٌ خافتةٌ حتى ترامى إلى سمعه صوتٌ وسط صمت المياه.

- اجلس على الشاطئ يا إسكندر، كفاك لهوًا في الماء، لا تقلق فالبحر لن يختفي.

نظر إسكندر نحو مصدر الصوت ولم يصدق ما رآه، إذ وجد نفسه طفلًا صغيرًا يجلس على شاطئ البوريفاج في الإسكندرية ووالده يسبح داخل البحر، نظر إسكندر الطفل والكبير النظرة ذاتها فور رؤية الأب، نظرة الإبهار والإعجاب نفسها، كان السيد ميخائيل أعظم سباح شاهداه في حياتهما، كان في الماضي لاعبَ سباحة وممثلًا لمصر في الأولمبياد، ولكن الإصابة جعلت بينه وبين الميدالية الذهبية الوشيكة حائلًا، وتوقف بعدها عن الرياضة. لم يكن الأب بطلًا لأحد، عكس إسكندر الذي كان بطله الأوحد. لطالما قالت السيدة تريزا أنه فَتنَ ابنه بالبحر مثله، فأصبح لا يحب مجالسة إخوانه أو المكوث في البيت، بل يجري إلى البحر مع أبيه، وورث عنه معشوقه الأول، يقضيان يومهما بالكامل أمامه، ابتسم إسكندر الكبير لتلك الرؤية وهو يشاهد والده من جديد، حتى سمع صوت نسخته الصغيرة فشعر بالفزع.

- أبي، هل يمكنك الوصول إلى البر الآخر والعودة؟

ابتسم الأب وهو داخل الماء وأشار بيده نحو البعيد الذي لا ينتهي.

- تريد مني السباحة حتى الأراضي المقابلة نحو اليونان؟ حسنًا، ولكن ستحسب لي وقتًا طويلًا جدًّا.

ابتسم إسكندر الصغير وأخرج من ملابس مدرسته التي لم يمسسها ماء ساعةً صغيرةً ليحسب الوقت ووقف يصيح في سعادة.

- والآن السباح الرائع ميخائيل سيعدو حتى اليونان، لأنه أفضل سباح وهو من يخشاه البحر وهو بطلي الأول!

لم يجد الصغير جمهورًا ليشجعوا والده معه، فقد كان وقت الظهيرة في الخريف فلا مصيفين، والأهالي من أبناء المدينة إما في العمل وإما في المدارس،

والأب بلا تردد انطلق سابحًا في الماء والصغير يصفق بيديه في سعادة وهو يراه يشق البحر كعصا موسى بلا هوادة، وحوله جوقة من مخلفات البحر، يضرب بيده الماء فتطاير عن يمينه ويساره، كان مقدامًا لا يخشى البحر. ظل الأب يسبح حتى اختفى، وإسكندر الصغير ما زال يصفق بيديه في سعادة، ثم وجد بعض المنقذين يهرولون نحو الماء وكانوا ثلاثة رجال، قفز أحدهم من برج الشاطئ الصغير للمراقبة، وأشار لصديقيه ولم تلتقط أذُنا الصغير سوى كلمة واحدة منهم.. "غريق!".

وقفز الرجال الثلاثة في البحر يتسابقون نحو بقعة ماء في البعيد تصنع بركانًا صغيرًا من المياه، ويد كبيرة تخرج من بين البركان ثم تضمحل داخله مرةً أخرى، ثم تعيد الكرة مرارًا. لم ترَه عين الصغير ولكن أعين الرجال الثلاثة لمحته وفرُّوا نحوه. توقف الصغير عن التصفيق ونظر نحو ساعته والبركان الصغير كان يخمد تدريجيًّا والرجال الثلاثة يقتربون من مصدر البركان المائي الذي تلاشى قبل وصولهم، وشعر الصغير بارتباكٍ قليل ينتابه وأن شيئًا ما يحدث، ونظر نحو ملابس المدرسة والحقيبة وركلهم بقدمه وجرى نحو الماء بسرعة فقز بعدها برشاقة وبدأ بالعوم بجسده الضئيل، فيما وجد يدًا تمتد من خلفه وتمسك به تعيده إلى الخارج، وكان واحدًا من زوار الشاطئ يحمل الفتاة ويعيده إلى الخارج، والصغير يركله بيده وقدمه ويصرخ:

- أريد الذهاب إلى أبي! أبي على البر الآخر! أبي على البر الآخر! اتركني!

ظل الفتى يقاوم الرجل الذي لم يكلل عزيمته، وخارت قوى الصغير ولم يشعر بشيء سوى أن عينيه لا تسعفانه على الرؤية، وأنه يخلد إلى النوم عميق، في حين يخرج الرجال الثلاثة من الماء حاملين جسدًا ما بين أيديهم، ولكن لم يتبين ملامح الجسد قبل أن يحل الظلام عليه.

أفاق إسكندر مما خطر بعقله عندما اصطدم ببناية شاهقة داخل الماء

ترتفع عن بقية المنازل المحيطة، وكان يعلو الواجهة الزجاجية للمبنى دعاية ضخمة ترتفع لأمتار فوق المبنى، وكان بعض الكلمات المحفورة عليها قد تلاشت بفعل المياه، فنظر إليها ليجد بعض الكلمات عليها، لم يستطِع تميز اللغة وإن كانت غير إنجليزية، ولكن كان بجوار الكلمات شعار، فتطلع إلى الشعار يتأمل ما تبقى منه، أشبه بصقر أو عنقاء، لم يستطِع تمييزها، ولكن بعد محاولات جاهدة استطاع معرفة الشعار، فلقد كان شعار نادي فرانكفورت الألماني، وأدرك توًّا أن الكلمات باللغة الألمانية وأن ما ينظر إليه هو بقايا مدينة فرانكفورت.

- أين الإسكندرية؟ وأين رحلت؟ وأين أبي وأمي وإخوتي؟!

جالت كل تلك الخواطر داخل إسكندر الضئيل جدًّا داخل هذا العالم الشاسع الذي يطير فيه البشر على البنايات ولا جاذبية لتجعلهم على الأرض، هو الآن يرى مدينةً كبيرةً من الأعلى وليس من الأسفل، ناطحات السحاب بها تقبع أسفل قدميه وشوارعها ومحالها الآن هي الأبعد عنه. لم يقف ليتأمل كثيرًا فقد أيقن أنه ضلَّ وجهته، سجل على جهاز بيديه موقع مدينة فرانكفورت تحت الماء حتى يدونه على الجهاز بالأعلى، ورغم قيمة الكنوز التي قد يجدها في تلك المدينة الأوربية الشهيرة كما خدع صديقه غوستافو، فهي لم تكن ما جاء للبحث عنه، وعاد إلى أعلى خاليَ الوفاض قبل أن يهاجمه قرش أو سمك مفترس ممن استعمروا المدينة الخربة، وقال بينه وبين ذاته:

- من الرائع أن الأسماك لا تعرف التملق بينها، لسكنوا المنازل وأداروا السيارات وعملوا بالبورصة وافتتحوا البنوك، فلو فعلوا ذلك لخرب البحر مثلما خربت الأرض.

وعلم أن إيجاد مدينته الإسكندرية سيتطلب بحثًا كثيرًا ومعرفةً واسعة، وتمنى لو أن صقر يمنحهما بعض الأجهزة الأكثر حداثة، تلك التي يحتفظ بها

قادة المقاطعات في حاملات الطائرات لتحديد معالم الأرض تحت البحر، وأن تلك ستكون الهدية المثالية، ولكن عليه العودة إلى صديقه، لا يعلم كم من الوقت مضى ولكنه متيقن أنه وقت كافٍ لينتهي غوستافو من العمل على دفن الجثة، وسيقول له إنه وجد مستعمرة قروش كبيرةً فلم يستطع الحصول على شيء من المدينة، وسيصدق غوستافو ويطلق بعض كلماته النابية، ثم ينتهي ويعودان وهما يقارعان الخمر حتى مركب صقر الفاخرة ويضاجعان بعض الفتيات ويُسدَل الستار بنهاية سعيدة عن تلك المهمة.

ولكن ما إن صعد إسكندر إلى سطح البحر ونزع القناع عن وجهه أدرك الكارثة في استقباله، فالسماء كانت متلبدةً بالغيوم جدًّا وشبه معتمة من تدثر الشمس خلف السحب المتراكمة والأمطار الغزيرة، ما جعل البحر يتمايل بالأمواج، فاقترب مسرعًا من الحبل المربوط من المركب واعتلاه، فصعد إلى سطحه وأسرع نحو كابينة القيادة وهو ينزع عن ظهره الأكسجين، واقترب نحو لاسلكي يدرك فشله الدائم.

- غوستافو، هل تصلك إشارتي؟ هل تسمعني؟

لم يتلقَّ إجابةً كالمعتاد من اللاسلكي الخرب، وعلى الفور شغل محرك المركب وانطلق بالإحداثيات نحو موقع حقل البترول الذي يحتاج إلى خمس ساعات ليصل إليه من جديد، وهو يأمل في الوصول أسرع من ذلك قبل أن يستَعِر الأمر لعاصفة كبيرة أو تحمل الريح بين طياتها زوابع أو أعاصير. قطع أشواطًا كبيرةً داخل البحر في وقت قصير، يصرخ بين الحين والآخر بوجهٍ كظيمٍ في اللاسلكي عسى أن يتلقى استجابة أو إغاثة، واستخدم أقصى سرعة وعقدة بمركبه ليصل إلى صديقه.

- غوستافو أجبني، هل تصلك إشارة؟

لا يتلقى إجابة، فينظر من جديد نحو المؤشر فيرى نفسه كنقطة حمراء

تقترب من هدفها وهي النقطة البيضاء حيث موقع صديقه، وحتى ظهرت له المصفاة من بعيد، فأصبح بإمكانه رؤيتها وزفر في راحة عندما تيقن أنها لم تسقط في البحر بعد، وإن لم يستطع رؤية صديقه الذي بحجم دعسوقة مقارنةً بحجمها، ولكن كان صوت الريح يستعر والأمطار تنهمر بكثافة حتى غطت سطح المركب، ففتح تصريف المياه لتنهمر بالخارج، وما توقف الأمر عند ذلك، فصوت الرعد شقَّ السماء والبرق أعمى بصره للحظات وتكاثف البرق وأخذ يضرب قمة المصفاة بلا هوادة، فقد كانت الشيء الوحيد الحديدي المرتفع فوق سطح البحر.

دفع إسكندر محرك المركب ليعمل بأقصى طاقته، فيما انتقل هو ليُلقي بعض الأشياء الثقيلة القليلة القيمة من سطح المركب ليخفف من حمولتها، فكل ثانية لها قيمتها في إنقاذ صديقه، وعندما أصبحت المصفاة على مرمى بصره، وجد يدًا تلوح له في ذعر وبجوارها كومة من التراب على شكل هرمي، فنظر من سطح المركب بمنظاره فوجد غوستافو وملابسه مبللة وقسمات الرعب على وجهه وينادي بكلمات لم تصل إلى مسامعه، إذ ما زال بعيدًا عنه بعض الشيء، فأخرج صاروخًا من حقيبة الألعاب النارية وأطلق واحدًا نحو السماء فأصدر أضواءً أضاءت السماء المعتمة كما يضيئها البرق، ولكن الأضواء النارية أغضبت البحر وأيقظت لعنته، فما كان يكفي الصديقين البرق والرعد والأمطار حتى تعاظم موج البحر وانطلقت موجة ضخمة كتسونامي هائلة يصل طولها إلى ثلاثين مترًا، جاءت من خلف حقل بترول بعيد عن المركب لكن قريب جدًّا من غوستافو.

كان المركب قد اقترب جدًّا، حتى إن ملامح غوستافو باتت واضحةً لعين صديقه بالأسفل، وشاهد إسكندر صديقه وهو خائف ويرتعد من الموجة القادمة، نظرة هلع لم يرَها إسكندر من قبل ولن يراها مجددًا. أوقف إسكندر محرك المركب وأطلق الحامي الإسفنجي الذي يتصدى للأمواج الضخمة،

وأطلق مرساة المركب وارتدى أسطوانة الأكسجين وحمل أسطوانة أخرى بين يديه وقفز في الماء، وكان هذا الحل الأمثل من نظره، وأشار لصديقه غوستافو بالأعلى أن يقفز في الماء، لكن موجة الماء كانت أقرب إليهما فضربت جنبات المصفاة بقوة فتمايلت إلى الأمام وصنعت الموجة كمية ماء هائلةً وانهمرت فوق الجميع. حاول غوستافو التماسك في الحديد الحائل ولكن خارت قواه من قوة الدفع، وسمع إسكندر صوته وهو يسقط بقوة في الماء.

- إسكندررررررر!

ولم يتمهل إسكندر وغطس في الماء قبل أن ينهمر الماء فوق رأسه، وحمل حقيبة الأكسجين المضغوطة إلى داخل الماء، وكان يرى غوستافو في الماء يتهاوى إلى أسفل فيما اصطدمت موجة البحر العاتية بالماء، فقفز غوستافو بعيدًا داخل الماء كمحركٍ نفّاث، ولم يرَ سوى حلقات من الماء المندفع حوله والرؤية تُعتِم، وشعر أن أنفاسه تختنق رغم وفرة الأكسجين في الحقيبة خلف ظهره، وبجسده يُسحَق كأنما سقط في دوامة أو يسحبه ثقب أسود.

- أين أبي؟ أين أبي؟!

شاهد إسكندر نفسه داخل الثقب الأسود وهو طفل يصرخ داخل الماء، يعوم إلى الداخل نحو الأب الذي لم يعُد من البر الآخر. كلما نسي أنه شاهد وجه الرجل الغريق وهم يخرجونه من البحر ذكَّره عقله أنه تمعن جيدًا في ذلك الوجه الذي كان وجه أبيه الذي لم يصل إلى وجهته للبر الآخر، وتذكر أنه منذ ذلك اليوم يجري يوميًا من المدرسة، من البيت، من الكنيسة، يتبعه إخوته وتتبعه أمه صارخة، يجري نحو البحر، يدخله بملابسه وبحذائه، يحاول الوصل إلى أبيه على البر الآخر فهو هناك ينتظر وصوله، فيحمله الرجال إلى الخارج، ومتى يذهب يجد من يمنعه، يذهب نهارًا وليلًا ووقت الغروب ووقت الشروق، وبينما الشمس لاسعة، وبينما الناس ترتجف من البرد، يتذكر تلك

المرة الوحيدة التي لم يجد من يمنعه والناس نيام، فظل يعوم ويعوم حتى ابتعد عن الشاطئ وظن أنه بلغ وجهته، ولكنه وجد المياه تسحبه إلى أسفل، فيقاوم ويصرخ وتحمله يده وقدمه ليهرب من ذلك، وتمنعه الغريزة من قتل ذاته، ويظن أن هذا المكان ما منع والده من بلوغ هدفه، ولا يرى أمامه شيئًا سوى البر الآخر الذي لم يرَه قط.

تنقشع المياه عن وجه إسكندر ويعود سطح الماء إلى الهدوء النسبي قبل أن تجتاحه موجة ثانية، فلا يعلم إسكندر أين قذفته المياه داخلها، فيكمل بحثه عن صديقه، فيرى من بعيد وقد توقفت يد صديقه عن محاولة السباحة، وكجلمود في الماء يسقط إلى أسفل فقط ولا يفعل شيئًا آخر. يهبط إسكندر نحوه لينقذه ولكن تظلم المياه بشدة، فيخرج كشافًا ليضيء ما حوله، ولكن بالكاد يرى كف يده والظلام يشتد في أعماق البحر من حوله مثلما تظلم السماء في الأعلى، فكأنما هو في ظلمة الرسول يونس في بطن الحوت.

- غوستافو أتسمعني؟ أين أنت يا صديقي؟

لا يتلقى إجابة، لا شيء سوى الصمت وظلمة البحر.

يستسلم إسكندر ويشير جهازه له بنقص الأكسجين من فرط نوبة الهلع والتنفس بشدة الذي انتابه، يتوقف عن البحث عن أمل لنجاة صديقه، سيصبح مثل المليارات الذين ابتلعهم البحر كقربان لإلهٍ ما يعشق خنق رئة البشر بالماء قبل قتلهم، فلا كانوا أفضل من غوستافو ولا تميز هو عنهم، فرَّقت المياه بين الصديقين فرفعت إسكندر إلى أعلى وهوت بغوستافو إلى أسفل، حيث قد يستقر مثواه الأخير فوق جبل أو عقار سكني أو لا شيء، فقط معدة سمكة كبيرة. بمَ سيشكل ذلك فارقًا مع الميت؟ فإن غادرت الروح فبماذا يفيد الجسد؟! انتهت الصداقة وانتهى كل شيء، ويشفع فقط أن آخر كلماته كان يصرخ باسمه.

ما إن ارتفع إسكندر إلى سطح البحر ظل صدره ينتفض طالبًا الهواء، يشهق ويزفر بقوة، يكاد يصرخ مع كل نفس صادر أو وارد، وعندما استطاع الرؤية بعينيه بعدما أعمته المياه لثوانٍ وجد المصفاة في مكانها ولكنها مائلة إلى الأمام، تعبث بها المياه وتكاد تسقط، ولكنها ظلت متماسكةً بعض الشيء، ووجد مركبه ابتعد قليلًا بفضل المياه، ولكن بمعجزة سمائية لم ينقلب المركب أو تغمره المياه، فقط زحزحته عن موقعه بعض أميال من قوة التصادم. وقرر بعد لحظات، لا يعرف.. هل يرحل هكذا ويترك غوستافو؟ هل ينتظر أن يكون حيًّا ويصعد إلى أعلى أو مات فتطفو جثته؟ يفكر أن تلك اللحظات ثمينة كالذهب وقد يكون يحتضر أو فاقدًا الوعي وينتظر إغاثة، فهل يعود للغوص من جديد لينقذه أم يسرع بالتحرك قبل هبوب عاصفة أو موجة ضخمة كسابقتها؟ فيض من الأسئلة والقرارات لا يعلم لصديقه أم في قرارة نفسه حتى يقول إنه لم يدخر جهدًا حتى لا يعصف به الندم مجددًا، يكفيه ندم الإسكندرية وندم غرق أبيه ومصير أمه وإخوته، يكفيه بحر من الندم لا ينتهي كالبحر الذي هو فيه الآن لا يساوي مقدار قطرة من ماء أمام حجمه الهائل.

أضاف إلى البحر مياهًا جديدةً أكثر ملوحة عندما ظل يبكي وينتحب ولا أحد ليسمعه، لا أحد ليربت على كتفه، فقط هو والماء والندم الذي لا ينتهي. أدرك الآن أن الإسكندرية غرقت ولا سبيل للبحث عنها في مقبرة الأعماق، وأنه هو من تسبب في موت أبيه، وأن أمه بالتأكيد ميتة الآن هي وعائلته، ولم يخطر بباله قط أن يحتضنها أو يودعها بعينه قبل الرحيل، وأنه أحقر شخص على وجه الماء، وأنه لو كان يوجد رب عادل لنجَّا الجميع وأغرقه هو، فهو يستحق وهم لا يستحقون، حتى غوستافو بلسانه السليط كان يملك آدميةً أكثر مما امتلك إسكندر يومًا، ويداري طيبته وهوانه في الحياة بادعاء القوة والسفسطة، وهو أغلب ما يكون، هو الآن وحيد، ولو كان حوله مليون شخص

في تلك اللحظة سيظل وحيدًا، إنه بعكس المغناطيس، هو شخص نافر يفر البشر من حياته، حتى الطفل الذي من الممكن أن يكون ابنه تركه لعاهرة لتربيه أو تقتله، الآن يدرك كم هو حقير، كما عليه الآن أن يستسلم للمياه لتحمله إلى أعماقها، فليس بمستحقٍّ للحياة أو راغبٍ فيها.

وعندما شرع بالفعل في نزع أنبوب التنفس والاستسلام للموت الوشيك، نظر بطرف عينه الباكية من خلف مياه البحر والدموع، ليجد شيئًا أوقفه عن فعلته، فقد وجد الصندوق الخشبي يطفو على الماء، الذي من المفترض فيه جثة أخي صقر الذي كانت السبب لوصولهما إلى هنا، ولكن عاجله أن الموجة صنعت ثقبًا كبيرًا في الصندوق فأفضى بما بداخله، وكانت مفاجأةً مدويةً لإسكندر، فعندما نظر بعينيه وجد صقرًا يسقط من الفجوة ليطفو على البحر ومنقاره مُكمَّم بحبل وبخيط رفيع معصوب الجناحين والقدمين. لم يصدق إسكندر ما شاهده، فوجد نفسه يتراجع عن قرار الموت ويعوم حتى يصل إلى الصندوق ليستكشف ما فيه، وما إن وصل إليه وجد باطن الصندوق مغطى بسبائك فضة أعلاها ست جثث لصقور وسابعهم الذي سقط في الماء وشاهده يخرج من الفجوة، وجميعهم بنفس الوضع مُكمِّمي المنقار ومربوطي الأجنحة والأرجل، وأسفلهم طبقة من الفضة كأنها نعش لهم.

لم يستوعب إسكندر ما شاهده وأنها لم تكن جثة رجل، بل مجرد جثث صقور من أجلها بذل الغني السمين كل تلك الموارد والعطايا، ومن أجلها خاضا تلك المغامرة الطويلة الخطيرة، ومن أجل حفنة صقور مات غوستافو وغرق بمفرده في أعماق البحر إلى الأبد ليتحلل أو تتناوله الأسماك. تحول حزنه إلى غضب، واستسلامه للموت إلى رغبة في الانتقام من ذلك الأحمق الذي يعتبر البشر في عالم كذلك محط استهزاء وإرضاء لرغباته القميئة، كهؤلاء النسوة اللواتي يفترشن سريره ليلًا.

على الفور أسقط إسكندر أجساد الصقور في الماء وكذلك الفضة، واتجه نحو مركبه ليعتليه من الخلف، فصعد إليه وهو ينزع أجهزة التنفس، وبدأ بتصريف بعض المياه عن سطح المركب والتأكد أن أجهزة القيادة تعمل بكفاءة، واستعد لرحلته للعودة، ولكن قبل التحرك خرج وهو يحمل علم كولومبيا ذلك الذي حمله غوستافو معه على ظهر المركب ليذكره بوطنه، فكتب عليه بالأصفر "هنا ينام غوستافو"، ثم ألقاه في البحر حيث موقع غرقه، وألقى نظرةً أخيرةً إلى صديقه وهو يمسح دموعه ويستعد للانتقام له بقلب محترقٍ كاحتراق الزيوت في محرك المركب.

***

كانت حادثةً نادرةً أن يستيقظ صقر من نومه في سفينته الفارهة دون فتيات بجواره، فقد سئم الفتاتين اللتين قَدِمتا له من قلعة أفروديت، وجعل حارسه شاروخان يعيدهما أمس وعاد خالي الوفاض، فلم يأمره صقر باستبدالهما بفتيات جديدة، لم تختلف حياته كثيرًا قبل غرق الكوكب أو بعده، نفس حياة الترف والمجون ولكن دون رقيب أو حسيب ودون عائلة، فقط شاروخان هو عائلته الوحيدة الآن. أفاق من سريره واتجه نحو ركن المشروبات بالغرفة ليخرج بعض الخمور فتجرعها دفعةً واحدةً كقهوة الصباح، ورغم أن لا شيء تغير في نشاط يومه لم يجزم بعد أنه يستسيغ ذلك العالم الذي لا يستطيع الذهاب إلى مكان، يتبلور عالمه الآن بين مركبه الفاخر والمقاطعة، وحتى لو ارتحل إلى مقاطعة نوح أو مقاطعة أطلانتس فنفس القوانين تحكمهم هناك ولا شيء سيتغير، هو عالم أكثر رتابةً ليس أكثر. انتهى حتى امتلأت معدته وهبط درجات السلم المُذهَّب نحو القاعة بالأسفل، حيث صورته مع الصقور، وقف ينظر إليها بسعادة ممتزجة بالحزن على رفاقه وأكثر

شيء أحبه بحياته، ومنها اكتسب اسمه صقر الذي بالمناسبة ليس اسمه الحقيقي، ولكن تيمُّنًا بأبنائه الذين لم ينجبهم. بسط يديه أمامه ولكنه تردد قليلًا ولم يعرف هل تردد لأنه سيقرأ الفاتحة لطيور أم لأنه مخمور وهو يقرأ الفاتحة أم لأنه لا يتذكر كلمات الفاتحة، فما عاد أحد يرددها.

ترامى إلى سمع صقر صوت ارتطام كبير أخرجه من شجونه وتأملاته، ظن في البداية أنه واحد من الحيتان قد اصطدم بالسفينة، تذكر كلمات أحد علماء البحريات في المقاطعة عندما تحدث معهم -وهو وأصدقاؤه سكارى- عن تضاعف أعداد الكائنات البحرية بعدما فقد الإنسان سطوته، فلم تنقرض الأحياء البحرية بل ظهرت كائنات جديدة تطفو إلى السطح، والأنواع التي كانت مهددةً بالانقراض زال عنها الخطر وعادت لتحتل المياه، وتحدث أيضًا عن كيف أصبح البحر الكبير أكثر نقاءً واستعاد رونقه، فلا قمامة أو تلوث يعكر صفوه ويزيد عكارته، حتى ظن صقر من كلماته أن ما حدث هو انتقام من البحر لآلاف الأعوام مما فعله الإنسان.

ولكن لم تمر لحظات إلا وانفتح الباب ليسقط جسد الحارس شاروخان مدرجًا بالدماء من عنقه، لم يمهل لحظات إلا وكان خطاف بحري أشبه بالرمح يخترق جسد صقر، أسرع من رمشة عين، ولكن الخمر لم يجعل صقر يدرك الألم أو الصدمة أو أي شيء وهو يرى إسكندر يتجه نحوه وينظر إلى عينه عسى أن يجد نظرة خوف أو فزع أو تضرع، ولكن لم يجد سوى عين خاوية من أي شيء.

- هل أتممت المهمة؟

صعق إسكندر من رد رجل على مشارف الموت، لم يكترث لحاله وإنما يسأل عن مجموعة طيور نافقة.

- لقد مات صديقي غوستافو ولم أعثر على جثته بسبب طيورك!

- مخطئ، وصديقك أيضًا مخطئ، لم يكن عليكما فتح الصندوق، خُلِقت الأسرار لتكون أسرارًا، لا تنكشف، لا لشيء آخر.

تقدم إسكندر خطوات وهو يكتم غيظه.

- مات صديقي الوحيد بسببك!

- كنت تعلم أنها مهمة خطرة وتعلم توابعها وعواقبها ووافقتما، فلا أعرف ما سر غضبك أو سبب قتلي، أتلومني على خطئك وتركك لصديقك؟!

استشاط إسكندر غضبًا وسدد لكمة إلى وجه صقر الذي سقط أرضًا وامتزجت دماء وجهه مع معدته.

- منذ يومين كانت معي فتاة رائعة شعرت بالسعادة معها إلى درجة أنني قررت منحها واحدةً من كنوزي وهي لوحة نادرة من عصور سحيقة دفعت فيها أموالًا طائلةً وحاربت أثرياء من بلدان كثيرة، أخذت كثيرًا من وقتي ومشاعري حتى أحصل عليها، أتعرف ماذا قالت الفتاة، قالت هل يمكنني مبادلتها بسجائر وبعض المياه؟ تساءلت وقتها، هل الفتاة رخيصة إلى تلك الدرجة ولا تدرك قيمة الفن أم إن العالم لم يعد به شيء نفيس وله قيمة؟! واليوم استيقظت مكتئبًا ولا أعرف السبب. أتساءل عن الهدف من كل شيء ولا أملك إجابة، أشكرك لأنك منحتني بطاقة رحيل من هذا العالم المائي الكئيب لأعبر إلى الناحية الأخرى، عسى أن أجد شيئًا جديدًا هناك، عسى أن أجد رمالًا وترابًا وصخورًا في العالم الجديد عوضًا عن الحديد الصدئ.

أغمض صقر عينيه لتحلق روحه إلى السماء أو لتغوص في أعماق البحار، والسفينة الفارهة تتشبع بالدماء.

نظر إسكندر حوله ويبدو أن قتلهم لم يطفئ أو يطيب سلواه، ثم طاف بعينيه في أرجاء السفينة وشعر أنها غنيمة مستحقة تحمل فوقها ألواحًا شمسيةً قوية لتوليد الطاقة مع مخزون لا ينضب من البنزين، وكحال البشر

الأوائل فالقتل لا يمر دون عقاب، وكذلك لا يمر دون غنيمة، وتلك السفينة ستصبح أفضل كثيرًا من مركبه الصدئ القديم بحاله التي يُرثى لها وبذكرى صديقه الراحل في كل مكان فيه، كأنه سيظل ملعونًا بذكراه.

وبعد أن تريث إسكندر والتقط أنفاسه، حمل غنيمته من الجثتين وألقاهما في مياه البحر حيث طعام جديد للأسماك من لحم البشر، ثم أدار دفة السفينة لتتجه به صوب بوسيدون التي تقع على بعد أميال قليلة، وفي طريقه ترك مركبه القديم بمكانه، فلا أحد سيسرقه، مثلما ترك جثتين في البحر وعاد والدماء تزين الطريق من موقعه حتى بوسيدون، ولطخت مقدمة السفينة وملابس إسكندر وكذلك روحه، حتى وصل إلى حرس المقاطعة الذين يعلمون جليلًا أن تلك السفينة تتبع صقر العربي، ولكنهم تعجبوا عندما وجدوا إسكندر المصري هو من يعتليها ويخرج أمامهم تكسوه رائحة الدماء.

علم الحرس ما حدث من الوهلة الأولى، علموا أن جريمة قتل حدثت وأن مسرح جريمة يسبح أمامهم، ولكن لا شيء ليفعلوه فالجريمة حدثت خارج حدود المقاطعة في البحر الواسع، وهناك لا سلطة لمقاطعة بوسيدون، فبالكاد يستطيع الجنود القليلون إحكام السيطرة على السفن العملاقة، فلا شأن لهم بما يحدث خارجها، سيطمثون أعينهم عن الجريمة وسيتغاضون عما حدث، ومثلما لا تسأل الأسماك بعضها عن طعامها فأيضًا لن يُسأَل عن مالك السفينة، فلهم فقط من يعلو سطحها.

وما إن أرسى إسكندر السفينة الفارهة بجوار السفينة العملاقة، اعتلى درجاتها وملابس الغوص خاصته تتساقط منها قطرات الماء والدم، لم يعد إلى كابينته بالسفينة بل اتجه إلى قلعة أفروديت، التي طارت لها الأخبار سريعًا عبر رجالها وأعينها من حرس بوسيدون، فهم يخبرونها دائمًا بعودة زبائنها الأثرياء لتستعد لهم بأجود أنواع المشروبات والنساء، ولكن تلك المرة أخبروها بعودة السفينة ولكن بمالك جديد غير مالكها القديم، فخدرتها

الدهشة عن فعل أي شيء من استعدادات القلعة. وبعد دقائق وصل إليها إسكندر يحيطه رجالها لحمايتها، وقد أدركت من الدماء أنه قتل صقر وشكرت البحر أنه لم يكن لديه أي فتاة من فتياتها، وإلا لكُنَّ قتلن معه، ولا تعرف أي ذنب قد اقترفه وأي عاصفة ألقت بأمواج إسكندر لديه.

- هل الطفل الرضيع ما زال عندكِ أم ألقيته إلى البحر؟

هزت أفروديت رأسها بالإيجاب وعيناها معلقتان بالدماء المتساقطة منه.

- أريد الحصول عليه إذًا.

- أحضروا الرضيع.

أمرت أفروديت أحد الرجال فذهب على الفور ليجذبه من ثدي إحدى العاهرات، وفي لحظات كان الرضيع يقبع بين يدي إسكندر.

- هل منحتِه اسمًا؟

- لا، فقط نقول الرضيع أو ابن البولندية.

- سأمنحه اسم الراحل غوستافو سيصبح اسمه "ميجاس".

رحل إسكندر وهو يحتضن الصغير بين راحتي يديه، والطفل يبكي من رائحة الدماء المتسللة إلى أنفه، فقد أَنِفَ من تلك الرائحة ولم يستسِغها. أمرت أفروديت الرجال أن يبتعدوا عنه ويتركوا طريقه، فقد لوث القتل عقله، ولعله يريحها من قتل الصغير وينتحران كلاهما، فلا شأن لها الآن بما سيحدث. وعلى قمة السفينة البالغ طولها 124 مترًا، وقف ليلتقم خدَّ الرضيع الصغير ويتأمل قسمات وجهه المشابهة له أسفل نور القمر الذي رمى بنوره على صفحات المياه، ثم ردد شعار الصديقين إسكندر وغوستافو للمرة الأخيرة وليبدأ قصةً جديدةً مع الرضيع ميجاس.

نحن العاصفة
في البحر الهادي
نحن الرواسي
في البحر العاتي
نحن النسور في السماء
نحن القروش في البحر
نحن سادة البحار
وحتى تعود الأرض

البحر الكبير الشاسع الذي لا ينتهي

عام 2047

على مدار أيام ظل المركب بيجاسوس يشق عباب البحر، كان إسكندر قد عثر على كتيب داخل المركب وعرف عنه كل شيء منذ أن استولى عليه من قتل صقر ومساعده، أدرك أن المركب الذي بحوزته الآن مُصنَّع من عام 2019 بتكلفة وقتها بلغت 85 مليون دولار قبل أن تتلاشى تلك العملة، وعرف كل مشتملات المركب وغرفه عندما كان يتجول به بعد شهور من الحادثة، وأنه كان يحتوي على قاعة سينما وغرفة ساونا ومهبط للطائرات في أعلى الطابق الثاني وعشرات الغرف المتنوعة الاستخدامات، ولكن لم يعد لتلك الأشياء قيمة، وجل سعادته عندما وجد شرائط مدمجة مع جهاز لابتوب قديم بها مجموعة من أفلام مصرية وأمريكية قديمة، فكانت رفيقته في الليالي الطويلة ويستطيع شحن اللابتوب بسهولة من الطاقة الشمسية وتوليد الإنارة للرؤية وللأجهزة، وأيضًا عثر على بعض كتب تعليم اللغات وبعض الصحف

القديمة من مجال عكاظ والعين، رغم أن الصحف الورقية توقفت قبل الحرب العظمى بأعوام، وأيضًا مجموعة من الروايات لآرنست هيمنجواي ونجيب محفوظ، واليوم باتت كل تلك الغرفة لتخزين الطعام والطاقة المولدة من الطحالب البحرية، وكان يمكن أن يحصل على طاقة أكبر لو أن مجلس الحكم لبوسيدون شغَّل إحدى حفارات البترول عوضًا عن إقامة ماراثونات لسباق القوارب الشرعية لتذكير السكان بالرياضة أو بالأحرى لإعادة المراهنات من جديد.

أضفى إسكندر وابنه ميجاس البالغ من العمر 16 عامًا لمستهما الخاصة على المكان، بدأها إسكندر فيما كان ميجاس لا يزال يحبو، فألقى صور صقر ولوحاته إلى البحار أو استعملها للمبادلات، فكان لا يزال حمقى في المقاطعة يحبون اللوحات والفن وتلك السخافات، وحصل في المقابل على سجائر ومعدات غوص وغيرها.

ثم لم يعد يهتم بنظافة المركب وحوَّله إلى ما يشبه مزرعة خنازير، أو هو كذلك بالفعل، ففي إحدى المرات استطاع أن يبدل لوحةً قديمةً لليوناردو دافنشي مقابل أن يحصل على خنزيرين ذكر وأنثى من حاملة الطائرات التي تحولت إلى مزرعة ليربيهم في المركب، فيضمن تكاثرهم وحصوله على مورد من الطعام في حال نفاده، وأيضًا رفيقين يكسران الصمت بصوتهما العكر في العراك والتضاجع.

وما إن بدأ ميجاس في الحبو والسير على أخمص قدميه علمه إسكندر السباحة والغوص منذ نعومة أظافره، فصار سباحًا ماهرًا وغواصًا مثل والده عندما كان صغيرًا، وأعجب إسكندر بذلك حتى أنه صار يتعامل مع أسماك القرش والحيتان فأمسوا كأصدقاء، يعرفونه ويبجلونه وليس وجبة غداء بالنسبة إليهم. آمنَ إسكندر بنظرية دارون في التطور وأن البحر كان بداية

العالم ومنه نهايته، وأن جميع الكائنات تطورت من الأسماك، وأن البشر سيظلون يتطورون حتى يصبحوا في المستقبل أجناسًا هجينةً من البرمائيات، حتى إنه فكر كثيرًا في مضاجعة واحدة من الدلافين صاحبة الذيول المثيرة عوضًا عن نساء البشر، ولكنه طرد الفكرة من رأسه، ولكن تمنى لو أن يصبح ميجاس أول تلك الأصناف، وتذكر أنه في أثناء دراسته للغوص في الإسكندرية سمع عن قبائل تعيش بين إندونيسيا والفلبين تسمى "قبائل الباجاو"، وهي قبائل تعيش في أكواخ فوق المياه ويعملون بالصيد، وحياتهم تتمحور حول البحر، لذلك كانوا يستطيعون الغوص بشكل طبيعي دون أجهزة لمدة 13 دقيقة، حتى نما في أجسامهم وداخل رئاتهم ما يشبه الخياشيم، ولطالما قص تلك القصة على ميجاس آناء الليل وأطراف الظهيرة، لطالما تمنى أن يحيا وسط تلك القبائل، ولكن هل ما زال حتى الآن يتمنى تلك الأمنية أم أصبحت فرضًا لا مناص منه؟

- كم دقيقة حققت؟

أخرج صياح ميجاس والده إسكندر من غفوته ونظر نحو المؤشر الزمني ليرى كم قضى من وقت تحت المياه.

- سبع دقائق و40 ثانية.

سبح ميجاس بسعادة نحو سلم المركب وتسلقه، في لحظات كان شبه عارٍ إلا مما يستر خصره، وكان يمسك شيئًا بيديه.

- حققت 50 ثانية إضافية، هذا رائع! انظر على ماذا عثرت في الأسفل.

نظر إسكندر إلى ما حمله ابنه كغنيمة من البحر، وقد كان زجاجة بلاستيكية ممسوحة الكلمات، ولكن أغلب الظن أنها كانت لأحد المشروبات الغازية.

- في الغالب زجاجة بيبيسي بلاستيكية.

- قرأت في أحد الكتب أن البلاستيك سيكون آخر ما يتحلل في البحر، فهو يمضي أعوامًا طويلةً ليتحلل.

ابتسم إسكندر نصف ابتسامة باهتة ونظر إلى ميجاس الذي وقف ليرتدي ملابس تحجب الشمس عن جسده العاري.

- كم لغة صرت تتقن الآن؟

- الإنجليزية بالتأكيد والإسبانية والعربية التي نتحدث بها، وأحاول معرفة القليل عن الإيطالية.

- أريد منك أن تتعلم اليونانية أيضًا.

- وما الفائدة منها؟ معظمها لغات ميتة، فالجميع في المقاطعة يتحدثون الإنجليزية أو الإسبانية أو حتى لغة البحر التي يود المجلس الحاكم تعليمها للناس، إنها لغة حمقاء!

- اليونانية هي مهد الإسكندر الأكبر الذي بنى الإسكندرية. أتعلم، كان يوجد كثيرٌ من الكتابات اليونانية في الإسكندرية، فقد كان لهم جالية كبيرة هناك، وبعضهم لم يتركها حتى بعد وصول جمال عبد الناصر إلى الحكم، فقط نستطيع العثور على الإسكندرية عن طريق الكتابات اليونانية بجوار العربية والإنجليزية.

- هل ما زلت في ضلالك القديم؟!

ابتلع إسكندر إهانة ابنه وصمت، فمنذ وصل إلى سن المراهقة أصبح يقتطف من ثمار الرجولة، فتارة صوت غليظ مع شعر ينبت مع أعضاء تتضخم ومعها بعض من الجراءة والوقاحة وسلاطة اللسان، ومنذ ذلك الحين وإسكندر يعامله كرفيق درب وصديق، وليس أبًا وابنه.

- أتعلم أن اسمي واسمك هما اسمان يونانيان وليسا عربيين، وأن كلا الاسمين يتبعان نفس الشخص؟

- نعم، فالإسكندر الأكبر منشئ الإسكندرية اللعينة كان اسمه الحقيقي ميجاس ألكساندروس.

تلك المرة لم تمر مرور الكرام على مسامع إسكندر ويصمت، بل كانت نظرة منه كفيلة ليدرك ميجاس فداحة ما قال، فتفوه مجددًا غير عابئ بتبعِيّات ما قال:

- أبي أنت تبحث عن وهم، تقبَّل عالمك الجديد وانسَ القديم.

- هل ظللتك أوراق الأشجار يومًا؟ هل احتميت بها من أشعة الشمس؟ هل سمعت حفيف الأشجار والريح تمر بينها؟

أشار ميجاس بالنفي.

- هل لمست التراب بيدك؟ هل صنعت بيوتًا من الرمال؟ هل شممت رائحة الورد وهي تخرج من الأرض؟

كرر ميجاس نفيه برأسه.

- توجد أشياء لن تفهمها يا بني، لن تعرف مدى قيمتها سوى بعد خسارتها مثلما حدث معي. الأمر أكبر بكثير من مدينة قديمة غطاها البحر، إنها أصعب من وصفها بالكلمات، فتلك الأشياء يجب أن تراها عيناك وتلمسها يداك ويستشعرها قلبك لتعرف قيمتها. ما فائدة أن أحكي لك عن بريق الذهب إن كنت لن تراه يومًا؟! ولكن أتعلم شيئًا، يمكنني أن أريك جزءًا بسيطًا.

- كيف هذا؟

قالها ميجاس في تعجب في حين هتف إسكندر في حماس:

- سأريك مدينة الثلج.

اتجه إسكندر إلى قمرة القيادة وأبحر بالسفينة مبتعدًا بمئات الأميال، وميجاس بجوار أبيه ينظر حوله لا يرى شيئًا سوى الماء، أما عين إسكندر فتطلع إلى الخريطة الإلكترونية، يتجه نحو الشمال، وظلا هكذا لساعات مرت

كسنوات على ميجاس الذي يرغب في معرفة سر سعادة أبيه غير المبررة وهما يبحران في البحر ولا شيء جديد، حتى أنه لم يرغب في السؤال أو الاعتراض حتى لا يفسد تلك المتعة، ولكن سرعان ما بدا شيء ما جليًّا فوق البحر. نظر ميجاس ليحاول معرفة الشيء الذي يضاهي طول السفن، ولكن لم يتبين من ملامحه سوى أنه أبيض، وما كادا يقتربان أكثر حتى ظهرت ملامح الأشياء البيضاء، وحين اقترب إسكندر منها بالشكل الكافي أوقف محركات المركب واتجه هو وابنه إلى الخارج ليتأملا المشهد.

- هل تعرف ما هذا يا ميجاس؟

- بالطبع يا أبي، كتل جليدية، لست في حاجة لأولد على الأرض لأعرفها، إنها ماء أيضًا ولكن في حالة صلبة.

- تلك الكتل تنتشر في الشهور الباردة، ليست بعيدةً عن المقاطعة لكن تحتاج إلى ساعاتٍ لتصل إليها. لقد اكتشفتها منذ سنوات، إنها من ضمن أشياء كثيرة اكتشفتها في مغامراتي مع البحر، جئت أنا وغوستافو مراتٍ عدة في أثناء بحثنا عن كندا.

- هل هكذا كان شكل الأرض قبل أن تغرق؟

- الأرض لوحة ألوان يا بني، لا يوجد عليها أبيض فقط، بل كل الألوان؛ الأصفر والأخضر والأحمر، الصخور والورود والتراب والرمال. الأرض ليست باردة، بل حارة ودافئة ورعدية ومطيرة، ليست كل أيامها من الجنة وليست دائمًا جحيمًا، حتى البشر كانوا أكثر سعادةً وحياةً عليها لأنهم خُلقوا ليكوّنوا جنسًا أرضيًّا وليسوا برمائيات، ليتني كنت أستطيع أن أريك الأرض الحقيقية وليس مجرد كلمات أو صور في كتاب.

- أريد أن أبحث معك يا أبي.

نظر إسكندر إلى ابنه بسعادة، وكان ميجاس بدوره مبتسمًا رغم ارتجافه من البرودة.

- نعم يا أبي، أريد أن أساعدك في البحث عن الإسكندرية، عن رفات عائلتك، عن ماضيك وذكرياتك التي هربت منها في الماضي، وليس من أجلك فقط، بل لأن الحياة مملة جدًّا في البحر، ومن الرائع أن نجد مكانًا جديدًا لنستعمره. والآن هل يمكننا التحرك للحاق بوقت ماراثون البحر؟

عاد ميجاس إلى داخل المركب فيما وقف إسكندر يبتسم للثلج الأبيض وهو يتخيله وقد نبت عليه ورد وأشجار تُناطح السماء وتبتلع ماء البحر.

- سأعثر عليكِ يا إسكندرية قريبًا.

***

صوت الزخم والصخب يدوي من على أميال بحرية، استمع له بوضوح كل من إسكندر وميجاس وهما عائدان بعد غياب قرابة أربعة أشهر في غياهب البحر المترامي، بعد كل تلك السنوات ما زال الجميع يكن الحسد والحقد وأيضًا الذعر من إسكندر لاغتصابه سفينة الثري الخليجي بعد قتله هو ومساعدته وصار الجميع يوقره ويبجله، وأيضًا يستكثرون عليه ذلك المركب الرائع الذي يستطيع به الحركة بحُرِّية في البحر بطاقة الشمس، ورغم أن البحر يتشابه في كل مكان فإنك تكون محاطًا بعدد من السفن لا تستطيع أن تبرحها ولا حتى السفن نفسها تبرح مكانها، فما يعيشه إسكندر وابنه هو قمة النعيم وأكثر الرجال حظًّا في العالم، حتى إن النساء في كل الحانات وحتى الزوجات المخلصات يعرضن أنفسهن عليه هو وابنه البالغ حديثًا حتى يحظين برحلة بعيدة عن بوسيدون والغوص معه إلى العالم القديم تحت البحر. كان إسكندر يدرك كل ذلك وهو يقترب من مرفأ بوسيدون المطور حديثًا، وكانت السفن الشراعية متوقفةً ويوجد مركبة واحدة تحمل علم النصر ذا الأحمر القاني الممزوج برسمة بوسيدون سيد البحار.

- لقد انتهى الماراثون للأسف، ويبدو أن إيفان الروسي هو من فاز بالسباق، أخبرتك يا أبي أن تسرع قليلًا في العودة!

زفر ميجاس في حنق من نهاية الماراثون في دورته الجديدة، وقد كان يطمح إلى رؤيته كأي شيء يكسر ملل الحياة في بوسيدون.

ابتسم إسكندر وعقب بعد لحظات:

- إنهم يبحثون عن متنفس للمتعة، والمجلس الحاكم سيعقدها كل شهر، وقد تنافسهم في الدورة المقبلة، علينا فقط صنع مركب شراعي رائع يجعلك تفوز وسنصنعه بالألوان الأربعة لعلم مصر؛ الأبيض والأحمر والأصفر والأسود.

- تعلم أن المجلس الحاكم منع منذ سنوات الأعلام وما يشير إلى دول عالمكم القديم، حتى إن الألقاب كالروسي والمصري والصربي وكل هذا ممنوع الآن، ومن يسمعه حرس البحر يتفوه بتلك الألفاظ يوقعون عليه عقوبات صارمة.

- وأيضًا تعلم أن أباك لم يحترم القوانين يومًا، لا في العالم القديم ولا في عالمكم هذا!

أكمل إسكندر طريقه نحو مرفأ بوسيدون، وابتسم ميجاس من غبائه، فعلى مدار سنوات غادرا وعادا إلى المقاطعة ولم يعاقبا قط على العلم المرفرف ذي الأزرق والأصفر وبداخله منارة في مؤخرة المركب.

***

تلك المرة لم يعد إسكندر وابنه إلى غرفتهما في سفينتهم كالمعتاد، ولكنهما انتقلا إلى غرفة أكبر في السفينة السابعة بالمقاطعة، وهي الأكبر والأضخم وهي "أعجوبة البحار"، التي يبلغ طولها 362 مترًا وترتفع 18 طابقًا،

وكانت واحدة من أكبر البواخر السياحية التي كانت تشق عباب البحار في العالم، حتى مكثت إلى مثواها الكبير مستقرةً في موقعها الحالي وأُنزِلت مرساتها إلى الأبد. ورغم أن وقت تصميمها كانت قدرتها الاستيعابية 6988 راكبًا، مع 2300 شخص من أفراد الطاقم، فمنذ الكارثة يحيا عليها نحو 20 ألف شخص، وصل عددهم اليوم إلى 18 ألف شخص، جراء من مات ومن انتحر، وسيظل العدد يتناقص بعد القرار المبرم من المجلس الحاكم بالفرض على الأزواج والعشاق عدم إنجاب أكثر من طفل واحد بسبب الوباء الذي تفشى باسم "سرطان السمك"، وجعل الجميع يتهافت على أكل الثروة الحيوانية المتبقية على حاملة الطائرات "A-3"، مما جعل الأرانب تنقرض إلى الأبد، ولولا سيطرة حرس البحر وإغراق أكثر من 400 رجل وامرأة للسيطرة على الجوعى لكانت الفراخ والخنازير انقرضت هي الأخرى. وبعد مرور الجائحة أرسل المجلس الحاكم عددًا من الجنود في موكبين إلى مقاطعة نوح ومقاطعة أطلانتس، وجلبوا بعض الإمدادات، ولكن لمرور أشهر حتى وصولهم أدى ذلك إلى تفاقم الأزمة وموت الكثيرين، وفقدت المقاطعة ما يقرب من ثُمن سكانها في الكارثة.

- أتعلمون، كنت من أوائل من سمعوا وشاهدوا الضحية الأولى لسرطان السمك، تلك السيدة من تكساس التي تناولت السمكة المسمومة ونقلت المرض، وعند العودة إلى غرفتي وجدت زوجتي قد انتهت من إعداد الطعام وكان سمكة بنفس المواصفات التي قالوا عنها إنها المسببة للمرض من شكل القشور والحجم وغيرها، فقررت أن أكون زوجًا عطوفًا رائعًا لمرة واحدة في حياتي.

- هل قذفت السمكة وأخبرتها أنها مسممة لتنقذها؟

- لا بل أخبرتها أن تأكلها بمفردها وضحيت بنصيبي، ظنت أني زوجٌ مُضَحٍّ،

ولكن كنت أريدها أن تموت أسرع!

انفجر جميع الجالسين في الحانة من الضحك حتى من كانوا يجلسون بعيدًا، فصوت الرجل العالي في حكي قصته جعل الجميع ينصت له في عالم لا شيء ممتع فيه سوى سماع القصص، حتى إسكندر وميجاس ضحكا بقوة وهما يجالسان أصدقائهما وأيديهم ترتفع بالكؤوس.

- تلك المرة الأولى التي أجلب فيها ميجاس ابني إلى حانة الفايكنج هنا في السفينة.

- هل الفايكنج هؤلاء تلك الشعوب الدموية التي كانت تقطن في السويد والنرويج والدنمارك؟

نظر الثلاثة أصدقاء بعضهم إلى بعض بسخرية وضحكوا، حتى صاح أحدهم:

- ما زال معلمو البحر يعلمون الأطفال أن الأرض كانت مذبحًا كبيرًا للدماء. ألم يخبرك المعلمون قط بأي شيء إيجابي، مباريات الركبي أو مهرجانات الطماطم الفاسدة أو أي شيء رائع؟!

- ميجاس دعك من هذا، أقدم لك الغواصين أصدقائي، الكندي ويليام والصيني وان تشان.

- أهلا بكم.

- إنه رائع يا إسكندر، المساعد المثالي والابن البار، لقد أصبح طوله يقارب طولك، تنفرد هامته فيما ينحني ظهرك يا صديقي العجوز! إنه يذكرني بصولاتك مع الراحل غوستافو، لينعم بسكون البحر!

أنهى ويليام كلماته ولم ينتبه إلى وقع كلماته على إسكندر الصامت وابنه الذي نظر إليه وهو يدرك أنه لا يجب التحدث كثيرًا عن غوستافو ولا يعلم عنه سوى معلومات قليلة يبوح بها أصدقاؤهم السكارى.

عاد الكندي مجددًا ليتكلم ويغير دفة الحوار:

- كان يجب أن ترى أباك وهو شاب في معركة تيتان وهو يدنو إلى أعماق البحر لينتزع جثث الأمريكان والصينيين بيد واحدة، يذكرني بذلك الفيلم عن الجندي الأمريكي اللعين، نسيت اسمه، هذا الفتي الذي صنع دور الرجل العنكبوت، فكنت أنا أنقذ الأمريكان فقط وأترك الصينيين لتأكلهم القروش، في حين أن الحقير الصيني بجواره كان ينقذ الصينيين فقط ويتبول على جثث الأمريكان.

هنا غضب الصيني وان تشان ونظر إلى صديقه الكندي.

- كنت أفعل ذلك لأنكم من أشعلتهم الحرب وجعلتمونا ننتهي إلى هذا المطاف!

كان صوت تشان قد بدأ يعلو ويجذب أنظار من كانوا يتضاحكون منذ لحظات، وذكرى الحرب الكبيرة لا يحب سمعاها أحد ولا يتذكرها أحد، ولو همس أحد الهامسين إلى مسامع حرس البحر فسيلقون بهم غير آسفين إلى ظلمات الماء.

- أصدقائي يجب أن لا نذكر ذلك، رجاءً هدوءًا لنحتفل بميجاس ولنشرب نخب من ماتوا من أجل لا شيء.

هنا نسي الجميع الماضي وتبدد العبوس بابتسامة باهتة.

- نخب البطل ميجاس الذي قضى سبع دقائق وخمسين ثانيةً تحت الماء.

شرب الجميع حتى ميجاس الصغير شرب معهم، وتأمل الأكواب الزجاجية الضخمة وشكل المكان الذي يحمل طابعًا قديمًا مكسوًّا بالخشب العتيق، وبعض رؤوس الحيوانات المحنطة والأسماك القديمة تعلو المكان كأنها حانة من العصور الوسطى للأرض، وبعد أن أنهى الجميع المشروب صاح ويليام الكندي:

- صحيح، هل عرفت بأمر النبوءة يا إسكندر؟

هز إسكندر رأسه في نفي، فطوال أشهر كان يمكث في البحر ولا يعرف آخر المستجدات، فابتسم ويليام بخبث لمعرفته بتأثير وقع تلك الكلمات على مسامع إسكندر.

- على واحد من اليخوت الفاخرة، أمثال مركبك يا سيد إسكندر، كان واحد من جنيرالات حرس البحر، وكان معه فتاة من العاهرات تدعى لونا من جنوب إفريقيا، قضت معه ومع أصدقائه هي وبعض العاهرات بضعة أيام خارج المقاطعة، سمعت تلك الفتاة الجنيرال وهو يتحدث عن أن أحد الأقمار الصناعية -التي لم تسقط بعد وما زالوا يتحكمون بها- عرفوا منه أن أرضًا بدأت تظهر إلى السطح، وأن تلك الأرض ستحتاج إلى 40 عامًا حتى تكون جزيرة صغيرة على البحر وستكون أول مستعمرات البشر على الأرض مجددًا، وفور أن عادت الفتاة وقالت ما قالت انتقل الخبر بين السفن وبعضها وفي كل أرجاء المقاطعة، حتى أن صداه تردد في أرجاء البحر فوصل إلى المقاطعات الأخرى، ومنذ ذلك الحين وتلك الفتاة مختفية ولا أحد من أصدقائها يتكلم عنها أو أنهم كانوا يعرفونها من الأساس، كأنها نسيان منسي، ويبدو أنها الآن في أعماق حوت عملاق.

أنهى ويليام كلماته وهو بالكاد يستمع لصوته، فتلك الكلمات لا يجب أن يتفوه بها أمام الجميع، ولكن لم يلحظ أي تغير على ملامح إسكندر كأنه غير عابئ بما تحدث به.

- هل كنت تستمع حتى لما أقول؟

- استمعت يا ويليام وغير عابئ بما قلت، أظن أنك تهلوس مما تشرب، وحتى لو كان حقيقيًّا، فبعد 40 عامًا ستكون جثثنا متحللة في الماء أو ستتغوطها إحدى الأسماك في البحر، فلا داعي إلى تصديق حرف مما قُلت.

هنا كانت المرة الأولى التي أيّد فيها تشان صديقه اللدود ويليام، وقال:

- كنت أتمنى لو أُكذِّب الحقير ويليام كعادتي، ولكن الشائعة طفت على السطح، وحتى في عالمنا الجديد توجد مسلمات نعرفها جميعًا، إن الشائعات التي يكذبها الحكام هي الحقيقة الوحيدة دائمًا. بالتأكيد لن يرى أحدنا عودة الأرض مجددًا ولكنها فرصة سارة ليلحق نسلُنا رؤية الأرض التي نشأ ووُلد عليها الآباء ومهد الأجداد ومستقرهم. لو كان لي ابن لوصيته بكثير من الأشياء، أولها أن يأخذ رماد جثتي لينثرها على الأرض بدلًا من أن تأكل أعضائي المتحللة الأسماكُ الشرهة.

- أنت محظوظ يا ميجاس، ستتسنى لك الفرصة لرؤية الأرض مجددًا، وإسكندر أيضًا محظوظ، ففي العالم الآخر سيسعد بقصص ابنه له عن الأرض من جديد، في حين أنا وتشان لن يذكرنا أحد عند العودة.

- أتعلم يا ويليام، في وطني بالصين في الماضي كان لعائلتي إيمان تام بفكرة تدعى "ويشوان"، وهي أنه يمكن للأب توريث روحه إلى ابنه فيحيا بجسده فقط، وعلى الابن أن يحيا كأبيه وعلى دربه، لذلك كان أبي وجدي يحاولان جعلي مثلهما، ولكنهما عشقا العمل بالزراعة والامتثال للشيوعية، أما أنا فقد كنت أعشق البحر والحرية مثلك يا ويليام ومثل إسكندر، هذا العالم نجا فيه الطموحون الذين عشقوا الحرية والبُعد عن قيود الأرض، والآن نبكي ذكرًا فقط لنعود إليها مجددًا حتى لو أمواتًا.

ما إن أنهى تشان كلماته أنهى إسكندر زجاجة خمر، فيما تجرع ميجاس ثالث أكوابه.

- يبدو أنكم ثملتم كثيرًا حتى صرتم تهلوسون! لقد قضيت أشهر طويلة في أعماق البحر أنا وابني، وها قد احتفلنا به، والآن يمكننا الرحيل وترككم مع شتات أفكاركم، هيا بنا يا ميجاس.

ترك إسكندر الكوب ووضع عددًا من سجائر التبغ النقي في المقابل مع ساعة من نوعية روليكس معطلة، وغادر خلفه ميجاس، فيما جلس صديقاه لم يبرحا موقعهما، ليصيح ويليام:

- تريد أن تصدق يا صديقي، وأيضًا تخشى أن تصدق، ولكنك ستعرف الحقيقة بنفسك.

غادرا الباب الحديدي للحانة، والقمر في غمد السماء والشمس تبزغ بالنور، وبجوار الحانة مدرسة يُقبِل عليها قليلٌ من الأطفال، وداخل غرفة كبيرة تقف معلمة بملامح وسط آسيوية تستقبل الأطفال القادمين بملابس الأطفال الشائعة، وهي من الصوف المبطن بجواكت الإنقاذ، يرتدونها دائمًا صيفًا وشتاءً، تجنبًا لكوارث البحر من العواصف والموجات الضخمة التي يصل طولها إلى أمتار في الغالب، وحتى لا يسقط أحد الأطفال، ولو سقط فيمكنه الطفو على الماء حتى ينقذه حرس البحر.

كانت عين إسكندر معلقة معهم فيما حكَّ ميجاس وجهه وتثاؤب في كسل وقال:

- هل ستذهب لتخلد إلى النوم أم أذهب أنا إلى الغرفة؟

- اذهب أنت يا ميجاس، أريد المكوث قليلًا.

غادر ميجاس وهو يترنح جرّاء ما شرب، وانتقلت عين إسكندر بين النظر إلى أسفل حيث البحر الذي يبتعد بأمتار كثيرة، فالحانة تقع في الطابق السابع بالسفينة. استند إلى السور الحديدي حتى انتهى الأطفال من التوافد، ولكن يسهل عليه رؤية ما يقع بالداخل، فعلى عكس الحانة كانت غرفة المدرسة بواجهة زجاجية تعكس ما يجري داخلها، فجذب الفضول إسكندر ليطالع ما يحدث ويعرف ما المناهج وعن أي دولة قديمة اقتُبِسَت.

فور دخول الأطفال وجلوسهم على الأرض أظلمت المعلمة الأضواء

وشغلت شاشة عرض تعرض مواد على الحائط مهترئة وقديمة، وتعمل لثوانٍ وتنطفئ لثوانٍ، ولكنها منحت إسكندر رؤيةً أفضل في الظلام ليتأمل ملامح الأطفال، حتى إنه كان يسمع همساتهم وتغامزهم من ثقب في الزجاج، فيما ارتسمت الجدية على ملامح المعلمة.

- اليوم سنحكي الفصل الأخير من الشر والمأساة التي عاشها البشر على منبع الشر المسمى بـ"الأرض"، حدثتكم في الأيام الماضية عن كل الحروب التي ولَّت، بدايةً من حروب القرود مرورًا بالحرب العالمية الثانية، واليوم سنتحدث عن الحرب العظمى التي شنَّها البشر.

شاشة العرض خلف المعلمة تعرض مواد دموية بشعة لقنابل وصواريخ وغازات ومعسكرات تعذيب، وكل أنواع المعارك البرية والجوية، ولكنهم لم يعرضوا أي معركة بحرية، وتعجب إسكندر كيف يعرضون تلك المواد العنيفة لأطفال صغار، ولكن الأكثر حيرة أن لا أحد من الأطفال اشمئزَّ مما يُعرَض أو حتى أبعد عينيه، كأنهم يشاهدون رسومًا متحركة، حتى إن بعضهم كان يشعر بنشوة وهو يشاهد لتدخُّل المعلمة بكلماتها.

- الحرب العظمى بدأت عام 2030، في ذلك العام شهد البشر أعظم تطور لها، فقد عثروا على علاج للسرطان وطوروا الصواريخ الفضائية حتى تصل إلى سرعات الضوء التي كانت مستحيلة في الماضي، أيضًا طوروا استخدام طاقة الشمس والرياح. تلك هي آثارنا المتبقية من الأرض والهبة الأخيرة التي أبقينا عليها لتظل السفينة تعمل بالكهرباء حتى بعد توقفها. كذلك التقدم المذهل في علوم الزراعة والتربية الحيوانية التي يعمل عليها علماؤنا في سفينة المرعى ليحافظوا على تنوع طعامنا وعدم انقراض ما تبقى من الحيوانات والنباتات، ولكن مع كل ذلك التقدم العظيم لم تُنسِهم الأرض تعطشهم للدماء وتقاسم الأراضي والدول، وكل تلك المصطلحات التي لا قيمة لها الآن، فحدث أن

أصبحت الصين القوة الأعظم في الشرق عوضًا عن روسيا التي أنهكتها حربها مع أوكرانيا وتكتُّل حلف الناتو ضدها، ولم تكتفِ الصين بذلك، بل طالبت بأموالها وقروضها ضد أمريكا، الأمر الذي أغضب الولايات المتحدة الأمريكية فهددت بالتصعيد ضد التنين الصيني، وفور ذلك بدأ كل منهم بجمع الأتباع والحلفاء وتعاونت آسيا، وفي المقابل أوربا وأمريكا وبعض الدول تشبثت بالحياد. ورغم اتفاق جميع الجهات على عدم استخدام القوى النووية في الحرب فقد استخدموا أسلحةً أكثر بشاعةً وتدميرًا، ومنها أسلحة الطقس وأسلحة الزلازل والبراكين والكهرومغناطيسية، استخدموا قوة الأرض في صنع أسلحة تنشط زلازلَ عملاقةً تصل إلى 9 ريختر وتنشيط براكين خاملة منذ مئات السنين، ومعها تضاعفت أمواج التسونامي مع ذوبان كامل القطبين الشمالي والجنوبي. أيضًا نتيجةً الإشعاعات والانبعاثات أدى ذلك إلى ثقوب في الغلاف الجوي نفذت منه كوارث فضائية، وانتهى الأمر بنيزك عملاق ضرب جنوب آسيا، كل ذلك الدمار خلف مجموعة من أمواج المد والجزر العاتية التي قضت تمامًا على القشرة الأرضية لتبدأ في الغرق تحت البحار والمحيطات. ومن أكثر من 10 مليارات كانوا يقطنون الأرض، نجا في النهاية أقل من 70 ألف إنسان يعيشون في 3 مقاطعات بحرية، تضم كل مقاطعة مجموعةً من السفن العملاقة، وهم بوسيدون التي نحيا عليها وتقع غرب الكوكب المائي، ومقاطعة نوح شمال الكوكب المائي، ومقاطعة أطلانتس في الشرق، واليوم نحيا بعدما تلقت البشرية عقابها الإلهي الذي استحقته. منذ قرون طويلة عاقب الله الأرض محطَّ الآثام بالطوفان العظيم جراء شرور البشر، وفي البحر عاش الصالحون جنبًا إلى جنب مع الحيوانات والطبيعة، ولكن ما إن عادوا إلى الأرض عاد القتل والدم، واليوم نعود إلى البحر مجددًا لنشكر الأرباب أو البحر على منحنا تلك الفرصة للعودة والتخلص من الأرض منبع كل الشرور والآثام.

لذلك يا أطفالي، ما عدونا الأكبر؟

- الأرض!

صاح الأطفال بقوة كأنهم نازيُّون يستمعون لخطبة عصماء من أدولف هتلر.

استشاط إسكندر غضبًا مما يسمع، إنهم يعلمون الأطفال أن الأرض شر وأن الجحيم الملل الذين يحيون به أكثر سعادةً من الحيوات السابقة، إنهم ضحايا لم يعرفوا قيمة اللعب على الأشجار، لم تتسخ أيديهم بالتراب والوحل، لم يبنوا بيوتًا من الرمال أو تحملهم الدرّاجات على الأرض المستوية، إنهم لم يعرفوا أن الأرض التي تلعنها المعلمة هي النعيم الذي لم يدرك قيمته إلا بعد زواله. لو شاهد هؤلاء الأطفال المدنَ والشوارعَ في الإسكندرية لأدركوا أنها كانت دربًا من دروب الجنة.

كاد إسكندر يكسر الزجاج بيده من الغيظ، ولعب الخمر بعقله، ولكن لم يكن بيده شيء ليفعله، فكيف ستخبر أحدًا بمذاق السعادة إن لم تستطع أن تجعله يتذوقها يومًا؟! لينموا في مخادع الوهم ويحمدوا الإله على حياة البحر الذي لم يُدنِّس بخطايا البشر الآثمين.

غادر إسكندر نحو غرفته وكان التعب يثقل كتفيه والنوم يغفو بجفنيه، أما الأطفال فيبتسمون لأنهم وُلدوا في العصر الأكثر حظًّا وصلاحًا!

***

ظل إسكندر نائمًا لأكثر من 20 ساعة، وكانت شمس يوم جديد تصبغ لونها الأصفر على السماء، استيقظ إسكندر وكان الضغط على رأسه شديدًا، كأنه سقط في خندق ماريانا حتى اصطدم بكل ما يقابله. لم يجد ميجاس في الكابينة الصغيرة ولكنه وجده بالخارج يقف على سور السفينة العاتية الارتفاع

كجبل أبيض يقف في البحر الهائج.

- ما الذي جعلك تستيقظ باكرًا يا ميجاس؟

- لقد نمت واستيقظت ونمت واستيقظت مجددًا، أنت يا أبي من سقط في سبات عميق، لقد تجاوزت يومًا كاملًا نائمًا!

حك إسكندر عينيه التي صفعها نور الشمس بقوة، ففي حياته اعتاد الابتعاد عن ضوء الشمس وحيدًا في أعماق المياه لا يحمل سوى كشافات ضوء صغيرة ترشده في طريقه وخبرة متمرسة في التعامل مع وحوش البحر أكسبته صداقتهم على مدار حياته، فلم يألف الشمس قط. ومع صمته وانتظار عينه لتتأقلم مع الشمس عاد ميجاس ليعقب مجددًا.

- متى سنعود لنبحر؟ لقد مللت البقاء على هذه السفينة!

ابتسم إسكندر ابتسامةً امتزج فيها الإعجاب مع الاستهزاء أنه يماثله تمامًا في حبه للمغامرة والإبحار ولا يرنو للراحة والحياة المملة، ورغم أن دوره كدور غوستافو يتمثل في البقاء على السفينة للحماية والمساعدة وأعمال الملاحة، ففي القريب سيصبح هو الغواص وإسكندر يُعدِّه لذلك، فصدره العجوز لن يتحمل سنواتٍ أكثر في أعماق البحر، وبحثه عن الإسكندرية تحت الماء يجعله عرضةً لأشياء كثيرة، أقلها أن يعلَقَ في ركام المدن والقارات الغارقة، وقد أثبت ميجاس أنه يمكنه الغوص دون معدات لدقائق، ومع المعدات التي يملكها سيصبح ميجاس أكثر كفاءةً منه.

- وما الذي لا يعجبك في سفينة أعجوبة البحر؟! إنها أكبر بمئات المرات من مركبنا، إنها أكثر براحًا من المدن الأرضية.

ضحك ميجاس بسخرية وبصق في الماء ليزيد معدل البحر بضعَ بوصاتٍ غير مرئية.

- المكان هنا ممل جدًّا ومكدس بالناس! الجميع هنا كالأسماك، يتزاحمون

ويعملون أعمالًا رتيبةً على هذه السفينة، وفي النهاية يحصلون على حصص قليلة من الطعام، وفي الغالب نفس نوع السمك الذي تصيده المقاطعة كل يوم، والماء هنا مكرر بشكل سيئ، لوهلة تشعر بطعم الملح فيه، سأكون أكثر سعادةً لو شربت بَولي، أفضل من الماء المُقطَّر هنا! الخنازير في مركبنا الضئيل أكثر سعادةً من هنا.

تفهم إسكندر لمَ يعلِّمون الأطفال تلك الكلمات البائسة حول بشاعة الأرض وعظمة الحياة، ليتقبلوا مخدر تلك الحياة، وأنه هو وابنه وأمثالهما من مغامري البحر يحظون بجزء بسيط من المتعة الحقيقية.

- سنرحل في القريب العاجل، فقط ستقضي اليوم هنا فيما سأصطحب المركب إلى مرفأ سفينتنا القديمة "تي-88" لأنهي بعض إصلاحات المركب وأجلب بعض المعدات الجديدة.

- ولماذا لا تصطحبني معك؟

- سأقابل بعض الأصدقاء القدامى هناك، وأشعر أنك لا ترتاح في المكوث معهم. اقضِ أنت يومك بمفردك، أنت الآن مراهق يمكنك أن تذهب إلى ملهى السفينة بمفردك أو تفعل ما يحلو لك.

غمز إسكندر بعينه لابنه المراهق كإشارة ليفعل ما يحلو له، وأيضًا لرغبته في الذهاب بمفرده، ولا حل لذلك سوى بمداعبة خيالات مراهقه الصغيرة الذي أصبح يملأ ملابسه بالمني الأبيض ولا شيء ليخاف منه على ابنه، فمنذ هلاك الأرض انتهى معها وجود المثليين والمتحولين جنسيًّا، فقواعد المجلس الحاكم صارمة بذلك الشأن، فالبعض يرى أن امتلاء الأرض بهم كان جزءًا من الغضب المحلق بها، ورغم أن معظم السكان حاليًّا قد زهدوا الأديان والإله فبعض المسلمات بقيت لديهم، ولو استطاع المجلس الحاكم لمنع الجنس بالكامل حتى بين المتزوجين، فلا حاجة إلى إنجاب أبناء جدد

واستهلاك موارد جديد عليهم، حتى لو انتهى ذلك بانقراض البشر نهائيًّا، فصار الجنس من المحرمات التي تدار في ضيق الحدود، ولولا خوفهم من توليد ذلك للعنف والكبت لأصدروا أمرًا بمنعه نهائيًّا بين الجميع.

لم تمر دقائق حتى غادر إسكندر الغرفة وبقي ميجاس يفكر في ما سيفعله الليلة وأي الأماكن سيرتاد وماذا سيرتدي. وحين وصل إسكندر إلى المرفأ الحديدي المجاور لأعجوبة البحر وجد مركبًا بين عدد من المراكب والفرقطات العسكرية، ولكنه كان أجملهم رغم عدم اعتنائه بها. طلب إسكندر الإذن من قوات بوسيدون (حرس البحر) في التوجه إلى السفينة الثانية "تي-88" ووافقوا على الفور. في الطبيعي عندما يريد شخص أو مجموعة أشخاص التوجه إلى واحدة من سفن المقاطعة وهم لا يملكون سفينةً فهم يأخذون الإذن لتنطلق بهم أحد الفرقطات أو السفن التابعة لقوات بوسيدون، وقد ينتظرون لدورات قمر كاملة للموافقة والتضحية بأشياء ثمينة لفعل ذلك، لكن أمثال إسكندر مما يملكون مراكبهم الخاصة لا أحد يوقفهم، بخاصة بعد مرور سنوات على حادثة قتله لصقر، والجيل الجديد من القوات لا يعرف قصة إسكندر ويظنونه واحدًا من السادة القلائل في عالم البحر.

اصطحب إسكندر مركبه الفاخر وانطلق في مسافة ميلين بحريين يفصلان بين سفينة أعجوبة البحار و"تي-88"، ورغم أنه لو سلك قلب الدائرة التي تفصل بينهم لكسب وقتًا كثيرًا، فإن قواعد المقاطعة تمنع السير وسط الدائرة، لذا عليه أن يدور من الخارج ليصل إلى مبتغاه، ولكنه احتاجَ إلى وقت أطول حتى يصل إلى مرفأ سفينته القديمة "تي-88"، وهناك استقبله معظم القوات التي لم تتبدل وجوههم وما زالوا يعاملونه باحترام يشوبه احتقار، فهم من يعرفون حقيقته وحقيقة مركبه الذي حصل عليه غنيمة قتله. حين فرغ إسكندر من وضع مركبه في موقعه في المرفأ كان داخل طرقات السفينة

العملاقة التي لا تضاهي حجم أعجوبة البحار ولكن تظل مهيبة الحجم، وعرف طريقه نحو غرفة طرقَ بابها ففتح له شاب مكسيكي خلفه أندرياس العجوز.

- أندرياس العجوز، هل اشتقت إليّ؟

اتجه أندرياس نحوه دون ملامح على وجه حفر عليه الزمن أخاديد تعاقب السنوات.

- بعد 9 ساعات عُدْ لتستلم المركب، لو أنك أرسلت رسالةً مع قوات بوسيدون منذ أيام لكنت استعددت بشكل أكبر للصيانة وانتهينا في وقت أسرع، ولكن الرسالة وصلت أمس مع مئات الرسائل في بريد المقاطعة.

- خذ وقتك، سأنتهي من بعض الأشياء على السفينة، ومن الرائع أنك استعنت بشباب لمساعدتك أيها الميكانيكي العجوز!

- مثلما تستعين أنت بابنك أيها الغواص المغامر العجوز!

- حسنًا، انتهِ من الصيانة والمفاتيح معك، أريد صيانةً أيضًا لجهاز الملاحة البحرية وقمرة القيادة والماتور، وإن أردت أي شيء فأرسل إليّ أحد رجالك لدى السيدة دكوكو الصقلية.

ابتسم العجوز في استهزاء.

- وهل تظن أنك بعد سنوات من القطيعة وقتل ضيفها العربي الذي أوصلتك به ستتقبل وجودك؟! نصيحة، ابقَ معنا أو قد يُلقيك رجالها في أعماق ماريانا.

- فقط انتهِ من عملك وأخبرني وستجدني في الموعد، لا تقلق.

رحل إسكندر وهو يكظم غيظه من كلمات العجوز المكسيكي الذي عرفه عن طريق صديقهما المشترك القديم غوستافو، ولكن أيضًا فكَّر بحنكة في كلمات الرجل، فمنذ قتله لصقر وعلمه بغضبها الشديد قرر أن يبتعد في البحر مع رضيعه قدر المستطاع، وها قد عاد من جديد ليحصل على غرفة في

السفينة الأعجوبة وسيترك السفينة "تي-88" إلى الأبد مقابل التنازل عن غرفته ودفع بعض من الكنوز الغارقة التي عثر عليها لرجال الحرس.

تذكر إسكندر كل ذلك وهو يصل إلى الطابق السابع والرائحة العفنة تزكم أنفه من قاذورات البشر والعالم المتحضر الذي يتحول يومًا بعد يوم إلى أكثر قذارة، ولا يهتم أحد بتنظيف السفينة، فالجميع إما منهك بالعمل وإما منهك بالتفكير، وحرس بوسيدون مهمتهم حفظ الأمن وليس التنظيف والمظهر العام، رائحتهم تشبه رائحة الأسماك الملقاة عظامها وأشواكها على جنبات السفينة. وحين وصل إسكندر أمام حانة "بلاك جاك" أوقفه حارسان من قوات بوسيدون وأيديهما تفتش كل ما يطولانه من جسده.

- لمن تريد الدخول؟

صاح إسكندر وهو يمسك بأيديهما ليبعدها عن جسده:

- السيدة دكوكو الصقلية.

- هل يوجد موعد تلاقٍ مسبق؟

قالها الحارس الآخر وهو يتفرس وجه إسكندر.

- لا، أخبروها فقط إسكندر المصري بالخارج.

لحظات وكان أحد الحراس بالداخل وعاد مسرعًا بوجه مغبر وهو يسمح لإسكندر بالدخول.

- إنها تنتظرك.

لم ينتظر إسكندر الإذن منهم وولج إلى الداخل فأغلقا الباب خلفه، وكان المكان شبه خالٍ عدا منها، بجوارها أحد الرجال يرتدي ملابس خفيفة يعلوها طقم جلدي للماء ويمسك حربة بيده. جلس إسكندر على كرسي أمامها وهو مقبع في صمته لا يستمع لسوى صوت دقات قلبه.

- مرحبًا بالسيد إسكندر مالك واحد من أفضل يخوت مقاطعات البحر

كاملة، لمَ هذه الزيارة الكريمة بعد سنوات؟

- أملك سؤالًا يا سيدتي وأظن أنكِ تملكين جوابه، ولكن أولًا دعيني أقدم تلك الهدية.

أخرج إسكندر من ملابسه تاجًا أبيضَ به بعض الجواهر من الزمرد وقدمها للسيدة دكوكو التي نظرت إليه بنصف عين.

- عثرت عليها منذ عام، أظن أنها تعود إلى إحدى الأميرات الإنجليزيات.

- أظن أنني زهدت كل تلك الأشياء، لم يعد لها قيمة مثل الحياة تمامًا، لو أنك أحضرتها منذ أعوام لطرت بها طربًا وفرحًا، ولكن ما قيمتها الآن؟!

أخفض إسكندر التاج ونكس رأسه مطأطِئًا رقبته موقنًا بفشله في مبتغاه.

- أريد أن أسألكَ أنا أولًا، كيف واتتك الجراءة على قتل ضيفي الذي عرفتك به؟ سؤال وددتُ طرحه عليك منذ سنوات منذ فعلتك المشينة!

استجمع إسكندر شتات قوته وهو يرى عروق الحارس ستستنفر لتقضي عليه فور أمرٍ غير مباشر من دكوكو.

- لقد كان السبب في موت صديقي غوستافو، وكل ذلك من أجل صقور ميتة، لقد ضاع عمر أعز أصدقائي وحليفي من أجل طيور نافقة، جسده تلاشى في البحر ولم أستطِع حتى إيجاده، هل هذا عدل بالنسبة إليك؟!

- كنت تعلم أنك ذاهب بمهمة وقبلت الشروط، وكنت تعلم المخاطر، وكان من الممكن أن لا تعود أنت أو صديقك، سواء ذهبتهما لدفن إنسان أو طيور أو حتى ذباب!

- ولكن لم يصارحني بحقيقة المهمة، وكنت قبلت أو رفضت.

- الكلام لن يغير الماضي ولن يحرك المياه الراكدة، لم أكن أحب الرجل، وأيضًا بقتلك له أرحتَ بعض السادة من صداعه المزمن حول مستحقات

بتروله الذي نفد، ولكن قتلك له وهو في عصمتي إهانة بالغة. أخبرني ماذا تريد، لا أرغب في بقائك كثيرًا.

- سمعت كلمات أريد أن أعرف إن كانت حقيقة أم محض كلمات.

- تعرف دائمًا أن الشائعات تحمل في بواطنها قشور الحقيقة مهما بلغ جنونها.

- هل الأرض ستطفو بحق بعد 40 عامًا؟

- هل ما زلت في ضلالك القديم تبحث عن مدينة عائلتك؟!

- فقط أخبريني.

استنشقت السيدة دخان سيجارتها الملفوفة باليد من نبات القيقب الذي يُزرَع على استحياء في حاملة الطائرات للصفوة من المدخنين.

- هل أنت أحمق يا إسكندر كبقية السكان؟! كوكبنا في الأساس هو كوكب الأرض، مكون من حمم وصخور، والصفائح التكتونية تنهض من جديد وستعلو بالأرض. ما حدث أن منسوب البحر ارتفع عن الأرض، وسرعان ما ستبزغ الأرض من الأسفل من جديد، والقمران الصناعيان المتبقيان من أسطول ما كانت تملكه الأرض يؤكدان نشاطًا في القشرة الأرضية، ولكنها ورغم سرعتها ستستهلك بعض السنوات لتتعافى.

- حسنًا، أين ستصعد الأرض مجددًا؟ أين أقرب نقطة لها؟

- ما رغبتك في المعرفة؟ أنت سمعت الإشاعة كاملة، وتعرف أن الأرض لن تصعد قبل 40 عامًا، وأظن أن الكهل الذي يجلس أمامي لن يمكث في الحياة كل تلك المدة!

- تكفيني المعرفة وتكفيني المحاولة.

- حتى ابنك بعد رحيلك سينسى خرافاتك ويحيا حياته الخاصة التي سينساك فيها بعد أيام من رحيلك، استمع لنصيحتي وعُد واستمتع بأيامك

المتبقية، ودعني أشرب مشروبي في صمت.

وقف إسكندر بوجه مستترة فيه المشاعر. ظنت دكوكو ورجالها أنه راحل، ولكنه أخرج سكينًا من يده وتحرك نحو دكوكو، وفي لحظات كان الحارس يشهر حربته، ولكنه تسمر في مكانه عندما وجد إسكندر يضع السكين بيد دكوكو وينحي أمامها.

- إذا كنتِ ترغبين في الانتقام لصقر فلتفعلي، فحياتي ليس لها معنى الآن، لسنوات طويلة أبحث عن الإسكندرية، أبحث عن رفات أمي وإخوتي وعائلتي، قد تبدو لكِ مهمة محال حدوثها، ولكن بالنسبة إليّ هي الشيء الوحيد الذي أتنفس من أجله، ودون مساعدتك لن أعثر عليها مجددًا. أنا لا أطلب منكِ سوى شيئين، إما تخبريني وتمنحني الأمل وإما تصمتين وتقتليني، فما خيارك؟

صمتت دكوكو والسكين يرتعش بيديها، وإسكندر كشف عن عنقه من ملابسه بوجه يئوس مستسلم، بعد لحظات أشارت دكوكو بإيماءة لحارسها لينصرف، فأطاع على الفور، ثم مدت يديها إلى رأس إسكندر.

- سأخبرك بما تريد، ولكن شيئين ستفعلهما لي بالمقابل.

يهز إسكندر رأسه وهو يكاد يحبس دموعه حتى لا تنهمر على ملابس السيدة، مع نظرة امتنان لم ينظرها من قبل تخترق قلب دكوكو.

- كلامي ليس أكيدًا لأنه لا يوجد شيء أكيد، ولكن حسب القمر الصناعي فهو يشير أن المناطق التي ستصعد إلى أعلى ستكون منطقة القوقاز، وهي بعيدة عن هنا بآلاف الكيلومترات، وأقرب مقاطعة بشرية منها هي مقاطعة نوح التي كانت في الماضي منطقة إجلاء سكان أوربا وإفريقيا في البحر المتوسط، ويبعد موقع مقاطعة نوح عن الأرض الجديدة فقط 95 ميلًا بحريًّا، والأكثر من ذلك أن مدينتك القديمة بمصر ستكون أقرب إليك من هنا، مع

العلم بحركة الأرض وتفتتها تحت مياه البحر، لذلك إن كنت ترغب في هدفيك الاثنين فعليك الرحيل صوب مقاطعة نوح في القريب العاجل. المفارقة أن تكون المقاطعة الأقرب للعودة إلى الأرض هي المقاطعة نوح على اسم منقذ البشر الأول من البحر، وليس بوسيدون التي تحمل اسم إله وثني، وليست أطلانتس التي تحمل اسم حضارة مجهولة. يبدو أن المسيح نجا من الغرق بطريقةٍ ما وما زال يمد يده للعالم الآثم!

لم يهتم أو يستمع إسكندر لكلمات السيدة الأخيرة، بل كل ما شغله بُعد المسافة المهولة بين المقاطعتين.

- الأمر معقد جدًّا، أعرف من حرس البحر الجوالين بين المقاطعات أنهم يقضون شهورًا طويلة يقطعون آلاف الكيلومترات ليصلوا، وأنا لا أملك بترولًا أو طاقةً شمسيةً تكفي لتلك الهجرة البحرية.

- نسيت ما هو أسوأ من ذلك، أن البحر يعج بذئاب البحر.

- لم أصادف أحدهم منذ أمد طويل، يبدو أنهم غطسوا في البحر إلى الأبد، ليست لديهم طاقة لتجعلهم يجوبوا البحر كل تلك السنوات.

- مخطئ، بل لديهم، والأخطر أنهم كانوا في البداية حرسًا للنظام، والآن هم كلاب جشعة يعترضون سفن حرس البحر وما زالوا يمتلكون تكنولوجيا العالم القديم، وهي التكنولوجيا التي ستساعدك للانتقال إلى المقاطعة في وقت سريع. فكُن حذرًا منهم، إن أمسكوا بك فسيفترسونك، سيحاصرونك حتى يجعلوك تستلم وتتقبل الموت، ولكنهم أيضًا لن يقتلوك بسهولة حتى يقتلك الخوف ويقتلك الانتظار.

- فقط قدِّمي لي ما يساعدني ولا تقلقي.

يعود أحد رجال دكوكو وهو يحمل صندوقًا وخريطةً ورسمةً ويضعهم على الطاولة بينهما ويبتعد.

- لدي مقابلات كثيرة، لذلك سأشرح لك سريعًا، هذا صندوق فيه رسالة ستقدمها للسيد فرانشيسكو في مقاطعة نوح، بمجرد وصولك ستعرف كيف تصل إليه، أيضًا يوجد جمجمة البابا يوحنا، بابا الفتيكان الأخير، أريد منك أن تنثر رماده أعلى جبل وأسفل شجرة حين تنبت الأرض، وإن لم تحيَ لتشاهد ذلك اليوم فلتكن مهمة ابنك أو من تستخلفه، هذا كل ما أريد. وما سأمنحه لك خريطة إلكترونية لتحديد موقعك بالقمر الصناعي ونقطة مقاطعة نوح، والثاني هو محرك يعمل بقلب نووي ذري مثل الذي صنعه البشر للطائرات والسفن العسكرية في الحرب العظمى، والذي جعل السفن تصل من أمريكا إلى الصين قاطعةً المحيط الهادئ في أيام معدودة، ستحصل على مفعل منه لسفينتك سيجعلك تصل إلى مقاطعة نوح في شهر ليس أكثر. ما قولك؟

- موافق.

قالها إسكندر دون تردد ولم تندهش دكوكو من موافقته، رغم أن بكل المقاييس رحلته نسبة النجاة منها تكاد تتخطى 1%.

- حسنًا، سيصل كل ما أخبرتك به عن طريق رجالي إلى مركبك، والآن يمكنك الرحيل.

باغت إسكندر بسؤال أخير قبل أن يرحل.

- لماذا تثقين بي مجددًا؟ ولماذا تكلفينني بحمل أشياء قد تغرق في الطريق؟ وكيف تتركينني بلا عقاب؟

- الحياة أكثر مللًا ما تظن يا إسكندر، وإني لست قويةً كفايةً للمغامرات، ولكن يمكن على الأقل أن أستمتع وأنا أجعل غيري يمارس مهامي المستحيلة بقدر ما أتمنى أن تقطعك حيتان الأوركا بأسنانها، ولكن أرجو أيضًا أن تصل سليمًا وسأعرف فور وصولك.

***

رغم برودة الجو ليلًا فإن ذلك لم يُضفِ شيئًا على ملابس ميجاس، الذي ظن أنه واجهة مميزة بإطلالة براقة يرتدي بنطالًا قصيرًا يكاد يصل إلى منكبيه وقميصًا أبيض بهت لونه من غسله بماء البحر وامتصاصه لأشعة الشمس. ارتاد حانةً صغيرةً مُعدَّة للشباب الأصغر سنًّا عوضًا عن تلك الحانات العتيقة التي يرتادها والده، يصدر منها صوت موسيقى التكنو القديمة والجميع بالداخل يرقص في سعادة وليس أمامهم سوى ساعة واحدة قبل أن تغلق أنوار السفينة ومعها تنطفئ الموسيقى. دخل ميجاس وتعثر بما حوله، فاصطدم بفتاة، فنظر الفتى الذي يرقص معها بغضب نحو ميجاس ورآها فرصةً ليثبت لفتاته أنه حوت أمسك بسمكة تونة سيفترسها ويقدمها فريسة تحت قدم أنثاه، ولكن ميجاس يعتذر ويبتعد حتى يجد مكانًا ينزوي إليه، فوجد مكانًا بالقرب من طاولة الخمور لم تكن تجلس فيه سوى فتاة وحيدة ترتسم على وجهها نفس تعابير الوجه التي ترسم عليه. نظر ميجاس نحوها يتفرس ملامحها، ليجدها فتاةً في طور المراهقة مثله، بشعر أصفر ممو ج، عيناها خضراوان كلون النباتات التي تحدث عنها والده، ملامحها دقيقة، شفاهها رفيعة، ذات أنف مستقيم. بادلته الفتاة التفرس فوجدت أمامها شاب بملامح شرق أوسطية، شعره أسود كثيف، يرتسم شنب صغير تحت أنفه الغليظ مع شفاه كبيرة، وعينتن بنيتان. انتهى كل منهما من تفرس الآخر حتى صاحت الفتاة:

- إيفا، وأنت ما اسمك؟

- ميجاس.

أخفى الفتي خيبة أمله كونه لم يكن المبادر بالتحدث.

- موطن عائلتي كان في بلد تدعى ألمانيا، واليوم موطني في الطابق الرابع مع أم و3 أطفال، نعيش في 11 مترًا من الحديد الصدئ، أما أبي فقد قفز إلى البحر الذي لا ينتهي منتحرًا.

- ليس لي موطن، أبي من مصر وأمي مومس بولندية، يقولون إنها ماتت فور إنجابي، نستريح أنا وأبي في غرفة في الطابق السابع أكبر قليلًا، تصل إلى 30 مترًا، ولكن موطننا الأساسي هو البحر، لدينا مركبنا الفاخر ونجلب الأشياء الثمينة من العالم القديم تحت البحر.

لمعت عين الفتاة إعجابًا كأنما عثرت على ضالتها.

- لذلك تبدو شاردًا غريبًا عن هنا، حوت ضخم يود البقاء في مملكته وحيدًا، ولكن شاءت الأقدار أن يجالس بعض الأسماك ينتظر صيده الثمين.

احمرت وجنتا ميجاس خجلًا، فهو الذي لم يخالط فتيات كثر من قبل حتى أوقعه حظه في فتاة تصيده هو لا العكس، والغريب أنه ترك نفسه لتلف شباكها عليه كما تحلو، خانعًا مستسلمًا.

- أظن أن الحيتان تحب الرقص، ولم يتبقَّ وقت حتى تغلق السفينة أنوارها، ما رأيك؟

ابتسمت الفتاة وقامت لتجذب ميجاس من يده، فأخذ يتأمل ملابسها شبه العارية والكاشفة عن خصر ممدود وقوام منحوت، ولم يدرك نفسه إلا وهو يرقص معها.

***

تيبست قدما إسكندر وهو يصعد درجات سلم السفينة ليلًا وقد أظلمت أنوارها ترشيدًا للطاقة التي ينص عليها قانون المقاطعة، توقع أن يصل باكرًا ولكن أندرياس المكسيكي استغرق في تركيب المحرك الذري وقتًا أطول من المتوقع، وقد أيقن إسكندر مدى مهابة المحرك وقوته عندما شاهد الانبهار الشديد على وجه أندرياس بمحركٍ كذلك، وشعر أنه حصل على هدية غالية الثمن، ولكن ما أثار دهشته هو المشهد المتجسد أمامه عندما وجد ابنه

ميجاس يلتقم شفتي فتاة ويعتصر كلٌّ منهما الآخر كأنها القبلة الأولى لهما، فوقف يشاهد ابنه باندهاش ممتزج بإعجاب، وانتظر حتى لا يفسد على ابنه تلك اللحظة، ولكن طال انتظاره فقد استمر الفتى في التقام شفتي الفتاة الجميلة دون توقف كأنه يغوص في أعماق البحر، وعندما خشي على ابنه أن يفقد تنفسه في قبلة كتلك استمرت دقائق، قرر إقحام نفسه لإفساد تلك اللحظة الطويلة.

- ميجاس!

استمرا بضع ثوانٍ حتى خرجوا من نشوة القبلة واستشعرا أن شخصًا ما يحدق إليهم في الظلام، فابتعد كل منهما عن الآخر، وفي خجل مصطنع تزيح الفتاة شعرها عن وجهها فيما ينظر ميجاس إلى والده وهو يمسح شفتيه.

- أبي أقدم لك صديقتي إيفا، إيفا أقدم لكِ والدي إسكندر، أفضل غواص في عموم البحر.

ابتسمت الفتاة في اصطناع، وبادرها الأب بعبوس لم تتبين ملامحه في الظلام، فابتعدت الفتاة راحلةً وتتبعها ميجاس.

- قبل أن ترحلي أخبريني، كيف سأصل إليكِ مجددًا؟

- أخبرتك طريقي، إن كنت تريد مقابلتي مجددًا فستعرف كيف تصل إليّ.

راحت الفتاة وعاد ميجاس إلى والده وهو يبتسم بخجل منه.

- كيف استطعت بتلك السرعة الإيقاع بفتاة؟! حتى أنا احتجت إلى أيام لأسقط أول فتاة، ولكن طريقتكما المبتدئة أشعرتني أنني أشاهد نسخةً حيةً من الفيلم الساذج تايتانيك، كأنك اللعين ليوناردو دي كابريو وتلك العاهرة كيت!

- أبي لا تتحدث عنها هكذا!

ابتسم إسكندر وقد أدرك ما حدث من انفعالات وجه ابنه الصغير.

- يبدو أنها هي من أوقعت بك وليس العكس، لا يهم، يكفيك شرف المحاولة الأولى.

أدار ميجاس دفة الحوار حتى ينتهي من وصلة مزاح أبيه، فوقف عند سور السفينة واسند يديه إلى الأمام وهو يتطلع إلى البحر المظلم، ووقف أبوه بجواره.

- ماذا فعلت مع السيدة دكوكو؟ من المؤكد أنك ذهبت بالأساس لتسألها عن ظهور الأرض وليس لمهمة جديدة.

- ولمَ لا تقل الاثنين معًا؟!

- إذًا توجد مهمة جديدة؟

- ليست أي مهمة يا ميجاس، سننخر عباب البحر، سنقطع آلاف الكيلومترات، مهمتنا التالية والأخيرة ستكون إلى مقاطعة نوح، أكبر مقاطعة بشرية في البحر من حيث عدد السكان وعدد السفن، إنها تساوي أطلانتس وبوسيدون مجتمعتين.

- ماذا؟! لمَ سنترك هنا ونذهب إلى مكان مجهول في رحلة قد لا نعود منها وقد لا نصل إلى وجهتها؟

نظر إسكندر حوله وهو يتمتم باللعنات بألا يكون قد سمعهما أحد.

- لنذهب إلى غرفتنا ونتحدث، وهناك سأطلعك على كل شيء.

***

في الظلام الدامس وعتمة البحر فقط قوات حرس بوسيدون، أو قوات البحر كما يطلق عليهم العامة، لهم الحق في التجوال في أنحاء السفن ليلًا بعد إطفاء الأنوار ومعهم كشافاتهم ومستعدين بالحِراب وملابس الغوص لتتبع من يخالف القواعد ليلًا أو يسهر خارج غرفته بعد مواعيد حظر التجوال. وحين

مر أحد الحراس من أمام غرفة إسكندر وميجاس لم يلحظ بصيص النور الماثل من زجاج الغرفة الدائري وأكمل طريقه، وكان إسكندر يجلس على السرير يحمل أحد الكشافات الصغيرة ينير به على خريطة ورقية يتطلع إليها ميجاس باهتمام.

- هل ما زلت تذكر ما علمته لك؟

زفر ميجاس في حنق.

- نعم يا أبي، كأنما المرة الأولى التي أرى فيها خريطة الأرض كأنك لا تريها لي كل يوم! تلك القارة كانت تدعى إفريقيا وتلك القارة أوربا وبجوارها آسيا والبعيدتان هما الأميركتان.

- رائع! حسب ما عرفته من دكوكو فالأرض ستظهر في منطقة جبال القوقاز، هل تتذكر مكانها؟

زاغ ميجاس بعينه باحثًا عنها على الخريطة حتى أشار بإصبعه إلى منطقة جنوب شرق روسيا.

- تلك هي منطقة القوقاز.

- أحسنت يا بني، بعد الكارثة احتاج العالم إلى أعوام ليستجمع شتاته ويبدأ العلماء المتبقون في فهم تبعيات ذلك على الأرض ووضع تصور جديد لشكل العالم الحالي والعالم القديم، ومع بعض التكنولوجيا المتبقية والطاقة التي استطاعوا جلبها من العالم القديم عن طريق قليل من الأقمار الصناعية بعد أن سقط 90% كنيازك في البحر بعد انهيار مراكز تشغيلها، نعرف الآن أن بوسيدون تبحر فوق بقايا أمريكا الجنوبية بعد أن كان موقعها الأساسي في المحيط الأطلسي، ولكن زحزحة القارات تعمل الآن بشكل أسرع تحت البحر، وكل عام تتحرك الأرض بالأسفل مئات الأمتار، أو كما نقول القشرة الخارجية وما عليها، لذلك فمقاطعة نوح التي كانت منطقة إجلاء وإغاثة فيما كان يعرف

قديمًا بالبحر المتوسط لسكان أوربا وغرب آسيا وشمال إفريقيا، هي الأقرب لكل من الإسكندرية وجبال القوقاز، وقد يكونوا بحركات الأرض المستمرة أقرب من أي وقت مضى يا بني.

- ولماذا كل ذلك الوقت كنت تبحث عن الإسكندرية في المكان الخاطئ؟

- لأنني لم يكن لدي المعلومات التي أمدتني بها دكوكو ولا الإحداثيات لمعرفة الموقع من الأقمار الصناعية، والأهم من ذلك أننا لا نملك مصدر طاقة يكفي لتلك الرحلة الهائلة، أما الآن فنمتلكها، لقد منحتني دكوكو أجرنا مسبقًا عن تلك المغامرة، وأظن أنك ستسعد كثيرًا برؤية محرك بالطاقة النووية يقطع أميالًا في البحر في لحظات، ولكن أقل خطأ به سيجعلنا ننفجر كسحابة مشروم كبيرة.

ابتهج ميجاس وتهللت أساريره من التحسينات الجديدة التي أضافها الأب قبل أن يقطع كلامته.

- ولكن في هذه الرحلة خطر أعظم من أمواج البحر والعواصف وحتى الملل، إنهم ذئاب البحر!

- من هؤلاء؟ هل هم نوع من الأسماك المفترسة؟

- ليتهم كانوا كذلك! إنهم الخطر الأعظم الذي لم أحدثك عنه من قبل.

اعتدل ميجاس في جلسته وعلامات القلق جالية على وجههو يمكن رؤيتها في الظلام، ليكمل إسكندر:

- ذئاب البحر هم سكان قلب البحر في الحرب العظمى التي دمرت العالم، كانت الجيوش البحرية تحتوي على غواصات، بعد الكارثة تلك الغواصات لم تغادر البحر، وبفضل أنها تعمل بالطاقة النووية فقد حصلت على طاقة تجعلها تسير في البحر 50 عامًا قبل أن ينفد مخزونها، وبمرور السنوات تحول طاقمها من شباب جنود عسكرية إلى مرتزقة وقطّاعي ملاحة عجزة ينهبون

ويحاربون بطوربيدات وصواريخ كل قوات البحر التي تنقل المساعدات والأخبار بين المقاطعات وبعضها، فندر التواصل بين المقاطعات ولا تجرؤ سوى سفن قليلة مستترة بالظلام ووقت العواصف أن تعبر خلالها، فلو خسرت نصف طاقمها من جراء عاصفة لصار أفضل من خسارة كامل الطاقم وتدمير السفينة على يد الغواصات.

- إذًا ما الحل؟

- السفن التي يذهب بها حراس البحر تكون كبيرة، أما نحن فمركبنا صغير الحجم نسبيًّا، وذلك مع المحرك الجديد سيوفر لنا سرعة كبيرة عن المعتاد، لن تلحق بنا الغواصات لكن يبقى الخوف من الطوربيدات، والأسلحة التي نمتلكها لن تصمد أمامهم.

- حسنًا، ستفكر في رفض العرض وعدم المخاطرة، ولكن بالطبع سترفض حتى التفكير في ذلك.

- تعرف الإجابة يا بني، إن بحثي عن الإسكندرية هو ما يجعل لحياتي معنى، هل تظن أن بعد كل ذلك سأتراجع أو سأعود إلى مهجعي وأخلد إلى تلك الحياة البائسة؟!

يضع ميجاس رأسه على سريره، ويغلق إسكندر كشاف الضوء ويضع الخريطة في ملابسه مجددًا ويغرقان في ظلام دامس.

- متى سنتحرك يا أبي؟

- هل أنت موافق يا بني على تلك المخاطرة؟

- لقد أخبرتك في المركب أنني موافق وأنني أريد أن أبحث معك عن موطنك وعن رفات الأجداد، حتى إن كنت لا أدرك قيمة ذلك بالنسبة إليّ، ولكن أعلم أن ذلك يمثل لك الكثير، وأنت أعظم غواص في البحر، أنت مَثلي الأعلى وأريد أن أكون مثلك وأتعلم منك المزيد.

ابتسم إسكندر من كلمات ابنه فتلك كانت من النوادر أن يمدحه أحد.

- ولكن حتى نرحل فأنا لدي طلب واحد أريد موافقتك عليه.

شابت ابتسامة إسكندر بعض السخرية، فقد أيقن أن ابنه قال كلماته من أجل طلب ما وقد أحرز الطلب قبل أن يتفوه به ابنه.

- بعد مدحك المثالي سأوافقك على أي شيء، ولكن أفضل أن أعرف ما هو.

- سأخبرك ولكن دعني الأول أتاكد حتى لا أفقد طلبي الوحيد من أجل شيء لن يتحقق.

- حسنًا، ولكن أسرع، فطلب كذلك ليس كقبلة وقد يأخذ بعض الوقت في الإقناع، وليس أمامنا سوى 5 أيام للتحرك.

ساد الصمت قليلًا حتى ضجت الغرفة بضحكات الابن وأبيه اللذين فهم كل منهما الآخر أكثر مما ينبغي، وعلم ميجاس كم أنه مكشوف لوالده، بينما قطعت ضحكات إسكندر كلماتُ أمه السيدة تريزا وهي تحنو على رأسه عندما كان صغيرًا قبل خروجه مع أبيه في يوم الغرق المشؤوم.

فتبددت الابتسامة وتلاشى صوت الضحك وهو يسمع كلماتها.

"أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ كَمَا أَوْصَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ، لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ، وَلِكَيْ يَكُونَ لَكَ خَيْرٌ علَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ"

[سفر التثنية 5: 16]

"افعل كل ما تريد ما دمت تغض الطرف عما يحدث".

أدركت إيفا أن ذلك هو القانون السائد الوحيد في تلك المقاطعة، فالمجلس الحاكم وحرس بوسيدون يتركون العامة يفعلون كل ما يريدون، من يريد الانتحار ومن يريد القتل... فقط لا تفعل ما تعرف أنه ليس عليك فعله، فلا تسرق الطعام فهو ليس طعامنا بل طعامهم، لا تضئ الكهرباء بعد الوقت المحدد فهي ليست ملكك بل هي من قبس نورهم. إنهم يسمحون لهم بالحياة فقط ليكون هناك من يتحكمون بهم، فالأسماك لا تعاقب بعضها على أكل بعض فتلك فطرتهم، ولكن لن يستطيع القرش العيش وحده في المياه من دون وجود فرائس يعلم أنه إن لم يأكلها ذلك اليوم فهي موجودة للأيام التالية. إنهم أحرار ولكن حرية معزولة مكبوتة بسجن أسوارها العاتية بطول البحر، فلا مكان آخر لتذهب إليه، ولكن كل ذلك تغير عندما وجدت ميجاس يقف أمامهم خارج غرفتها المكتظة بأمها وأخواتها.

- طفت أرجاء السفينة مرتين، ألا تذكر عنوانك؟!

لم يبدُ على إيفا المفاجأة، كأنها متيقنة أنه سيأتي إليها وسيبحث عنها.

- كنت أظن أن الخمر أنساكَ وجودي وأفقدكَ ملامحي.

- تأثيركِ أقوى من البحر لو كان من الخمر.

ابتسمت إيفا وهي تفكر في كلامه.

- ليت البحر كان من الخمر، لكنت أول الغارقين ولتحلل جسدي مع الخمر فزادني سعادةً أبدية!

أخرج ميجاس من جيبه قطعة معدنية ممسوحة المعالم ووضعها بيد إيفا، فظلت تتأملها، وجهها وظهرها عسى أن تفهم منها شيئًا، لكن باغتها ميجاس بقوله:

- يقول أبي إن تلك كانت عملةً تستخدم على الأرض، هي اليورو، وهي ما كانت تستخدم في أوربا حيث موطنك ألمانيا.

تبددت الابتسامة عن وجه إيفا.

- أنا مثلك ولدت في البحر ولا أعرف شكل ألمانيا تلك، حتى المعلمين أخبرونا أنها كانت مكانًا للحرب كسائر الأرض، لا يذكرون شخصًا من ألمانيا سوى المدعو أدولف هتلر.

استنكر ميجاس استقبال إيفا الفاتر بعكس ما كانت منذ أيام، وقرر أن يداهمها بسلاحه الرابح.

- لو أخبرتكِ أن ترحلي معي من هنا، فماذا تقولين؟

- لا أفهم! كيف سنرحل من هنا؟ وإلى أين؟

- غدًا سنرحل أنا وأبي في رحلة طويلة قد تستغرق أعوامًا شمسية، سنرحل إلى المقاطعة الثانية للبشر، إلى نوح.

لمعت عينا إيفا التي خالطها الشك والتصديق وتأجج بداخلها حماس، كاد يسهب لسانها في الكلمات عدا أنها تمالكت نفسها حتى لا تظهر لوعتها.

- أليس أبوك هذا من اقتحم علينا نشوتنا؟! أظن أنه رجل فظ من قوات البحر.

ابتسم ميجاس وهو يدرك أن شباكه قد أمسكت بصيديها ولم يتبقَّ سوى جذبها.

- نعم هو، ولكن ما لا تعرفينه أنه أعظم غواص في أرجاء البحر، وهو يعلمني لأكون غواصًا بارعًا مثله، بل سأكون أفضل منه، ويملك معدات من أحدث ما صنع البشر في زمن الأرض، وأيضًا نمتلك أجمل مركب في كل أرجاء البحر ستذهلين فور رؤيته.

- تريد مني أن أترك عائلتي وإخوتي خلف ظهري هكذا وأعبر البحر في رحلة قد لا نعود وقد لا نصل إلى وجهتنا مطلقًا!

- لأنك تريدين ذلك وترغبين فيه أكثر من رغبتي أنا فيه.

ابتسمت وهي تلوك أصابعها بفمها.

- حسنًا، دعني أفكر.

- سننطلق مع شروق شمس غد.

صعقت إيفا من تلك المباغتة التي لم تستعد لها.

- بتلك السرعة؟! حتى أشيائي تحتاج إلى وقت أطول لجمعها، ناهيك عن الوداع.

ابتسم ميجاس وهو يغادر وقد علم أن هدفه أوشك على التحقق وصاح وهو يبتعد:

- أنتِ لن تخبري أحدًا، أنتِ فتاة حرة ولن يلجمك إخوة أو عائلة ولا شيء لكِ لتجمعيه، وإن يوجد شيء فستحرقينه لتنسيه مع العالم القديم! سأنتظرك عند قاع السفينة مع خيوط الشمس فكوني أسرع منها.

رحل ميجاس وكانت إيفا قد حسمت قرارها من قبل أن تراه حتى.

***

في الوقت الذي كان فيه ميجاس يدعو صديقته لترافقهما على متن رحلتهما إلى المجهول، اتجه إسكندر إلى حانة أصدقائه ولكنه لم يجد ويليام، وجد فقط صديقه الصيني "شان"، فاتجه نحوه، وبينما الآخر يخفض زجاجة خمره وجده ماثلًا أمامه.

- جئت أودعكم يا أصدقائي، سأذهب في رحلة استكشاف مع ميجاس إلى منطقة بالبحر بعيدة قليلًا.

ابتسم شان بفعل الخمر ووقف ليحتضن إسكندر.

- يا صديقي أخبرتك مسبقًا أن لا تكذب على صيني، أنت راحل ولكن إلى الأبد، فلم يسبق لك أن جئت لتودعنا من قبل.

- أظن أن هذا ليس السبب الوحيد لجعلك تجزم بذلك.

- بالطبع أيها المصري الكاذب، فويليام ذهب في مهمة مع جنود حرس البحر لانتشال جثة ابنة واحدٍ من المجلس الحاكم قبل أن تنهشها الأسماك، وأخبروه أنك تنازلت عن غرفتك مقابل بعض الحيوانات من حظيرة المقاطعة، أتصدق أن حاملة الخنازير والأبقار كانت في يومٍ ما حاملة طائرات حربية!

ابتسم إسكندر وهو يحاول تغيير دفة الكلمات حتى لا يضطر إلى كشف ما لديه.

- وما الذي يجعل ابنة واحد من السادة تنتحر؟

- وما الذي يجعلهم يحيون في العالم الملل إن كانت حياة عامة الناس مملة، فدومًا حياة الأثرياء أكثر مللًا، وأيضًا الفقراء ينجون لأنهم يقطنون في قاعة السفينة فيخرجون من الماء أحياء، أما الأثرياء ففي أدوارهم العليا يسقطون على هوام رؤوسهم صرعى، حتى الموت عنصري!

- حسنًا يا صديقي، انقل وداعي لويليام وتمنياتي لكما بمغامرات دائمة تكسر رتابة الحياة.

كاد إسكندر يرحل ولكن شان بفضل دراسته للغة الجسد أيقن أن إسكندر لديه سؤال ولكنه محرج من الإفصاح عنه، فقرر أن يبادر.

- أنت تريد أن تسال عن شيء يا إسكندر وأعرف ما هو منذ لمعت عيناك عندما تحدثت عنه في المرة الأولى، كنت أقولها مزاحًا ولكن وجدت عينيك تبتهجان كأنك عثرت على إكسير الحياة، ولكن بطبعك الصامت لا تريد أن تسأل، يمنعك غرورك عن ذلك رغم أنك لو سألت لأخبرتك بكل ما تحتاج إليه، وهو ما جعلك تأتي لتخترع قصة البحث عن ويليام رغم أنك كنت تعرف من الحرس أنه رحل وأن لا أحد غيري هنا، لا تخف يا صديقي فسِرُّنا واحد.

التفت إسكندر نحو شان كأنه يدرك أنه كشف أمره وطال الصمت بينهما.

- حسنًا، يكفيني نظرتك لأتاكد من صدق حدسي، أنت تريد أن تعرف كيف تطبق نبوءة "ويشوان" بأن يتلبس الأب جسد الابن فيكمل فيه الحياة، أن يصبح الأب والابن روحًا قُدُسًا، أليست تلك تعليم المسيح؟ أليس الأب في الماضي ضحى بالابن على صليب من أجل انتشار تعاليم الأب على حساب آلام الابن؟

وقف إسكندر الذي لم يكن يومًا مؤمنًا بقوة يفكر في كلمات شان وأدرك أنها صحيحة رغم غرابتها.

- أريد أن أعرف كل شيء يا شان.

ابتسم شان على موافقة إسكندر.

- حسنًا يا صديقي، سأعلمك ولكن اعلم بوجود تضحية كبيرة، ستضحي بالابن من أجل أن يبقى الأب.

يهز إسكندر رأسه دون تردد، فيما يرفع شان كأسه نخبًا لعلم لا ينضب ولحكمة الأجداد التي تشمل الأحفاد.

بعد مرور 3 أشهر

كسا القلق وجه إيفا، فبعد ما يقرب من ثماني دقائق لم يصعد ميجاس أو والده إلى سطح البحر، ما زالوا في الأعماق ولا تعلم هل اللون الأحمر المكسو على صفحات الماء من بقايا الأرض أم نهشت القروش أجسادهم. تركت ساعة الوقت من يديها وجالت في عقلها مئات الخيالات كونها وحيدة بسفينة صغيرة ابتعدت في البحر عن بوسيدون منذ 3 أشهر بلا هوادة، ولا تعرف كيف تعدو بالسفينة غدوًا أو رواحًا بين مقاطعة نوح وبوسيدون، وجال في عقلها الخيال عن أن تلقي بنفسها خلفهم أو تمكث مع الحيوانات في غرفة السفينة حتى تهلك بجوارهم، ولكنها لم تهرب من ملل بوسيدون وعائلتهم لتموت مللًا في غياهب البحر، فقررت أن تغمض عينيها وتقفز ليختار البحر بنفسه النهاية التي تليق بها مثلما أخبرتها أمها من قبل، واستمالت إلى ذلك الحل، فاقتربت من حافة السفينة لتلحق بمئاتٍ ممن سبقوها بالانتحار لأسباب أهون من ذلك.

ولكن ما كادت تطل برأسها حتى خرج رأس ميجاس من البحر ينثر الماء

من حوله ويلتقط أنفاسه بصعوبة وهو يصرخ:

- خسرت خسرت!

أصابت الدهشة إيفا التي لا تستطيع أن تُبقي رأسها داخل حوض سمك لثوانٍ معدودة دون أن تفقد الوعي من قلة الهواء، ومن بقي في الماء لثماني دقائق يخرج بسهولة وما زال شخص بالأسفل، ولم تمر لحظات إلا وبزغ الأب من سكون الماء كوَهَج نور الشمس.

- أمامك الكثير لتصبح مثلي ويبدو أنك لن تصل إلى ذلك أبدًا!

- مَن يدري، قد يأتي اليوم الذي يصبح فيه أفضل منك.

أشاح إسكندر بعينه عن صوت إيفا التي قالت ذلك في تحدٍّ ألهبَ صدر ميجاس وأصاب قلب إسكندر بغصة يعتصرها الغضب من وجود تلك الفتاة، فبعد 3 أشهر من بداية رحلتهم التي شارفت على نهايتها وبعدما لم يتبقَّ حسب خريطة المركب سوى بضع مئات من الأميال البحرية، ما زال لا يتقبل وجود صديقى ابنه الوحيد، فغير كونها فتاةً لعوبًا فهي جامحة ترنو إلى الحرية لا تقبلها أصفاد، وهذا عكس ما يجهز ميجاس من أجله، ورغم أن ابنه يشبهه كثيرًا فهو يختلف كثيرًا عنه في ما يخص النساء، فإسكندر يعرف الماجنات والغانيات ولكنه لا يصفو لكدر حياتهن وسرعان ما يهجرهن، أما ميجاس فقد تعلق بأول غانية عرفها في طريقه ولم يهجرها، بل ربطها به إلى الأبد، رغم أنه فعل كل ما يجعله يبرح بعيدًا عن فتاة. ورغم أن إسكندر لا يلوم نفسه مطلقًا على أي شيء حتى لو كان في قرارة نفسه يعلم مدى خطئه، فإن أكثر ما ندم عليه أنه أخبر ميجاس بحقيقه أمه العاهرة وأنها ربما تكون ضاجعت مئات الرجال في حانة القلعة وأنها ماتت بالإيدز وأُلقِيت حيةً في البحر حتى لا تصيب شخصًا آخر بالعدوى، فقد ظن أن ميجاس بعلمه بذلك سيلفظ أمه من ذاكرته ولن يسأل عنها، ولكنه في اختياره الوحيد للمرأة التي ترافقه اختار من هي أسوأ من أمه كثيرًا.

- لا تفرح كثيرًا يا أبي، سأظل أتمرن حتى أصبح مثلك.

- أرجو ذلك!

صعد كل منهما إلى المركب وهما شبه عراة إلا ما يستر عوراتهما، ميجاس بجسده الشاب الرفيع وقد طال شعره ولحيته ولم يشأ نزعهما لأنهما ينالان إعجاب خليلته، أما إسكندر برأس ووجه حليق خرج يتنفس الصعداء وهو يرتدي ملابسه، وإيفا تمسح وجه ميجاس وتداعب شعره بأصابعها.

نظر إسكندر حوله وهو يرى البحر يحيط من كل حدب وصوب بلا نهاية أو شيء يظهر.

- لقد توقفنا كثيرًا، أظن أن علينا الحركة، بهذا المعدل سنصل إلى مقاطعة نوح خلال 5 أيام، لذلك لن نتوقف مجددًا، حصلنا على راحتنا وعلى استجمامنا.

- لا أعرف ما الفائدة من العجلة! سنصل في القريب، هل اشتقتم إلى مواعيد الاستيقاظ والسبات وإغلاق النور ومنع التجول وكل تلك الأشياء الخانقة؟!

قالت إيفا، فوجدت إنصاتًا من ميجاس واستنكارًا من إسكندر الذي رد عليها في لحظة نادرة الحدوث:

- نحن نسير بمحرك نووي لا يمكن الضغط عليه أكثر من اللازم أو نعول أنه لن يحدث شيء، كما أن السفينة تحتاج إلى صيانة، هل لديكِ أسئلة غير منطقية أخرى؟!

ابتلعت إيفا لسانها بغضب، فيما اتجه إسكندر إلى قمرة القيادة ينظر إلى الخريطة الإلكترونية، ولكن الكارثة وجد تشويشًا على جميع أجهزة السفينة التي تعمل وتتوقف في لحظات، ورصد الرادار وجود نقاطٍ في الماء تقترب من السفينة قبل أن تختفي، وشعر إسكندر بوجود كارثة فجرى إلى الخارج.

- ميجاس، إيفا، ادخلا إلى قلب السفينة، يبدو أننا نواجه مشكلة!

كان الفزع استفحل على إسكندر ونقله بدوره إلى إيفا وميجاس، وما كادا يعدوان عدوًا إلى غرف السفينة حتى خرجت براميل من قلب الماء بجوار السفينة سرعان ما انفجرت وسكبت مئات اللترات من مياه البحر إلى السفينة فجعلها تميل قليلًا لكن دون ضرر حقيقي في جسم السفينة، وكادت إيفا تسقط من المركب مع تمايلها لولا أن يد ميجاس أمسكت بها، في حين عاد إسكندر ليدير المحرك بأقصى سرعته ويهرب من إحكام قبضة خفية عليه، ولكن سرعان ما صعد برميل آخر إلى السطح لينفجر فتمايل البخت إلى الجهة الأخرى أقوى من المرة السابقة، مما جعلت كل شيء على السفينة ينقلب، ولم تستطع يد إسكندر إدارة المركب لتظل في مكانها، وفي تلك المرة لم يصعد برميل بل صعدت ثلاث غواصات قديمة الطراز من زمن الحرب الكبرى وصنعوا مثلثًا عملاقًا حول المركب، واحدة تقف أمامه والثانية على ميمنته والثالثة على ميسرته فأحاطوه من كل جانب ليمنعوه من الهروب.

وواحدة من الغواصات تكبر البقيةَ حجمًا تقترب أكثر من السفينة لتلاصقها، فخرج ميجاس من غرفة بالسفينة وهو يحمل قاذفة صواريخ محمولة وصوب نحو السفينة وبعض الدماء تتصبب من فمه، ولكن إسكندر جرى نحوه وأمسك منه السلاح قبل أن يطلق وأخذه منه، وإيفا واقعة على الأرض تمسك رأسها تشعر بدوار شديد. عرف إسكندر ذلك التكتيك، كالذئاب عندما توقع بحيوانها الفريسة، ولكن لم يجُلْ شيء في عقل إيفا وميجاس اللذين لم يعرفا شيئًا قط عن قانون الغابة وعالم الحيوانات على الأرض، ولكن هؤلاء كانوا ذئاب البحر، فمَن يقع فريسة ينهشوه نهشًا. ظل القلق يضرب أوصالهم حتى انفتح باب دائري من داخل الغواصة ليخرج شخص وسمعوا صوته قبل أن يروه.

- يبدو أن أحدهم يتمتع بالحكمة على ذلك المركب الفاحش الثراء، فلو

كنت أطلقت صاروخك علينا يا صغير لانفجر البحر بالكامل، فنحن نحمل طوربيدات نووية!

حاول إسكندر أن يعصر ذاكرته عسى أن يكون صادف ذلك الرجل ذا الأسنان غير المستوية والشعر الأصفر الكبير والملامح العجوزة وقدمه التي وطأت مركبهم من الغواصة المتاخمة لهم، ولكن كلما اهتدى له من الشعار المرسوم على الغواصة واقترب من التلاشي يعود إلى الجزيرة الإنجليزية وأن تلك الغواصة كانت تتبع البحرية البريطانية في الماضي، وخلف الرجل تبعه اثنان آخران أحدث سِنًّا يحملان مسدسات قديمة ويقف كل منهم يتأمل الآخر، حتى صاح الرجل العجوز مجددًا بصوت جهوري:

- عفوًا! نسيت أن أعرف بنفسي، أنا "أوين أويل"، ربان الغواصة وضابط سابق بالبحرية واليوم أن سيد ذئاب البحر.

وقف الربان عاقدًا يده خلف ظهره والرجلان اللذان قدما معه يقفان خلف إسكندر وميجاس لمنع أي حركات طائشة قد تودي إلى هلاكهم، في حين ما زالت إيفا مترنحةً من الاصطدام لا تقدر على الاستقامة.

- أظن أنك القائد هنا.

وجه الربان كلماته ونظراته إلى إسكندر الذي طال صمته حتى يختار كلماته بحكمه.

- سيدي نحن سفينة عائلية صغيرة طُرِدنا من مقاطعة بوسيدون وضللنا الوجهة نحو مقاطعة نوح، لسنا من قوات البحر، ويمكنك التأكد بنفسك، والطعام الذي معنا بالكاد يكفي لنَصِل.

كانت أذن أوين تستمع ولكن عينه تتفرس أركان السفينة.

- ما اسمك؟

- إسكندر، وهذا ابني وتلك ابنة أخي الراحل.

- من أي بلد كنت؟

- من مصر يا سيدي.

ابتسم أوين.

- ما زلت قادرًا على تذكر هوية الأشخاص من ملامحهم، بالطبع وجهك يوحي أنك شرق أوسطي وابنك لا يحمل أي ملامح سوى البحر وكذلك الفتاة، من الجيد أنك لست صينيًّا أو روسيًّا إذ لقتلتك على الفور. لقد أمضيت حياتي في الحرب، أحارب ضدهم مع التكتل الأمريكي حتى انهارت الأرض ولم أنجُ إلا بفضل غواصتي، لقد كنت ضابطًا رائعًا وصيادًا ماهرًا لسفن الصينيين.

- سيدي لقد كنت في الحرب من فرق الإغاثة البحرية لانتشال الجرحى والقتلى من موقعة تيتان وموقعة برمودا، وانتشلت العشرات من الجرحى الإنجليز.

اقترب أوين بعنفوان شديد واحتضن إسكندر وهو يقبله من رأسه، فظن الأخير أنه ممتن مما فعل، وابتهج ميجاس قليلًا، حتى رمقهما أوين بنظرة استهزاء تحمله في ثناياها احتقارًا.

- أنقذتهم من الغرق في ساحة المعركة وأرسلتهم ليغرقوا مع عائلاتهم ومدنهم بأسرها! رائع يا صديقي! في المرة المقبلة لا تكرر ذلك المعروف مجددًا، فلن يدين لك أحد بالعرفان.

أعاد أوين النظر نحو المركب يتأمله مجددًا ثم أشار لرجليه بعدما أشاح عينه عن إسكندر وابنه.

- تعرفان ما عليكما فعله يا ذئاب، احصلوا على ما يمكن الحصول عليه من طعام وشراب.

- سيدي أناشدك أن تُبقي لنا شيئًا، ما زلنا في طريق مجهول لا نعرف ما سبيل الخلاص منه.

لم يكن إسكندر قد أنهى توسله حتى صفعه القائد فأسقطه أرضًا مدرجًا بدمائه، وأخذ ميجاس يبكي ولم يفعل شيئًا، في حين لمح نظرة احتقار من إيفا كونه لم يُظهِر بعض الرجولة التي يدَّعيها لها كل يوم، والرجال يخرجون بالحيوانات وزجاجات المياه ينقلونها إلى الغواصة وفي المقابل أخرج القائد قضيبه وهو يعتبر سطح المركب مرحاضًا يفرغ فيه قذارته.

- منذ وقت طويل لم أحظَ بتجربة التبول أسفل الشمس المنعشة، اعتبروا ذلك هديةً بسيطةً لتتذكروني بها.

حدث كل ذلك وإسكندر يتماسك ليقف وميجاس تكاد دموعه تنهمر لولا وجود إيفا ويحاول الحفاظ على الرمق الأخير من رجولته، لكن إيفا كانت تدرك حقيقة خوفه وجزعه، وعاد القائد ليسند إسكندر ليقف ويمسح الدماء عن فمه.

- عفوًا يا سيد إسكندر، أنت رجل وقور وأنا أبجلك رغم عدم معرفتي بك وأحترم شجاعتك رغم كونك لا تعرفني، فمثل ما فعلتَ أجازى عليه بالقتل، ولكن لم أفعل هذا معك. والآن اسمع ما لدي، ستكمل طريقك نحو مقاطعة نوح، ستحتاج مع محركك إلى 20 ساعةً لتصل، لقد تركته رغم قيمته فقط لتوصل رسالة لي إلى المجلس الحاكم للمقاطعة، أخبرهم أن المهلة التي منحتُها لهم متبقٍّ فيها دورة قمرية واحدة مع سطوع بدر الشهر القادم، وإذا لم يفعلوا ما طلبت فسأدمر المقاطعة عن بكرة أبيها. والآن بعد ما أنهينا مهمتنا لديكم، أقترح عليك أن تسرع في الوصول قبل أن ينهش الجوع والعطش أوصالك.

فور أن أنهى الربان أوين كلماته تراجع هو ورجليه نحو الغواصات وقد أنهوا ما جمعوا في سنوات من سجائر ومياه وطعام وخنازير للتربية، لم يبقوا سوى اللوحات والتحف الفنية التي لا تساوي قيد أنملة لديهم، وظلت إيفا

ترمق ميجاس باستنكار وهو يبعد عينيه عن رؤيتها، ومسح إسكندر الدماء وصاح سريعًا:

- لا وقت للنحيب! إذا لم نصل إلى مقاطعة نوح فسنهلك في البحر جوعًا وكمدًا، ساعداني لننجو وبعد ذلك أشفقا على أنفسكما.

دخل إسكندر إلى قمرة القيادة وتبعه ميجاس وإيفا فقط لمحاولة أخيرة لينجوا مثلما يفعل البشر كل يوم للهروب من براثن الحياة.

***

الظلام حالك والبحر أشد اسودادًا، نجوم السماء تناثرت وضوؤها لا يكفي لينير مشكاة، المركب الفاره متوقف في عتمة الليل فلا قوة لأحد ليقود أو يتابع الطريق، فمنذ حادثة السطو مر أكثر من 35 ساعة في البحر دون طعام أو ماء مع طاقة بدأت بالنفاد، فالجماد الكبير منهك والبشر على متنه يلفظون أنفاسهم الأخيرة. إيفا وميجاس يجلسان على الأرض لا حول لهما، لا يستطيعان حتى تحريك أذرعهما، أما إسكندر فكان الوحيد القادر على الوقوف والترنح بصعوبة وذلك لخبرته في الغوص لساعات طويلة تحت المياه دون طعام مع مجهود خارق.

- هل سننجو يا أبي؟

بصعوبة قالها ميجاس وهو يستند برأسه إلى حائط حديدي وإيفا بجواره تنظر نفس نظرته المتلهفة إلى إجابة قاطعة.

- سننجو يا بني، لا أريد أن تقلقا، من الموكد أننا شديدو القرب من المقاطعة، ولكن بسبب الظلام لا نستطيع رؤيتهم، أجهزة الملاحة تعطلت ولكننا نسير على الدرب الصحيح.

لم يكن إسكندر نفسه يصدق ما يقول، فلا شيء يشير إلى نجاة قريبة،

لقد ضلوا طريقهم ولا طعام أو ماء موجود ليساعدهم في اتخاذ قرارات للعودة، وحتى السماء منعت نجومها من رسم طرق للشمال أو الجنوب أو أي وسيلة للاسترشاد للطريق، ولكن لا يستطيع قول ذلك.

- ما الفائدة إن هلكنا ونحن صامدون أو هلكنا ونحن متخاذلون؟! لن يكرمنا الموت لشجاعتنا، بل سيساوي بيننا ولا أحد سيشهد من منا صمد إلى النهاية، فقط سنكون عظةً وعبرة، هذا إن عثر علينا أحد، سنظل نطفو إلى الأبد.

بالحكمة نطقت إيفا رغم أنها تهلوس، ولكن أحيانًا يخرج الصدق من بين ضلوع اليأس، وقد أدرك إسكندر ذلك ولا حل سوى انتظار النهار لمحاولة الاسترشاد للطريق، ولكن بما وصلوا إليه من جوع وإرهاق فقد يبزغ النهار بعد غروب أرواحهم وقد تستطع الشمس على أجساد بالية.

- ليتني كنت مثلك يا أبي! ليتني كنت مثلك! لكنت صمدت إلى النهاية، لكنت واجهت، لا قيمة لرأي أحد، ولكن حتى تكون آخر لحظات حياتي هي الشعور بالأسى والخزي.

نظر الأب إلى ابنه الذي يحتضر وجال في عقله أب على شاطئ الإسكندرية يغرق عوضًا عنه، وأم وإخوة وأصدقاء يهلكون تحت أمواج البحر العاصفة التي تبتلع مدينته ووطنه وتغرق، وتذكر صديقه غوستافو الذي لم يستطع إنقاذه وغرق من أجل حفنة صقور نافقة، فجرى نحو ابنه وهو يتمالك نفسه حتى لا يسقط.

- اصمد يا ميجاس، لن ترحل أنت أيضًا، لن أجعل البحر يأخذك، هذه المرة أنا المنتصر يا فتى! فقط اصمد.

ابتعد إسكندر ليدخل إلى قلب السفينة، يحاول العدو ولكن قدميه تخونانه، فينزلق فيسقط، ينقلب المركب رأسًا على عقب، يبحث عن شربة ماء، يجد بعض تُحف الشيخ صقر فيبعدها، يجد لوحات كانت تساوي ملايين

وزخارف من عصور سحيقة فيلقيها بيده، فقط ما يريده شربة ماء، ورغم أن الماء يمتد أمام أعينهم حتى مدى أبصارهم فهو لا يصلح، سيبصقه ابنه ويلفظه ويجعله عطشًا أكثر. تخون إسكندر عينه فتبكي وتنهمر بالدموع، وليتها أيضًا ماءً صالحًا للشرب، لبكى ليروي ابنه حتى تدمى عينيه ولكنها أيضًا مالحة. يخرج إسكندر أصواتًا وهو يسقط داخل المركب، لا يقوى حتى على التألم، للأسف خارت قواه، الآن يسقط إسكندر ولا يقوى على القيام، يغلفه ظلام المركب وظلام البحر وظلام النهاية المشؤومة أكثر حلكةً وسوادًا من ذلك.

- سامحني يا بني، لقد انتهى كل شيء!

يقولها إسكندر بصوت هامس يشبه فحيح الأفاعي حتى أذنه لم تلتقطها، ولكن يتمنى لو سمعها ابنه ليعلم أنه حاول أن يفعل كل شيء، ولكن حتى كل شيء لم يكن كافيًا. أغلق إسكندر عينيه واستسلم أخيرًا لظلام دامس من جفون عينيه كنَبِيّ التقَمَه حوت في أعماق البحر، ولكنّ نورًا أبيض كبيرًا أطل من بين الظلام، فظن أنه المسيح يجذبه من يديه إلى جنة، جنة فيها أبوه لم يغرق وأم وعائلة لم يدفنهم البحر وصديق يحلق وسط الصقور، جنة سيكون فيها بجوار ميجاس ليعيشا وسط الرمال والتراب والأرض التي تمرد عليها دائمًا واليوم هو عائد إليها بكل حبور، اليوم هو يكره البحر الذي لطالمه خبل عقله.

22- وَلِلْوَقْتِ أَلْزَمَ يَسُوعُ تَلاَمِيذَهُ أَنْ يَدْخُلُوا السَّفِينَةَ وَيَسْبِقُوهُ إِلَى الْعَبْرِ حَتَّى يَصْرِفَ الْجُمُوعَ.
23- وَبَعْدَمَا صَرَفَ الْجُمُوعَ صَعِدَ إِلَى الْجَبَلِ مُنْفَرِدًا لِيُصَلِّيَ. وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ كَانَ هُنَاكَ وَحْدَهُ.
24- وَأَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ قَدْ صَارَتْ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ مُعَذَّبَةً مِنَ الأَمْوَاجِ. لأَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ مُضَادَّةً.
25- وَفِي الْهَزِيعِ الرَّابِعِ مِنَ اللَّيْلِ مَضَى إِلَيْهِمْ يَسُوعُ مَاشِيًا عَلَى الْبَحْرِ.
26- فَلَمَّا أَبْصَرَهُ التَّلاَمِيذُ مَاشِيًا عَلَى الْبَحْرِ اضْطَرَبُوا قَائِلِينَ: «إِنَّهُ خَيَالٌ». وَمِنَ الْخَوْفِ صَرَخُوا!
27- فَلِلْوَقْتِ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ قَائِلًا: «تَشَجَّعُوا! أَنَا هُوَ. لاَ تَخَافُوا».
28- فَأَجَابَهُ بُطْرُسُ وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتَ أَنْتَ هُوَ، فَمُرْنِي أَنْ آتِيَ إِلَيْكَ عَلَى الْمَاءِ».
29- فَقَالَ: «تَعَالَ». فَنَزَلَ بُطْرُسُ مِنَ السَّفِينَةِ وَمَشَى عَلَى الْمَاءِ لِيَأْتِيَ إِلَى يَسُوعَ.
30- وَلكِنْ لَمَّا رَأَى الرِّيحَ شَدِيدَةً خَافَ. وَإِذِ ابْتَدَأَ يَغْرَقُ، صَرَخَ قَائِلًا: «يَا رَبُّ، نَجِّنِي!»
31- فَفِي الْحَالِ مَدَّ يَسُوعُ يَدَهُ وَأَمْسَكَ بِهِ وَقَالَ لَهُ: «يَا قَلِيلَ الإِيمَانِ، لِمَاذَا شَكَكْتَ؟»
32- وَلَمَّا دَخَلاَ السَّفِينَةَ سَكَنَتِ الرِّيحُ.
33- وَالَّذِينَ فِي السَّفِينَةِ جَاءُوا وَسَجَدُوا لَهُ قَائِلِينَ: «بِالْحَقِيقَةِ أَنْتَ ابْنُ اللهِ!»

[متى 14: 22-33]

النور يغشى عين إسكندر، ما زال النور الأبيض يشتد ويتوهج نوره، كان النور ضئيلًا وهو يموت على السفينة ويغلق عينيه إلى الأبد، ولكن النور الأبيض الآن يتعاظم، حاول أن يفتح عينيه ولكن لم يستطِع، هل هذا نور الجنة؟ هل حقًّا هو في طريقه إلى الفردوس؟ ولكن ما عساه فعل بحياته ليظفر بتلك النهاية السعيدة؟! هل يشفع لنا بؤس الحياة؟ هل يشفع لنا الحزن والدموع مثلما تشفع لنا الصلاة والصوم؟

تلك المرة فتح إسكندر عينيه، لم يستطع النظر إلى الأعلى أو إلى الأمام، فأخفض رأسه إلى الأسفل أدنى من أخمص قدميه، لكن عاجله ما رأى، فقد وجد نسخةً أخرى من إسكندر أسفله والأرض تفصل بينهما كأنها لوح من زجاج! لقد أخبرته أمه تريزا من قبل أن أرض الفردوس تشبه اللؤلؤ والمرمر وأصفى من الحليب الأبيض، ولكن ما إن رفع إسكندر قدمه ليبتعد عن صورته التي يدهسها بقدمه وجد الماء أسفله يصنع موجات صغيرة، شهق في فزع فهو لا يقف على أرض صلبة، بل على صفحات من الماء، رفع عينه أعلى قليلًا

ليجد الماء يحيط من كل جانب، حتى آخر ما تراه عينه فقط ماء من جوانبه الأربعة فهو يسير على البحر.

تعجب إسكندر، فالجنة فيها أنهار، ولكن هل البحر هو الجنة؟ فكيف هو الجحيم إذًا؟ وهل هكذا نجونا أم صرنا مقحمين ومنكبين على وجوهنا في الجحيم الذي ظن أنه من النار ولكن اتضح أنه من الماء؟!

هرول إسكندر وهو يتماسك حتى لا يسقط في الماء وقدماه العاريتان تبتلان، ورغم ذلك فالماء يداعب قدميه، إنها أروع من أي أرض وطأها يومًا ولوقت طويل، ظن أنه أعوامًا أو دهرًا كامل يجري ولكنه لا يكل ولا يتوقف، حتى لاح شيء ما أمامه، لا تتبين عينه ملامح ما يرى، فظل يجري على الماء حتى بدأت معالم الصورة في الوضوح، لقد كانت مدينة أرضية، ويبدو أنه يتذكر ملامح تلك المدينة رغم مرور أعوام، لقد كانت الإسكندرية بتفاصيلها القديمة قبل أن يأكلها البحر، وعلى شاطئها يقف أشخاص لا يتبين ملامحهم، ولكن مع كل خطوة على الماء تتضح وجوههم، لقد كانوا أبويه وإخوته وماريا البولندية وغوستافو، ولكن لم يكن ميجاس بينهم، فتصاعد توتره وقلقه وظل يجري حتى يعرف أين هو من جنته المزعومة.

- أبي!

سمع إسكندر صوت ميجاس ولكن بدا كاستغاثة، فنظر حوله ليبحث عنه في كل الاتجاهات حتى تردد الصوت من أسفله، فنظر إلى قدميه مجددًا ليجد ميجاس تحت الماء يستغيث وهو يحاول التنفس ولا يستطيع، فتوقف إسكندر وهو بالكاد أمامه خطوات ليصل إلى رمال الإسكندرية، وهبط بجسده على المياه يضربها بيده ليحاول اختراقها وإنقاذ ابنه، وأصوات الواقفين على الشاطئ تحاول نهيه عن فعل ذلك ويشيرون بأيديهم ليتوقف، ولكنه يستمر في الطَّرق بكلتا يديه حتى بدأت المياه في التصدع وأخذت تنكسر أسفل يديه، حتى تشمل آلاف الأميال وينكسر البحر بالكامل. يستطيع إسكندر أخيرًا سحب

ميجاس من الفجوة تحت المياه، ولكن ما إن مسح الماء عن وجه ابنه وجده وجهه، فضربت المفاجأة أوصاله، إنه إسكندر يمسك بإسكندر، فأبعد وجهه عن عينيه ليرى عائلته وأصدقاءه يغرقون على الشاطئ والمدينة تتلاشى تحت المياه التي كسرها بيده، فحاول إسكندر الابتعاد عن ذلك الجحيم الذي ظنه الجنة، ليجد نسخة إسكندر التي أنقذها تسحبه معها إلى الأسفل إلى قاع البحر، في لحظات يصرخ.. يستنجد.. يستغيث.. ولكن لا شيء سينقذه لأنه يقتل نفسه في ظلام البحر وبرودته.

***

- ميجاااااااس!

صرخة عظيمة مدوية صدرت من غرفة صغيرة بالأيقونة، ولكن من المحتمل أن يكون صداها تردد في كل أرجاء المقاطعة نوح.

فتح إسكندر عينه وقد تبدد النور الساطع بإضاءة كشافات صغيرة صفراء تكشف جنبات الغرفة، نظر إسكندر حوله ليرى نفسه نائمًا على سرير وثير يعتليه غطاء ثقيل يمنع عنه برودة الهواء القادم من مكيف هواء في أعلى جدار الغرفة. تأمل إسكندر بصعوبة وجوه الجالسين حوله ليجدهم ميجاس وإيفا، وبجوارهما رجل لا يعرفه تبدو ملامح الهيبة عليه، ورجل يرتدي بالطو أبيض يراقب محلولًا طبيًّا وُضِع في ذراعه مع أجهزة طبية بجواره تقيس نبضات القلب والضغط وغيرها. يبتهج الجميع فور رؤيته، يفتح عينه وعلامات التعجب والاندهاش ما زالت باديةً على وجهه.

- وأخيرًا استيقظ البطل!

تحدث الرجل الماثل بجواره بالبالطو الأبيض وما إن تحدث تهللت أسارير الموجودين.

- لقد تسبب الجوع والعطش مع الحالة النفسية السيئة في هبوط بضغط

الدم، ولكن الآن تحسنت صحتك كثيرًا واستردتَّ عافيتك.

أنهى الطبيب كلماته وغادر الغرفة بعد إشارة من الرجل الجالس المتبسم المكتنف بالصمت، ثم توجه ميجاس نحوه ليقبل رأسه ويحتضنه برفق حتى إيفا تحولت نظرتها المتحدية له إلى نظرة امتنان وإعجاب.

- ما الذي حدث؟ هل نجونا؟

كاد ميجاس بتلهف يجيب لولا أن الرجل الصامت هو من بادر بالإجابة.

- في ليلة منذ 3 أيام عثرت عليكم جوالة نوح، وهي فرق الحماية والاستكشاف الخاصة بالمقاطعة، كنتم جميعًا داخل المركب تحت الإغماء من الجوع والعطش، فسحبنا المركب نحو المقاطعة، ومن حسن الحظ أنكم كنتم بالقرب منا على بُعد أميال بحرية لكن الظلام حجبنا عنكم وحجبكم عنا، ومنذ وصولكم قدمنا الخدمة الصحية لكم، وفي اليوم التالي أفاق ميجاس وإيفا، أما أنت يا سيدي فقد استمرت غفوتك يومين متتالين حتى أفقت من كبوتك.

رفع إسكندر رأسه قليلًا يتفرس وجه الرجل المتكلم بلكنته الإنجليزية الإيطالية، ليجده رجلًا في الستينيات من العمر بشعر طويل يغطيه بقبعة كبيرة ويرتدي بدلة سوداء وحذاءً أنيقًا كأنه خرج توًّا من أفلام المافيا الإيطالية بموسيقى فيلم الأب الروحي.

- هل أعرفك يا سيدي؟

- كيف لا تعرفني وقد جئت من أجلي؟! أنا السيد فرانشيسكو الذي قطعت تلك المسافة من أجله ومعك هدية السيدة دكوكو، لا تقلق، لقد حصلت على هديتي من المركب بعد إخلائكم.

- ولكن كيف عرفت يا سيدي أن ما معنا من أجلك؟

- لا تشغل بالك بتلك الأسئلة، الآن فقط نحمد الرب أن الهدية وصلت سالمة، أخبرني ابنك ميجاس بما حدث معكم ومن ذئاب البحر ونهبهم للطعام

والماء، ولو كنا تأخرنا قليلًا لكان هلاككم في البحر حتميًّا.

- هل أخبرك ميجاس بتهديدهم؟ لقد أوصلوا معنا رسالة مقابل ما سلبوا.

- نعم، إنهم يظنون أنهم قادرون على إرهابنا، هؤلاء الحشرات لم يكتفوا بسلب مؤن قوات حرس نوح وحرس بوسيدون وأطلانتس، واليوم يوجهون إلينا تهديدًا مباشرًا، لكن سنتعامل مع ذلك التهديد، غدًا ستتوجه قوات نوح بعدد من الفرقاطات البحرية والغواصات لدحرهم والقضاء عليهم إلى الأبد.

- نعتذر يا سيدي عما تسببنا به، لا نعرف ما ينتظرنا.

- بل نحن من ندين لكم بالاعتذار أن يكون هذا استقبالكم وما تعرضتم إليه من أجل تقديم هدية دكوكو، سيدي إن سمعتك تسبقك في كل أرجاء البحر، أنت من أشهر غواصي العالم وبطل من أبطال الحرب الكبرى، لذلك مقاطعة نوح ترحب بوجودك أنت وعائلتك ونقدم لكم الكثير من الامتيازات التي يحظى بها سكان المقاطعة، وأن تصبحوا من أفراد عائلتنا الواحدة التي تقبل الجميع، وهذه أبسط طريقة أعبر بها عن امتناني على موافقتك جلب هديتي التي أدخلت السعادة والسرور إلى قلبي من اليوم وحتى مماتي، وأتمنى لو أنني بصحة جيدة لأصطحبك في رحلة في أرجاء المقاطعة نوح.

وقف السيد فرانشيسكو تبجيلًا واحترامًا وهو ينحني نصف انحناءة قابلتها نظرة انبهار من إيفا وميجاس، وأمام احترامه الشديد ورغبته في رؤية المقاطعة تحسس إسكندر جسده وشعر أنه قد استعاد عافيته ليقف وأنه قادر على أخذ جولة.

- أريد بالفعل أن تصطحبني يا سيدي لرؤية وطني الجديد.

ابتهج فرانشيسكو فيما قام إسكندر من السرير، حاول ميجاس مساعدته ولكنه قدر على الوقوف بمفرده، وشعر للحظات بصداع شديد يضرب رأسه، ولكن سرعان ما تلاشى حتى إن الجميع شعروا به، لتتحدث إيفا أخيرًا:

- لا تقلق يا سيد إسكندر، لقد شعرنا جميعًا بذلك الوخز في الرأس عندما استيقظنا.

- أنا قادر الآن، هيا بنا لنخرج.

لحظات وانفتح باب الغرفة الإلكتروني، فتخلل هواء البحر بجسد إسكندر كأنما أعاد إليه القوة، والهواء في المقاطعة أكثر نقاءً من بوسيدون رغم أن البحر واحد. وحين نظر إسكندر وجد نفسه على ارتفاع كبير من البحر أكبر من أي مرة في حياته، فاندهش كثيرًا، وهنا تولى السيد فرانشيسكو مسؤولية حكي تاريخ ومستقبل المقاطعة، فأخذ بؤبؤ عين إسكندر يتوسع من هول ما يرى.

- مقاطعة نوح يا سيد إسكندر في العالم القديم هي منطقة إجلاء جنوب أوربا وشمال إفريقيا، استطاعت إجلاء الآلاف قبل غرق أوربا وإفريقيا بشكل كامل، أظن أنك تذكر أن قارة إفريقيا بفضل ارتفاعها عن البحر كانت آخر القارات غرقًا. استمدت المقاطعة اسمها من النبي نوح صاحب قصة الطوفان العظيم، وذلك لأن أغلب السكان إما مسلمُو الدول العربية ومسيحيُّو أوربا ويهودُ إسرائيل، وعلى مدار سنوات بعد الغرق تقبل الجميع فكرة أن هذا هو الملاذ الوحيد الآمن. نحن نتكون من تسع سفن عملاقة والمئات من السفن الصغيرة، نقطع دائرةً كبيرةً في البحر يصل قطرها إلى 10 كيلومترات، والسفينة التي نحن عليها اسمها "الأيقونة"، واحدة من أكبر سفن العالم وكانت الأكبر عام 2024. وإن كنت من محبي الأرقام فيمكنك قول إنها أكبر من تيتانك خمس مرات، وزنها يتخطى 250 ألف طن وطولها 1,200 قدم، صُمِّمت لتستوعب 80 ألف شخص، ولكن الآن يبلغ عدد سكانها 1,000 شخص تقريبًا. في السفينة كل شيء، يوجد بارات كثيرة، أماكن للعبادة إذا كنت ما زلت تؤمن بالأديان القديمة، يوجد كل ما تحلم به، وما زالت تقام لدينا بطولات لكرة القدم والرياضات كافة والمصارعة الحرة والرهانات، كل النشاطات التي

كان يمارسها البشر على الأرض نقلناها إلى هنا، الجيد منها والسيئ.

تأمل إسكندر بانبهار حجم السفينة الشاسع وارتفاعها الهائل عن سطح البحر، ثم نقل عينيه إلى بقية السفن في دائرة المقاطعة، ورغم أن السفن العملاقة بعيدة بالعين المجردة فلا واحدة منها تضاهي حجم الأيقونة، ومعظمها حاملات طائرات وسفن بضائع، ولا أصوات كثيرة في المقاطعة، فليست مكتظة بالسكان مثل بوسيدون ولا يعرف السبب.

- المكان هنا رائع، أكثر هدوءًا ونقاءً من مقاطعة بوسيدون، ولكن ما سبب قلة السكان في المقاطعة؟

- الحياة على المقاطعة تنقسم إلى مدتين زمنيتين، مدة ما بعد الطوفان ومدة ما بعد المجاعة.

- المجاعة!

لم يكن المتحدث إسكندر وحده، بل صاح ميجاس وإيفا بتعجب وفي وقت واحد، وثلاثتهم مندهشون، وهنا تبدل صوت فرانشيسكو الهادئ إلى صوت أكثر سخطًا ملبدًا بالذكريات السيئة فتنهد وقال:

- بعد أن اكتملت أركان المقاطعة كنا 10 سفن، وبعد عامٍ واحدٍ كان لدينا سفينة حاملة للحيوانات ومصادر الطعام، كانت تحمل 70% من مصادر طعامنا، وفي يوم غرقت آخر أرض على الكوكب في جبال جنوب إفريقيا، مما سبب موجة كبيرة ضربت المقاطعة، معظم السفن نجت وفقدنا عددًا قليلًا من السكان الذين سقطوا في البحر من الاصطدام، ولكن لم تكن تلك الكارثة الأكبر، فقد غرقت السفينة الحاملة للحيوانات ونفقت في البحر، وفشلت كل الجهود لإنقاذها. كان من الممكن أن ننجو لو التزم البشر بالهدوء وضبط النفس، ولكن الخوف والهلع جعلهم يتصرفون بطرق أكثر بشاعة من الحيوانات. في أيام قليلة تصاعدت وتيرة الأحداث في كل أرجاء المقاطعة، بدأ بعض الناس

بسلب بعضهم كل ما يملكونه، وبدأت أعمال الشغب والقتل والحرق، وكادوا يحرقوا المقاطعة بالكامل، لقد أكل البشر بعضهم أحياء! كانت أحداثًا تشبه ما حدث في آخر أيام الأرض في أثناء محاولة البشر للهروب من الفيضانات، وتضاءل عدد السكان من 68 ألفًا إلى 5 آلاف موزعين على كل سفن المقاطعة، لذلك نحسب تاريخنا الحديث من بعد تلك المجاعة.

فغر إسكندر فاه ولم يستطع التحدث، كذلك فعل الصغيران، في حين وجه فرانشيسكو تتلبَّسه ملامح الحسرة والحزن، والدموع خالطت مخاط أنفه قبل أن يمسحها كي يفقد وقاره.

- عفوًا، ليست كل الذكريات أهلًا لتذكرها، ولكن رغم قساوتها فمن دونها لا نعرف أنفسنا ومن أين بدأنا، كما أنها تساعدنا لتخطي ما يحدث بعد ذلك.

- ولكن كيف لم تصلنا أخبار من الدرونات عن تلك الأحداث؟

نطقها إسكندر بصوت هامس حاول حثيثًا أن يجعله مشفقًا لما حدث.

- لم يكن سكان أطلانتس وسكان بوسيدون بحاجة إلى سماع تلك الأخبار في ذلك الوقت، نعلم أن الناس تنتحر لديكم لأسباب أهون من ذلك، ونحن كَتُومُون بعض الشيء عن أخبارنا، ولكن تلك الأيام الثقال هي ما جعلتنا ما نحن عليه الآن من تقدم وسعادة، نحن نملك كهرباء لا تنتهي وطاقة شبه لا تنفد، أنتم تستخدمون الطاقة الشمسية والرياح ولكننا نملك أحدث ما وصل إليه البشر من طاقة تجعلنا نحيا دون قيود.

أنهى كلماته بابتسامة فبادله الجميع بابتساماتٍ محت ما قبلها من عبوس.

- يمكنكم الآن الراحة، لكل شخص منكم غرفة خاصة به فيها مكيف للهواء ونظارة تكنولوجية تعرض أفلامًا وأغانيَ من الزمن القديم وللدول

كافة، والكهرباء تعمل طوال الوقت، وكل الأماكن متاحة لزيارتها، ولا يوجد لدينا عملة أو مقايضة، ما تحتاجون إليه تحصلون عليه مقابل عملكم وخدمتكم لصالح أمن المقاطعة وخيرها. لا تتعجلوا، في الأيام القادمة ستعرفون كل شيء عن المقاطعة. وأنا أسكن معكم في نفس الطابق، إذا احتجتم إليَّ فستعثرون عليّ، احصلوا على قيلولتكم وليلًا سنحتفل.

اعتمر فرانشيسكو قبعته ورحل عائدًا، فيما وقف إسكندر يحدق نحو ابنه وإيفا، وكان تدفق المعلومات الكثير قد أرهق ذهنه أكثر من جسده فصار بحاجةٍ إلى راحة.

- سأخلد إلى النوم قليلًا يا أولاد، أنا سعيد بنجاتكم، عسى أن أستريح قليلًا لنحتفل ليلًا بنجاتنا!

اتبع إسكندر خطوات فرانشيسكو عائدًا نحو غرفته بظهر منحنٍ ينم عن تعب لم يبرح جسده بعد، وانتظرت إيفا ليبتعد لتتجه نحو غرفتها دون التحدث مع ميجاس، ولكنه أمسك بيدها قبل أن ترحل وهو ينظر إلى عينيها.

- إيفا، هل يمكننا التحدث قليلًا؟

- ماذا تريد؟

- منذ قدمنا إلى هنا كنتُ أول من استفاق، جلست بجوارك حتى اطمأننتُ أنكِ بخير، لماذا لا تتحدثين معي؟ هل فعلت شيئًا أغضبك؟

- لا داعي إلى التحدث عن الماضي ميجاس، فالكلمات لا تغير شيئًا، الكلمات لن تجعلك أنضج، لن تمسح دموعك التي بللت ملابسك أمام رجل الغواصات، ليتك كنت بربع شجاعة أبيك! حاول أن تتعلم منه يا ميجاس، واتركني وشأني، ستعثر على فتاة جديدة في العالم الجديد.

- إيفا أنا أحبك!

- وأنا لا أحبك.

لم تنتظر الفتاة لترى وقع كلماتها على ذهن ميجاس وعقله وقلبه، بل رحلت وقد شعرت أن كل الغضب وخيبة الأمل نحوه قد انتهت مع تلك الكلمات، والآن أدركت قيمة الكلمات في قتل شخص وهو ما زال يتنفس، وهو ما زال يظن أنه حي.

***

للمرة الأولى في حياة ميجاس يرى تلك الإضاءة المتعددة الألوان ليلًا، منذ مولده وهو يرى الليل مظلمًا حالكًا على سطح مقاطعة بوسيدون، فمع كل ليلةٍ يقطعون الأنوار ومعها ينقطع السهر وجلسات الأصدقاء وكل شيء، ويُفرَض صمتٌ وحجرٌ كئيبٌ على أرواح الجميع يدفعهم إلى الملل، ولكن كل هذا تلاشى من الليلة الأولى على سطح المقاطعة نوح.

سار ميجاس بجوار والده منبهرًا بالأضواء والسهر والناس ليسوا نيامًا والأضواء ترتفع إلى عنان السماء، انبهارًا أخرجه مما قالته إيفا صباحًا بعد مئات الأفكار التي خالطت عقله أن يقفز من سطح المركب وينهي تلك المأساة، ولكنه استجاب لرغبة والده في السهر وتفقد السفينة العملاقة، أما إسكندر فلا يقل انبهاره عن ابنه واستعادَ ذكرياتٍ سحيقةً أقدم من بوسيدون إلى أيام الإسكندرية القديمة، حيث السير على شاطئ المدينة ليلًا من منطقة قلعة قايتباي وحتى قصر المنتزه، يستمع للأغاني ويرى العشاق وبائعي الترمس والذرة ويسمع أصوات السيارات ومكبرات الصوت، ويد أبيه وأمه تصطحبانه للتنزه، ولكنه تذكر أيضًا أن عينه كانت مسلطةً على البحر، لم يركز على جمال الإسكندرية أو تلك اللحظة التي لن تعوض عندما كان بين أبيه وأمه، بل حلم بالغوص والهروب إلى البحر حيث الحرية الكاملة. ليته استمتع بتلك اللحظة ونسي كل شيء بعدها!

غادر إسكندر ذكرياته سريعًا حتى لا تتحول إلى كابوس خانق وانتبه ليد السيد فرانشيسكو وهي تشير نحو باب قاعة كبيرة ليدخلا إليها، فذُهِلا من حجم القاعة التي اتضح لإسكندر أنها مسرح كبير مكون من خشبة كبيرة أمامها عدد من الكراسي من عدة طوابق ونوافذ رؤية تصل إلى ثلاثة أدوار.

انبهر ميجاس من حجم القاعة وأدرك أن ذلك مسرح من الكتب التي منحها له والده ليقرأها ويتعلم عن العالم القديم، لكن القراءة تختلف كثيرًا عن أن يراه مرأى العين، كذلك انبهر إسكندر الذي لم يرَ مسرحًا منذ إغلاقها وتحوليها إلى ملاجئ إغاثة لمتضرري الحرب وتوقُّفِ كل شيء من الفن والأوبرا والمتاحف وكل شيء، حتى الكنائس ودور العبادة تحولت إلى أهداف عسكرية لقتل المدنيين، وهنا تذكر شيئًا هامًّا، أن البشر قد أحرقوا الأرض بالكامل قبل أن يأتي البحر ويطفئ رماد نيراهم، لم يستحق البشر الأرض يومًا، ولكن شرهم لم يتوقف حتى بعد سلب نعمتهم. جلس إسكندر وابنه في الخلف وعدد من الرجال والنساء المتأنقين يجلسون في الأمام، وتمنى إسكندر لو أنَّ ما سيُعرَض مسرحية كوميدية، ويا حبذا لو لشخص بخفة دم "عادل إمام" أو أي شيء يكسر كآبة الأيام الرتيبة، ولكن ما إن أظلم المسرح وأُسدِل الستار وفتح مجددًا وجدوا أنفسهم يحضرون عرضًا أوبراليًّا باللغة الإيطالية القديمة.

لم يفهم إسكندر أو ميجاس شيئًا من الأوبرا التي تتحدث عن قصة من الميثولوجيا الإغريقية، حيث إلهين من جبال الأوليمب يتعانقان، لأن إلهًا أبهر سيدةً بقوة عضلاته وفحولته، وفي النهاية عرف أن السيدة أحبت هرقل لأنه بشري من نسل الإله زيوس سيد الصواعق الذي منح ابنه قُوَّته، وأن هرقل لا يساوي شيئًا من دون وجود زيوس. لم يتحمل ميجاس الحقيقة فقام وغادر ساحة المسرح محدثًا جلبةً جعلت الحضور المستمعين ينظرون نحوه بازدراء وغضب، ولكن لم يقوَ إسكندر على المكوث من دون ابنه، فقرر أن يفسد متعة

العرض على الحضور ويغادر هو الآخر محدثًا ضوضاءَ رغم سيره على أطراف أصابعه حتى دخل من باب القاعة، فيما جلس السيد فرانشيسكو يكمل العرض، فلا حاجة له إلى سماع حديث بين أبٍ وابنه.

وقف ميجاس على سور السفينة ينظر إلى الأضواء والموسيقى الصاخبة المنبعثة من كل مكان، ولكن كل ذلك الضجيج لم يكن يضاهي حزنًا في قلبه لم يختبره قط.

- ماذا حدث يا ميجاس؟ إنها المرة الأولى لك التي تحضر فيها عرضًا مسرحيًّا، إن لم تستسغه فلنرحل أو لنجد شيئًا آخر نفعله.

التفت ميجاس إلى إسكندر وكانت الدموع تتدفق من عينيه كقطرات الغيث، حاول أن يكبحها بيديه ولكنه فشل.

- إنها لا تحبني يا أبي، أنها لا تراني رجلًا! منذ ما حدث على المركب وهي تنظر إليّ شذرًا واحتقارًا، لقد كنت خائفًا ومرعوبًا وتركتك تصمد بمفردك، من الجلي أنها لا تريد النظر إليّ، وأخشى أن تكون كذلك يا أبي، وقتها سأكره نفسي كثيرًا وسأتمنى لو يبتلعني البحر فلا تراني مجددًا!

احتضن إسكندر ابنه برفق وعفوية ومسح عنه دموعه.

- إنك الشيء الوحيد الذي يجعلني أتنفس يا ميجاس! وأنا فخور بك دائمًا، ولولا وجودك إلى جواري لما صمدت أمامهم، وصدقني خوفك كان واضحًا، أما أنا فقد كنت أنتفض من الداخل ومن الجيد أنني لم أبلل ملابسي.

ضحك ميجاس فتبعه إسكندر ونظرا إلى البحر المتلألئ بأضواء السفينة العملاقة، ومسح ميجاس دموعه ومعها حزنه.

- متى سنبدأ البحث عن الإسكندرية في الأعماق؟

- لقد أخبرني السيد فرانشيسكو أنه أرسل السفينة إلى مركز الإصلاح بالمقاطعة، لأن بها بعض الأضرار من جراء الهجوم والقذائف ولإدخال بعض

التحسينات، وبمجرد أن يفرغ الرجل منها سنبدأ بالبحث حسب خرائط الأقمار الصناعية.

- رائع! أريد أن أرى تلك المدينة التي نشأ بها أبي وبها رفات الأجداد، كما أنني أريد أن أرى الأرض التي لطالما حدثتني عنها، أن أتلمسها بيدي وأشعر بالتراب والرمال والطين وكل الأشياء التي حدثتني عنها، ليس فقط في الكتب ولكن في الحقيقة.

- ستراها يا بني، ستعود الأرض من جديد وستحيا لتراها أنت وأبناؤك وأحفادك وتُعمِّروها من جديد.

- لكن في البداية أريد أن أتعلم منك شيئًا هامًّا سيساعدني في البحث معك.

بتعجب نظر إسكندر وبتحمس سأل:

- وما الشيء الذي لم أعلمه لك وتريد تعلمه؟

فكر ميجاس قليلًا ثم قال:

- لطالما وأنا بجوارك أرى نظرة إعجاب وتوقير من الناس تجاهك، الجميع يعرفون مقدار قوتك، أنت المغامر الذي يشق البحر مئات المرات ولا مرة واحدة انتُصِر عليك أو رجعت مدحورًا، بل دائمًا تنتصر، حتى في الهزيمة الوحيدة خسرت صديقك وصمدت أنت، لقد علمتني الكثير عن البحر والأرض، ولكن ينقصني أن أصبح مثلك، أريد أن أكون مشابهًا لك في كل شيء يا أبي، وأن أتعلم كيف تبحر وكيف تنجو وكيف تفعل كل الأشياء المجنونة فتخرج منها ولا تهلك.

لم يصدق إسكندر ما سمع، زاغ بصره وجفَّ لعابه، كأنه جلس معه هو والصديق الصيني، إنه يقول ما أراد أن يسمعه بالضبط، كأنما شخص يلقنه كلماتٍ يريد أن يسمعها، ولم يتخيل أن يتحول الأمر إلى حقيقة بتلك السهولة.

- ما رأيك يا أبي؟

أخرج سؤال ميجاس أباه من اندهاشه وعينه تطلع نحوه، فقرر إسكندر أن يمرر أهم قاعدة في عقيدة واتشوان التي أخبره الصيني أن دونها لا تتم تلك المصاهرة.

- الشخص الذي أمامك وما وصل إليه يا ميجاس لا يمكن أن تصبح مثله بتلك السهولة، نحن لم ننشأ نفس التنشئة، عالمك يختلف كثيرًا عن عالمي، لقد شاهدت أبي يغرق أمامي، لقد هجرت الإسكندرية وتركت معها عائلتي وعبرت البحار والمحيطات للاستكشاف والغوص، لقد جربت الغوص في أماكن وعرة وفي أعماق مهولة حتى تكاد ترى كف يدك، لقد كان عملي في السابق انتشال الغرقى وبقايا جثث الجنود من الحرب العظمى، كنت أنتزع ذراع جثة من فم أسماك القرش، وفي العالم الجديد أنا مغامر بحر أواجه أعداءً من المغامرين قد يقتلوك ليسلبوك ما حصلت عليه. يكفي أن ترى عالمًا متهالكًا بالأسفل لتشعر أنك زهدت الحياة وما فيها كنباشي القبور في العالم القديم، ناهيك عن العواصف والأمواج وفقدان واجهة العودة. لقد هلك صديقي أمام عيني ولم أستطع إنقاذه، أنا أعيش كل يوم باحثًا عن سراب تحت البحر، وأعلم أن أمي قد تحللت هي وإخوتي، ولكن أبحث عن شيء لا أعرف هل سأكون سعيدًا عند العثور عليه أم لا، وإذا وجدت الإسكندرية وشوارعها ومدنها فهل ستكون بصورتها كالسابق أم تحولت من جميلة إلى مسخ قبيح. ليس لأنك تريد أن تصبح مثلي، فستصبح، ليس لأنك ابني فقد ورثت مني كل شيء، فأشياء كثيرًا لا يأخذها الأبناء من الآباء، لو أن أكبر كارثة عاصرتها بحياتك تتلخص في رجل مجنون يقود غواصة ويسرق الطعام فأنت في رغد من العيش، لا تظن أنكانك سترغب في مواجهة الحياة ولا تنتظر منها مقاومة شرسة، فهي لا تحب الخسارة حتى لو انتصرت على أحلامك وعلى روحك.

صمت ميجاس، لم يستطع أن يعقب على كلمات أبيه، لجأ إلى الصبر والتروي في قراره قبل أن يتكلم، في حين شرد إسكندر الذي تذكر كل الأشياء التي يحاول جاهدًا أن ينساها ولو لبضع لحظات.

- أريد أن أخوض التجربة كاملةً يا أبي، أريد أن أعرف كل ما مررت به، أنا أعرف كل ما جعلك عليه اليوم، فتلك الصعاب هي ما جعلك لا تُقهَر، هي ما جعل الجميع ينظرون إليك نظرة المهابة.

- هل تلك رغبة حثيثة منك لتصبح غواصًا ماهرًا أم غاية ترجو منها الوصول إلى قلب فتاتك التي هجرتك؟

بعزم وتصميم صاح ميجاس:

- لا يا أبي، سأتطلع إلى الأمام ولن أنظر خلفي، يوجد الكثير في العالم لاستكشافه، إن كانت إيفا لا تريدني فأنا أيضًا لا أريدها.

- حسنًا، كان من المهم أن أسأل ذلك لأعرف صدق نوياك يا بني، فإن كنت تريد أن تتعلم مني كل شيء وتخوض معي أشياء شاقة كهذه فيجب أن يكون شغفك نابعًا من عزيمة صادقة، وليس من أجل قلب فتاة.

هز ميجاس رأسه في إصرار وعينه لا تنطق بشيء سوى رغبة جامحة.

- استعد، أنت من اليوم سيصبح اسمك إسكندر الصغير!

***

في اليوم التالي استيقظ إسكندر في غرفته الخاصة في الصباح الباكر وشعر أنه لم يستكشف مقاطعة نوح أو حتى سفينة الأيقونة بشكل كبير، فقرر أن يصطحب نفسه في جولة في أرجاء السفينة وتناول وجبة الفطور، وعلى عكس بوسيدون فهنا لا يخزنون طعامهم أو يحصلون على حصة ليتناولوها في أي وقت، بل كانت أشبه بالسفن السياحية في الماضي، فلكل طابق من السفينة

مطعم خاص به يتناول سكان الطابق فيه طعامهم ويأكلون كما يريدون من الطعام، وإن كان أغلب المُقدَّم هو السمك بأنواعه، فإنه يوجد تنوع أكبر في الخضراوات والفواكه والأطباق المختلفة، لكن بكميات أقل لأنها ليست متوفرة بكثرة كصيد السمك. وشاهد إسكندر بنفسه عشرات من المراكب والسفن الصغيرة وهي تصطاد الأسماك في البحر وتخرج بكميات هائلة تكفي سكان المقاطعة الأقل بـ5 مرات من تعداد سكن بوسيدون، إذ سببت المجاعة التي تحدث عنها فرانشيسكو تقليلَ عدد السكان، ويبدو أنهم تعلموا من أخطائهم حتى يصلوا إلى تلك المرحلة التي يفيض فيها الطعام ويتنوع عما يحتاجون.

غادر إسكندر الغرفة فوجد العائلات تسير بجواره، رجال ونساء ومعهم أطفال يرتدون زيًّا موحدًا لأسماك شكلت بالإنجليزية كلمة "نوح"، ابتسم إسكندر وهو ينظر إليهم وتذكر كيف كان يذهب الآباء بأبنائهم إلى المدارس في الماضي، وتعجب الجميع لماذا يرتدي ذلك الرجل بدلة غوص جلدية وهم على السفينة، ولكن لم يعتد إسكندر تغيير ملابس الغوص طوال الوقت الذي قضاه في بوسيدون، حتى نسي ارتداء البذلات أو القمصان وغيرها. وفي الطريق شاهد من وراء الزجاج أن غرف الطابق بها صالة ألعاب رياضية يرتادها بعض الشباب والفتيات اليافعين، وما أذهله أكثر أنه وجد في الطابق مكانًا كبيرًا مقسمًا للأديان، فوجد صلبانًا ونجمة داوود مع مكان دون زخارف تقام فيه صلوات المسلمين، فاندهش لوجود بعض من الناس ما زالوا يؤمنون بمسيح مخلص مما هم فيه وأن العالم الغارق هو نبوءة بأنهم الصالحين وأن مَن غرقوا هم الطالحين، أو أنهم توهموا بالفعل لأن المقاطعة تحمل اسم نوح أن نبيًّا يقطن معهم في المقاطعة. ابتسم إسكندر في استهزاء، فمنذ سنوات طويلة وهو لا يؤمن بالأديان ولا شيء يجعله يصدق بوجود ملاذ من ذلك العالم، أو لعلهم يصبرون أنفسهم بوجود حكمةٍ ما مما حدث للأرض، ومن بين

الأشخاص الذين يضيئون شمعةً في نطاق الكنيسة تطلع شخص نحوه من الزجاج، فابتهج وخرج له في لحظات وابتسامة بلهاء على وجه.

- هل أنت السيد إسكندر المصري؟

تطلع إسكندر إلى وجه محدثه، كان رجلًا في الخمسينيات شاحبًا ونحيلًا جدًّا، ولم يمهله الوقت ليرد.

- لا تتعجب، فسكان السفينة يعرف بعضهم بعضًا، وأنت الوافد الجديد مع الشاب والفتاة، وقد عرفت من الحرس اسمك وجنسيتك القديمة. أنا مكرم عبد الشهيد، من مصر، كنت أعيش في القاهرة، تحديدًا في الأزبكية لو تذكرها.

- أهلًا بك، بالطبع أذكرها، وأنا كنت من الإسكندرية.

ابتسم الرجل كأنما عثر على كنز قديم، ثم بدل إنجليزيته إلى عربية لكنتها مصرية قديمة صدأت من قلة الاستخدام.

- أحسن ناس يا غالي، كنت زمان باطلع مع العيلة نصيِّف، مكانش فيه أحلى من بحر إسكندرية!

ابتسم إسكندر في استهزاء من ركاكة اللهجة وأيضًا من بلاهة الكلمات، فاليوم لا وجود لبحر الإسكندرية، بل بحر عظيم واحد لا يتبع لأحد.

- شكرًا يا سيد مكرم، أستمحيك عذرًا فأنا ذاهب لتناول الفطور.

- نعم بالتأكيد، لقد تناولت الفطور وأحب قضاء معظم اليوم في الكنسية، من الرائع لو شاركتنا الصلاة، كما أننا في الليل نتجمع أنا ومجموعة من مصريِّ السفينة نجلس ونتسامر، لدينا أصدقاء كثر، منهم محمود رجب كان وزيرًا قبل الكارثة، وأيضًا كريم منتصر من صناع المحتوى في وقت مواقع التواصل، ويوجد معنا كاتب ومؤرخ يسجل للأجيال القادمة عن مصر وحياة المصريين في المقاطعة وكانت له روايات منشورة، قد يمنحك واحدةً لتقرأها، اسمه محمد علي منصور، لا أعرف إن كنت تعرفه أم لا ولكن يشرفنا انضمامك إلينا.

لم يمهل إسكندر الرجل اللحوح وقتًا ليكمل عنفوان ذكرياته المتدفق، فقاطعه:

- شكرًا على الدعوة يا سيدي، أعدك بالتفكير فيها، هل فقط يمكنني الرحيل؟ فأنا أتضور من الجوع.

أفسح الرجلُ الطريقَ لإسكندر واكتفى بابتسامة ودودة لزجة، وابتعد إسكندر بالقدر الكافي حتى وصل إلى مطعم السفينة الذي يقع داخل قبة زجاجية عملاقة انكسر بعض زجاجها مما يجعل أشعة الشمس تنفذ إلى داخلها، وكان بها عدد قليل من الناس يتناولون فطورهم جالسين إلى طاولاتهم، مما يسر عليه إيجاد إسكندر الصغير، وكان يجلس معه فرانشيسكو، وقد بدت الحيرة على إسكندر من كثرة ظهور ذلك الرجل معهم، فقد حصل على ما أراده معهم.

- كيف حالك سيد فرانشيسكو؟

تكلم إسكندر وهو ينظر بعينه نحو طبقه الذي كان فارغًا، فتعجب من جلوسه وهو لا يأكل.

- بأفضل حال يا سيد إسكندر، أعتذر عن تطفلي، كنت قد أنهيت طعامي وعندما شاهدت ميجاس...

- إسكندر الصغير.

قالها ميجاس في تهذب فابتسم فرانشيسكو.

- اعذرني يا فتى، فقررت الجلوس قليلًا مع إسكندر الصغير نتحدث في أشياء كثيرة، والآن أود أن أعود إلى غرفتي، ولا تقلق إسكندر الصغير سيتحقق ما تريد، وأتمنى قبل مغادرتكما للتجول في البحر أن تشهدا معنا انطلاق قوات نوح لمواجهة غواصات الذئاب، إنها يا سادة حرب الخير والشر، أو بالأحرى دعونا نقول إبادة الخير للشر.

غادر فرانشيسكو الطاولة بعد كلماته الحماسية وهو يحمل طبقه الفارغ، فيما صعق إسكندر عندما نظر إلى إسكندر الصغير، فقد وجده ينزع شعره الطويل ليصبح مثله حليق الرأس والوجه، كما أنه يرتدي ملابس الغوص كإسكندر وتخلى عن الملابس العادية.

- ما رأيك يا أبي في إطلالتي الجديدة؟

- هل تظن أنك بتقليدي ستصبح نسخةً ثانيةً مني؟! يبدو أنك لم تسمع شيئًا مما تحدثنا فيه!

جلس إسكندر وهو يلتقط علبة تونة معلبة مع ملعقة بلاستيكية يلتهمها، وكان بجوارها قطعة من اللحم، مد يده ليأكلها مع التونة.

- لهذا اللحم مذاق مريع! لا تتذوقه.

وثق إسكندر برأي ابنه فلم يمد يده إليها، وقد كان لها بالفعل رائحة عطنة لا يتحملها، وظن أنها من لحم مجمد قديم ففقد مذاقه، فأجاب الابن على كلمات أبيه.

- تظن أنني فعلت هذا لأتشبه بك فقط؟! أنت مخطئ، فقط التخلص من الشعر الطويل سيجعل الغوص عملية أسهل، وارتداء ملابس الغوص الجلدية مريح ويجعلك دائمًا مستعدًّا لكل شيء، نحن نعيش في الماء.

ابتسم إسكندر من إفحام ابنه الصغير ليقرر تغيير مجرى الكلام وهو ينهي التونة.

- الرجل المدعو فرانشيسكو أصبح ظهوره متكرر جدًّا، لا أعرف هل يترصد لنا أم إنه مُكلَّف بمراقبتنا، علينا الحذر منه.

- لقد كان يتحدث معي عن التحسينات والإصلاحات في السفينة.

- لقد عاينت بنفسي التصليحات، كل شيء جديد، ولا جديد ليحكي عنه، إنه يحاول أن يجعلنا نبوح بأسرارنا.

- لقد حدثني في أمر ما، لقد قال إن كثيرًا من حرس نوح ذاهبين في الحملة

البحرية ضد الذئاب، وسيحدث نقص في حرس المقاطعة، فكان يسألني عن إيفا أن أحدثها في أن تتطوع مع الحرس حتى يعود الجنود، وبعدها تقرر أن تبقى أو تذهب لعمل آخر.

- وأنت ماذا أخبرته؟

سأل إسكندر في إصرار وانتظر حتى نطق إسكندر بالإجابة.

- أخبرته أن لا علاقة لي بالأمر، وأن صداقتنا انتهت منذ وصولنا، وأنه إن أراد ذلك فيمكنه محادثتها ليس أنا.

ذهب التوتر والحيرة عن إسكندر ووقف وهو يمسح فمه ويشير لإسكندر.

- أحسنت الفعل. الآن هيا بنا لنتحرك، سنُقلِع بالمركب الآن للبحث عن الإسكندرية، هل أنت مستعد يا إسكندر؟

وقف الابن وهو مبتهج ومتحمس بهيئته الجديدة.

- هيا بنا نكتشف الإسكندرية يا إسكندر!

***

أسفل السفينة الأيقونة اصطف عدد كبير من السفن على ميناء صناعي يحفُّ جراج السفينة الذي تحول إلى سُكنة عسكرية للجنود ومعبر حدودي خاص بها، ومن الوهلة الأولى عرفه الجنود والحرس، فهو الرجل المقطورة سفينته الفاخرة من عرض البحر ينازع الموت هو وابنه والفتاة التي كانت معهما، ولم يعرفوا أنه جاءهم بأنباء الكارثة والهجوم المحتمل من الذئاب، فأشار لهم ليأخذ سفينته وأظهر شارته وملابسه كمغامر بالبحر، فردوا عليه بإشارة للانتظار، وأخبروه أن ينتظر ساعتين حتى يرحل أسطول القوات المتأهب للحرب، فصعد إسكندر الكبير والصغير إلى شرفة الطابق الأول مع جموع الناس المحتشدين في كل أرجاء المقاطعة، ومن حاملة الطائرات في المقاطعة تحركت

4 قطع بحرية وكاسحتين للألغام يتبعون حلف الناتو القديم، إذ عليها شعارهم القديم الذي كان يتذكره إسكندر عن ظهر القلب من أيام الحرب.

وسمع أصوات الصياح والتهليل من كل سفن المقاطعة تُبارِك السفن المنطلقة وهي تحمل أعلامًا عليها اللون الأخضر -لون المقاطعة- وكُتبت عليها كلمة "نوح" بالإنجليزية، وظلت البوارج تبحر وتتبعها صيحات ومباركات السكان كأيام الحرب الخوالي والدعوات المقدسة لإهدار الدماء. ابتسم إسكندر في قرارة نفسه وتعجب أن معظم هؤلاء الناس شهدوا الحرب الكبرى التي دمرت العالم وأسكنتهم البحر عوضًا عن الأرض، ومع ذلك لا يزالون يهللون لدعوات الحرب والاقتتال، ولكن بعد ما فعله بهم الجنيرال أوين فهو خطر جاثم على تلك المقاطعة ولا حل سوى إبادته.

انتظر حتى ابتعدت المقاتلات عن الأنظار وهدأت أصوات العامة فنظر إلى ابنه قائلًا:

- الآن يمكننا أن ننطلق.

***

أوقف إسكندر الصغير محرك المركب حسب الإحداثيات الموضوعة، ثم خرج إلى أبيه الذي يرتدي ملابس الغوص ويجري الفحص الدائم كعادته.

- البحث عن الإسكندرية سيحدث على مرحلتين، هذه المرحلة الأولى، وأيضًا مرحلة أخرى، لقد اتجهنا ناحية الجنوب الشرقي من المقاطعة وابتعدنا 70 ميلًا بحريًّا، فإن فشلنا في البحث فستكون المرحلة الثانية على بعد 150 ميلًا بحريًّا، تلك الإحداثيات التي أخبرتني بها السيدة دكوكو.

- هل سيقتصر دوري على الحراسة؟

- ولماذا كنت أعلمك كل تلك المدى برأيك؟! ستنزل معي بالتأكيد.

شعر إسكندر الصغير بقليل من الارتباك وهو ينظر إلى البحر الممتد أمامه، الذي قد يبدو لطيفًا من الخارج لكنه من الداخل مخيف.

- هل تظن أنني مستعد بشكلٍ كافٍ لأغوص إلى أعماق كبيرة؟

- كنت أظن ذلك ويبدو أنني أخطأت!

قالها إسكندر بازدراء شديد وهو ينظر إلى الصغير الذي وقف يحاول التغلب على خوفه من نظرة أبيه أكثر من البحر.

- ومن سيحرس المركب في حال نزولنا؟

- مَن هنا ليهاجم أو يسرق؟! لقد شاهدت جيشًا ينطلق بالقرب منا ليهاجم الخطر الوحيد لتلك المقاطعة يتعرض للدحر الآن، والجميع على تلك المقاطعة يعيشون في رغد، فلا حاجة لديهم إلى مغامري البحر لينقبوا عن شيء يبيعونه مقابل الطعام ليسدوا رمق جوعهم، ونحن توقفنا عن حياة النهب والنبش، وإنما نخرج لهدفٍ سامٍ يجعل لحياتنا قيمة، لذلك إن كنت خائفًا فيمكنك البقاء هنا، وانسَ كل شيءٍ عن التشبه بي أو عن أن يصبح لحياتك قيمة أو أن تحظى بإعجاب فتاة، فقط ستعود إلى تلك الحظيرة لتحيا معاهم حياة الخنازير المترفة يا ميجاس.

كانت الكلمات قاسيةً شديدةَ اللهجة، سمعتها الدلافين التي تنطلق بجوارهما، كلمات جعلت إسكندر الصغير يستجمع قواه ويذهب ليرتدي أنبوبَ الأكسجين وبقية ملابس الغوص وهو ينظر إلى أبيه بتحدٍّ.

- أنا لست ميجاس، بل إسكندر الصغير!

ابتسم إسكندر أن كل شيءٍ ما زال يسير مثلما يريد، في حين كان الفتى يجهز بالكامل ونظر إلى عينه فوجد نظرةً مشابهةً لنظرته الأولى وهو يغوص في البحر لأول مرة، فوقف مندهشًا للحظات حتى أخرجه صوت إسكندر الصغير من ذكرياته.

- جاهز يا إسكندر؟

ابتسم إسكندر الكبير ولكن أبى القفز قبل أن يوجه نصيحة أخيرة إلى نصفه الآخر.

- افعل كل ما أفعله، ولا تُقدِم على فعل شيءٍ من تلقاء نفسك، فقط شاهدني وتعلم كل ما أفعل.

- قد تتعلم أنتَ مني، في النهاية مَن يعثر منا على شيءٍ قيمٍ ويصعد أولًا يربح.

ابتسم إسكندر، فهو يكتسب صفات الثقة المتحذلقة لديه، التي يسميها البعض غرورًا، ينكر ذلك ولكنه الآن صدقها وهو ينظر إلى صورته الأخرى في المرآة، وقريبًا لن يستطيع أحد التمييز بينهما.

وقف الاثنان مستعدين وهما يتجهان إلى حافة المركب وقفزا في الماء، إحساس الغوص في الماء ما زال له بريقه في قلب إسكندر، برغم كل شيء أنتَ داخل عالم الأرض أسفلك، وأنت في الأعلى كأنك طائر والسحب هي الماء، عالَم كبير أنت تقف على قمته أعلى من كل الجبال والطيور والسحاب وكل شيء، حتى أسماكه ووحوشه هم مجرد أصدقاء، قادر دائمًا على هدهدتهم، أن تجعلهم طواعيةً بين يديك، فقط تعرف طريقة التعامل المثالية معهم وكل شيء سيصبح يسيرًا.

أخذ الإسكندران في الهبوط إلى أسفل يفتشان بأعينهما وبكشافات معهما تضيء عتمة الماء، وبتعوُّد مثالي على نقص الضغط بالأسفل، في السفن وعلى الأرض أنت مجرد شخص يعيش وسط قطيع كبير، سواء كنت عبدًا لديهم أو قائدًا عليهم، فأنت ما زلت ضمن السرب، لكن في البحار أنت السيد والمالك، أنت الوحيد الأوحد، لا صوت يعلو عليك ولا أحد يُملي عليك الأوامر. كاد إسكندر ينسى ما جعله يعشق البحر ويمقت الأرض، ولكنه يتذكر واليوم هو

يبحث باستماتة معها. ظلا يهبطان إلى أدنى الأعماق السحيقة وضوء الشمس يتبدد مع كل نزول، ولكن لاحَ العمقُ قريبًا، لو كان إسكندر الصغير قادرًا على إخراج صوت لسمع الأب شهيق دهشة ابنه الذي شاهد كتلًا عملاقةً من الأرض تحت البحر، ومع كل اقتراب يرى جليًّا بقايا بيوت وطرقات وقطارات وسيارات تسكنها الأسماك عوضًا عن البشر، إنه يرى حضارة اضمحلَّت تحت المياه، فأشار لأبيه بلغة إشارة يفهمها الغواصون للتواصل تحت الماء، كأنه لا يراه فأشار له أن يبقى بجواره، واستمرَّا في الهبوط حتى اقتربا، فأشار إسكندر أن لا يلمس المنازل المنهارة أو السيارات إلا بحذر، فلقد أصبحت حاليًا منزلًا وملاذًا للأسماك الخطيرة

أصبحا أكثر قربًا من المدينة، فاتجه إسكندر كالمجنون يبحث عن أي شيء ليتعرف على تلك الأرض ويبحث عن أي شيء يعطيه معلومة ولو صغيرة عن ذلك المكان الذي قضى أكثر من 10 سنوات تحت المياه مما ساهم في طمس معالمه، يبحث عن كتابات على الحجارة، عن ألواح السيارات، عن بقايا هواتف أو ساعات أو لافتات طرق، عن أي شيء يهديه إلى ضالته. ولكن استمر البحث لساعات وهو يحاول العثور على البلاستيك الذي لا يتحلل بسهولة، عن أي شيء، ولكنه نسي شيئًا ما وأنه لم ينزل بمفرده، فنظر حوله بعد ساعات من البحث ليكتشف أن إسكندر الصغير ليس بجواره وليس موجودًا في أي مكان قريب منه، فجال بعينه بين الركام والحطام والبقايا، رفع كشاف النور إلى أعلى وحركه يمينًا ويسارًا عسى أن يهتدي الابن إلى مكانه لو انحرف عن الطريق أو ذهب للبحث في مكان آخر.

جال إسكندر بعينه وجسده أرجاء الماء، تصاعدت وتيرة أنفاسه وبدأ يفقد الأكسجين من فرط توتره، الحطام من أسفله والبحر الشاسع ممتد حوله والسطح في الأعلى خالٍ، لم يعرف لماذا في تلك اللحظة خطر في عقله الحلم،

لماذا أنار عقله بذكريات كانت يجب أن تُمحى مثلما تُمحى مئات الأحلام من رؤوسنا فور استيقاظنا. تذكر أن ميجاس وليس إسكندر الصغير كان يقف تحت المياه ولا يستطيع إنقاذه فيما عائلته بالكامل كانت تحذره من كسر البحر حتى لا يجرف الإسكندرية ومعها عائلته، ولكن لم يستمع لصيحات التحذير، ما معنى ذلك؟ هل ما زال أحد يصدق رؤى الأحلام وتفاسيرها؟ هل أضغاث الأحلام والرؤى المباركة تخطر لأحد في ذلك العالم؟! لقد رحل النبي يوسف والقديسون وما عادت الأحلام تتحقق، هل هلك ميجاس؟ هل أخذه البحر بجواره مثلما أخذ أبا إسكندر من أمام عينه، مثلما أخذ أمه وعائلته قبل أن يودعهم؟!

لطالما عشقك إسكندر أيها البحر، لماذا تفعل معه هكذا؟ لماذا تستمر في اختبار حبه وتعلقه وتأخذ كل غالٍ وعزيزٍ لديه؟ لماذا تمارس قوتك وسطوتك على من أحبوك؟!

- ميجاااااس!

في حركة متهورة رفع إسكندر أنبوب الأكسجين عن فمه وحاول أن يدوي بصرخة عظيمة، لكن مياه البحر ألجَمته وتسللت إلى فمه فأخرسته وأضاعت صوته الجهوري. أعاد ارتداء أنبوب الأكسجين وحاول البحث مجددًا في سائر البحر، ولكن أُطلِق صوتٌ من جهاز الأكسجين البلاستيكي على ظهره يشير إلى قرب نفاد الأكسجين وأن ما معه يكفي لصعوده إلى السطح فقط. نظر إسكندر إلى المدينة المترامية الأطراف أسفل أخمص قدميه، رائحة الخوف والذعر تتسلل منه وقريبًا ستجذب أحد حيتان الأوركا أو قروش النمر التي لن تفلح معها مراوغة الغواصين إذ ستلتهمه قبل أن يقاوم. نظر سريعًا عسى أن تتعثر نظرته الأخيرة بشيء يثلج قلبه، ولكن لم يرَ شيئًا فقرر الصعود إلى أعلى، ليس للنجاة وليس لأي شيء بل كي لا يقتله البحر هو الآخر.

استمر إسكندر في الصعود حتى وصل إلى السطح والشمس في غرة السماء

بين سطوع وغروب، فنزع النظارة والأنبوب وأجهش بالبكاء فيستسيغ البحر من ماء عينه المالح، لقد سمع أسطورةً عن قبائل المايا تقول إن عالمنا كان في يومٍ ما أرضًا فقط ولا شيء آخر، ولكن ما إن صنع الإنسان الحرب والخراب بكى الجميع فظلوا يبكون لأعوام، ومن المياه المالحة من دموعهم شُجَّت الأرض وفاضت الدموع فكونت البحار والمحيطات، لذلك فالبحر هو الابن الأول للحزن.

صرخ إسكندر صرخةً عظيمةً هربت منها الأسماك بفزع واستمر في البكاء.

- لماذا تبكي يا أبي؟ هل لأنك خسرت كالعادة؟

كبح الصوت صرخات إسكندر الذي التفت خلفه نحو المركب، ليجد ميجاس على بعد أمتار منه فوق قمة المركب يحمل لوحةً معدنيةً كبيرةً كُتِب عليها شيء لم يتبيَّنه، فشعر أنه لا يرى شيئًا ولا يدرك شيئًا حوله، وظل يسبح حتى صعد إلى المركب يتأمل ابتسامة ميجاس وهو يلوح باللوحة المعدنية الكبيرة يمينًا ويسارًا ويتبختر في حبور. وما إن وقف إسكندر أمامه مسح دموعه واسترق السمع للصوت الجاثم حولهما، ليقطعه بيده التي هوت على وجه ميجاس فأسمعت الموج القاصي والداني، ومن قوة الضربة سقطت اللوحة المعدنية من يد ميجاس، وقبل أن يقع خلفها احتضنه إسكندر بقوة حتى كاد يختنق بين ضلوعه، يحتضنه كأنما يحتضن الحياة بأكملها بين راحة يديه.

***

- ما رأيك بهذا العرض؟

لم يكن السيد فرانشيسكو سعيدًا قط وهو يكلم أحدًا لا يبادله النظرات، بل غارق في النظر إلى أرجاء الغرفة كأنها أول دقيقة له ولم يمكث بها منذ أيام.

- هل غرفتك ساحرة إلى تلك الدرجة التي تجعلك لا تنتبهين لكلماتي آنسة إيفا؟

- صدقني سيدي أنا أسمعك بوضوح، صوتك رغم هدوئه يصنع صداه الخاص في الغرفة الصامتة، أنا لا أستمع لصوتك بل لصداه في الجدران الحديدية. أتعلم، كنت أسكن في غرفة بنصف مساحة هذه، أنا وأمي وإخوتي، نكاد نسمع شيئًا من الضوضاء. لقد هربت من سجن بوسيدون الممل إلى الحرية، ولكنك يا سيدي تستكثر تلك الحرية عليّ وجئت هنا لتخنقني بزي عسكري وأصبح واحدةً من حرس نوح. فما الفرق بين السجن المعتم والسجن المليء بالأضواء في نظرك؟

- الأمر هنا مختلف كثيرًا، الحرس ليسوا سجناء، بل هم أكثر الناس حرية، أنتِ من تفرضين القوانين، ومَن يفرض القانون لا يُقيَّد به، ستتحركين بحريتك وتُلقِين الأوامر بدلًا من استقبالها، كما أننا بحاجة ماسة إلى الحرس، مجرد شهر واحد فقط حتى يعود جنودنا وبعدها يمكنك أن تقرري البقاء أو العودة إلى حياتك.

التفت إيفا إلى فرانشيسكو الماكث على كرسيه تتأمله.

- وما الحاجة إلى الحرس؟ المكان هنا آمن جدًّا، لا قتل، لا انتحار، لا سلب، لا نهب. الحياة هنا شبه مثالية والعدو الوحيد ذهبتهم لتُبيدوه، لا أظن أنه سيحدث شيء سيئ للمكان!

لم يستطع فرانشيسكو كتم ضحكاته الساخرة المستهزئة بكلمات الفتاة الصغيرة التي لم تعِ شيئًا في حياتها.

- يا صغيرتي، اسمحي لي أن أقول شيئًا من واقع ستين عامًا مكثتها في تلك الحياة، لقد كنا نظن أن أشياء كثيرة محال حدوثها، لم نتوقع أن تقوم الحرب وقامت وأبادت الكثيرين، لم نتوقع أن يضرب طوفان عظيم الأرضَ وتغرق وقد حدث، هل أكبر مشاكلك في الحياة هي الملل؟! إذًا ماذا تقولين لو أخبرتك أنني شهدت حربًا وطوفانًا ومجاعةً وتقاتُلَ الآلاف بالدماء ليظفروا

بمقاعد على تلك السفن قبل مغادرة الأرض؟ نحن لدينا شعار لنلتزم به، سنضحي بكل شيء يعكر صفونا ويهدد سلامنا، ولن نترك شيئًا مجددًا للمحال، فكل شيء ممكن وكل شيء مُتوَقّع حدوثه، وأظن أني هنا أعرض عليكِ ولست أخبرك بفرمان واجب الحدوث، لكِ مطلق الحرية في القبول أو الرفض.

حكت إيفا رأسها تفكر قليلًا في ذلك العرض السخي الذي لا يشوبه أمر، ولو كان كذلك لقدمت رفضًا مُنقَطِع النظير.

- هل يمكن أن آخذ جولةً قبل أن أقرر القبول أو الرفض؟

ابتسم السيد فرانشيسكو وهو يعتمر قبعته مجددًا.

- تفضلي معي.

***

- إنك لن تستطيع معي صبرًا!

- إسكندر أنا مستعد لفعل ذلك، لقد غطست بعمقٍ أكثر منك ووصلت إلى شيء ثمين وصعدت قبلك، هذا ما اتفقنا عليه قبل الغوص، لماذا تتراجع الآن وتحاول أن تقنعني أني مخطئ؟

- أنت تتصرف بتهور! إسكندر ما كان ليفعل ذلك، للأسف أنت ميجاس ولن تكون نسخةً مثل إسكندر يومًا!

- أنا لست ميجاس يا أبي، أنا إسكندر مثلك تمامًا، أنا وأنت متشابهان في كل شيء، لا يوجد غواص في العالم يضاهيك براعةً عني، لا أحد أولى مني أن يكون إسكندر.

- ستؤدي إلى هلاكك يومًا في محاولة إثبات أنك إسكندر يا ميجاس! ولكنك ما زلت بعيدًا، أنت لست أنا، لم تمر بكل ما مررت به، لن تحيا يومًا الأشياء التي جعلتني ما أنا عليه، كان من الحماقة أن تتصور أنك ستصبح مثلي،

وكان من حماقتي مجاراتك. هيا لنعُد إلى السفينة ولتصنع لنفسك حياةً مملةً بعيدًا عن البحر، كنْ أي شيء في المقاطعة عسى أن تجد شيئًا يومًا تبرع فيه عن كونك نسخةً مهترئةً من إسكندر.

تحرك إسكندر نحو قمرة القيادة ليعود أدراجه، فيما هوى ميجاس على قدميه راكعًا أمام أبيه وأصابع إسكندر ما زالت تحفر أخاديد حمراء على وجهه الأبيض.

- أرجوك يا أبي! أرجوك يا إسكندر! امنحني فرصةً وحيدةً فقط لأثبت لك أنني جدير بحمل اسم إسكندر وأن أكون امتدادًا لأعظم غواص ومغامر في أرجاء البحر، جلُّ ما أريده فرصة وحيدة.

وقف إسكندر يتصنع التفكير حتى نظر إلى عين إسكندر الصغير وتيقن أنه قد ينجح في نقل روحه إلى ميجاس حتى يتلاشى ويتبدد ويحل إسكندر مكانه، إسكندر الذي سيعثر على الإسكندرية التي يُقدِّر قيمتها أكثر من ميجاس، إسكندر الذي سيتعرف على رفات أمه وعائلته وبيتهم القديم بعد صعود الأرض حتى لو تغيرت ملامحهم، وليس ميجاس الذي لم يعهدهم يومًا ولم يعرف أشكالهم، سيستمر إسكندر الذي يستحق الحياة ويستحق الخلود وسيورث إسكندر روحه إلى إسكندر آخر، وهكذا حتى يبقى إلى الأبد، إلى أن ينطفئ نور الشمس ويغرق الكون في ظلام دامس وبرودة لا تندثر.

- أخبرني، على ماذا عثرت يا إسكندر؟

ابتسم إسكندر وقام على قدميه وهو ينظر إلى إسكندر الكبير الذي ابتسم له وعفا عما فعل، فهرول نحو اللافتة المعدنية التي سقطت من وقع الصفعة وعاد بها نحوه، لينظر بها بصعوبة يحاول أن يستشف ما كتب عليها، ويبدو أنها كانت باللون الأزرق ولكن تلاشى، فمرر أصابعه عليها مكان الكلمات ليصيح إسكندر الصغير:

- لقد حاولت ذلك قبلك وبفضل كتب اللغة العربية التي تعلمت منها طوال السنوات استطعت معرفة المكان المكتوب عليها، ولكن لم أعرف المقصود بها، لقد كتب عليها "رأس البر".

لم يصدق إسكندر ما سمعه وتبدل الحزن والقلق الذي أصابه من جراء ما فعله إسكندر الصغير إلى سعادة وفرح يشوبه الحيرة.

- رأس البر هي مدينة مصرية في محافظة دمياط، إنها مدينة ساحلية، كانت تطل على البحر المتوسط وهي تبعد عن شريط الإسكندرية بعشرات الكيلومترات، أتعرف ما معنى ذلك؟

- أننا صرنا بالقرب من الإسكندرية.

هز إسكندر رأسه في سعادة كاد يبكي من فرطها.

- حسنًا، هل نكمل بحثنا يا إسكندر؟ أنا متشوق جدًّا.

- لا يا إسكندر الصغير تريث قليلًا، سنحتاج إلى العودة إلى المقاطعة لنجمع طعامًا وماءً وأكسجينًا ومعدات، ستكون مغامراتنا القادمة غزو الإسكندرية، سنحتاج إلى كل المؤون والعتاد والاستعداد لها جيدًا، سنضع خطة واستعدادات لإيجاد الإسكندرية.

- حسنًا أيها الإسكندر الأكبر، لتستعد الإسكندرية لعودة كبيرها وغازيها، سأذهب لأضع إحداثيات المكان الذي نحن فيه على الخريطة حتى نحدد أقرب وجه للإسكندرية من موقعنا.

- انتظر يا إسكندر الصغير.

قالها الإسكندر الأكبر وهو يتماسك حتى لا تنهمر دموعه، تخيل أن الإسكندرية تخرج من البحر لاستقباله، وأن عائلته تتزين من أجله، وأن كل شيء عاد مثلما كان، الشوارع والبيوت والزحام على الكورنيش والمقاهي ومحلات الأكل والباعة الجائلين وكل شيء خلفته إسكندرية. نظر الأكبر إلى الصغير وقال:

- لقد قطعت ما لم أقطعه أنا، أنت تستحق لقب إسكندر بصدق، واغفر لي ما قلته لك. والآن يجب أن نردد نشيد المغامر، هل تذكر كلماته؟ ذلك الذي كنت أقوله مع الراحل غوستافو، أريد أن أردده الآن بمفردي فقط، أنا وأنا يا إسكندر.

مد إسكندر الصغير يده بسعادة كما مد الأكبر لتتشابك معه ويرددان النشيد:

- أنا العاصفة.
- في البحر الهادي.
- أنا الراسي.
- في البحر العاتي.
- أنا النسر في السماء.
- أنا القرش في البحر.
- أنا سيد البحر.
- وحتى تعود الأرض.

***

أمام مرآة دائرية وقفت إيفا تتأمل ملابسها الجديدة المكونة من بدلة غوص من مادة النيوبرين، فوقها جاكت إنقاذ للحياة منتفخ، وبيديها حربة بحر كسلاح، وفوق رأسها نظارة بلاستيكية كبيرة. لا تختلف الملابس كثيرًا عن رداء حرس بوسيدون، ولكن يزيد عليها شعار مطبوع على صدورهم، عبارة عن لوحة لرجل يقف بظهره يرتدي الأبيض ويحمل عصا بيده يشير بها نحو مركب عملاق يتجه نحوها عدد من الحيوانات والبشر. لم تكن إيفا لترتدي من ملابسها حتى دخل السيد فرانشيسكو ومعه السيد إيفان قائد الحرس، الذي كان في يوم ما قائد عسكري في بيلاروسيا، وكان ضخمًا جدًّا يتخطى طوله مترين، وبشارب

كثيب وملامح بيضاء وشعر أصفر قصير وملامح غليظة، ويرتدي نفس ملابس إيفا ولكن يتفوق بشارة نوح على كتفه المشيرة إلى رتبة أعلى.

- ثلاثة أيام يا فتاة لتقرري إن كنتِ ستنضمين إلينا أم لا! يبدو أنكِ ستأخذين كثيرًا من الوقت والتعب لتعتادي الحياة العسكرية، لولا إلحاح السيد فرانشيسكو وما يمثله هذا الرجل للمقاطعة لرفضت انضمامك.

لم يبدُ على قسمات وجه السيد إيفان أنه يمزح أو حتى يقول محض كلمات، بل لو تجسدت الحقيقة على وجه إنسان لَما اختارت أفضل من إيفان، الأمر الذي أغضب إيفا فعبس وجهها، وقرأ السيد فرانشيسكو على وجهها أنها ستتراجع وتنزع زيها العسكري فقرر أن يتدخل.

- هون عليك يا قائد إيفان، إن إيفا مجرد فتاة يانعة الشباب لم تختبر الحياة العسكرية قط.

- حسنًا يا سيدي، سأجعل الملازمة ميلينا تصطحبها إلى مقر عملها.

ما إن انتهى من كلماته نقر إصبعيه ببعضهما كإشارة لتدخل سيدة في بداية الأربعينيات من العمر، ذات جمال فاتر، رتبتها أقل من إيفان ولكن بالتأكيد أعلى من إيفا، تبادلا النظرات معًا.

- الجندية إيفا من اليوم تحت إمرتك، اصطحبيها إلى مقر عملها الجديد واجعليها تعرف كل شيء عن الحياة العسكرية.

دون كلام قدمت ميلينا التحية العسكرية المتمثلة في رفع الذراعين ثم هوَتْ بقوة على الفخذين، وأشارت لإيفا لتتبعها، فسارت خلفها، وعين فرانشيسكو تبتسم وعين إيفان تحتقر، وحين خرجتا من الغرفة فكت ميلينا العبوس وعادت لتبتسم وهي تنظر إلى البحر من الطابق الأول حيث مقر الحرس.

- ابتسمي يا إيفا هذا أمر، لقد خرجنا من غرفة الأوامر والرائحة العطنة،

في تلك الغرفة فقط نرتدي وجه الجنود، أما خارجها نفعل ما يحلو لنا.

ابتهجت إيفا قليلًا من وجه ميلينا الذي تبدل، إذ نزعت قناع الطاعة والامتثال للأوامر وارتدت وجه السيدات.

- أين منشؤكِ يا إيفا؟

ترددت الفتاة قليلًا ثم قالت:

- لقد جئت من مقاطعة بوسيدون و...

- بالتأكيد أعرف ذلك يا فتاة، أنتِ ورفاقك أصبحتم من المشاهير، تشبهون أولئك الحمقى مشاهير مواقع التواصل الاجتماعي، من الأشياء القليلة التي أكرهها في الأرض هؤلاء الغوغاء، بل أسألك عن أصل عائلتك في الأرض.

- كنا من ألمانيا، ولكن لا أذكر الكثير عنها فقد غادرتها طفلة.

- لقد كانت دولة رائعة ومتقدمة، كانت ستدمر العالم مرتين من قبل وشاركت في الحرب الأخيرة، لكنها تظل أرضًا رائعة، بعض محركات المقاطعة جاءت من مصانعها، فلذلك ندين لها بالفضل، أما إن فقد كنتِ من الأرجنتين فستجدين الكثيرين في الحفلات الليلة يرقصون رقصاتنا وعلى أنغامنا، ودور العرض في المقاطعة لا تعرض سوى مباريات الأرجنتين والقديس ميسي ومارادونا، الرحمة لروحيهما. البعض يقول إن ميسي رفض مغادرة الأرض، والبعض يقول إن الأغنياء والمهمين أمثاله يعيشون في أرض لم تغرق وأنهم يكذبون علينا بشأن غرق الأرض بالكامل، ولكنها محض كذبات كالماسونية ومجلس قيادة العالم وكل تلك الكذبات على الأرض.

يبدو أن ميلينا لم تتكلم منذ سنوات، وما إن وجدت شخصًا أدنى منها رتبة استفاضت في التحدث دون أن يمنعها أحد، كاد رأس إيفا ينفجر من صوتها ولكن سرعان ما وصلا إلى غرفة توصل إلى محركات السفينة العملاقة

أسفل الطوابق، وسرعان ما تحول خمول إيفا إلى انتباه عندما شاهدت غرفةً عملاقةً جدًّا بها أجهزة ضخمة، وحولها عدد كبير من الناس يتنوعون بين رجال ونساء وأطفال، يرتدون زيًّا موحدًا وجميعهم يتحركون داخل أجهزة دوارة كبيرة حركةً لا تتوقف، بعضهم يتمشون بصعوبة وبعضهم يجرون بلا هوادة، وعدد من الحرس يتابعون سير حركة الجميع، يرتدون أحزمةً بها صواعق كهربائية، فلم تفهم إيفا ما يدور.

- ما هذا المكان يا قائدة ميلينا؟

- إنهم المتطوعون، وهم يعملون هنا مثلما يعمل الجميع، بفضل عرقهم وعملهم المثالي لا تنطفئ أنوار المقاطعة نوح للضالين والباحثين عن السبيل.

- هل يولدون طاقةً حركيةً للكهرباء؟ ولكن هذا عمل شاق.

- للأسف لا نستطيع استخدام طاقات أخرى، فالشمسية والرياح المستعملة لديكم في بوسيدون ليست قوية كفاية، والدليل أنك تذهبون إلى مهاجعكم ليلًا في الظلام الدامس، والطاقة النووية نستخدمها بحذر شديد وقليلًا فقط، فالخطأ البسيط قابل لتفجير المقاطعة أو نقل إشعاع قاتل إلى سائر البشر.

- وهل هؤلاء يعملون بمحض إرادتهم؟

- بالطبع، فهم متطوعون وليسوا مساجين، والجميع يجب أن يعمل، فلا أحد يبقى دون عمل على المقاطعة لمصلحة البقية، وكحال الأرض يوجد أناس يعملون أعمالًا شاقة وآخرون يعملون أعمالًا مترفة، وبينهم من هم بالوسط وكذلك نحن.

حين انتهت ميلينا من كلماتها بابتسامة ودودة سقطَ طفل صغير من سير كهربائي منهك، فما كان من إيفا أن أخرجت من حاجاتها زجاجة مياه وسكبتها على وجه الصغير وأشربته منها ليفيق بعد لحظات، وما إن أفاق

الطفل ونظرت إيفا حولها وجدت الجميع ينظرون إليها، كانت نظرات مختلطة ومحيرة، فالمتطوعون ينظرون نظرة انبهار شديد، والحرس ينظرون نظرة انبهار أيضًا، الجميع كانوا ينظرون نفس النظرة، ولكن ما تخفيه تلك النظرات مختلف أحدها عن الآخر. وقفت إيفا لتجد يد ميلينا تربت على ظهرها برفق فنظرت إليها.

- باعتباري قائدتك أمنحك بقية اليوم راحة، يكفي تعرفك على العمل، من يوم غد يمكنك المباشرة، ويمكنك الرحيل الآن.

ابتعدت إيفا مسرعةً وبداخلها عشرات الآلاف من الأسئلة التي تحتاج إلى تفسير، تحتاج إلى إجابة.

***

لم يمر على عودة الإسكندرَيْن إلى المقاطعة ساعات إلا وكانا يجلسان على قمة الأيقونة العملاقة يتعرضان لشعاع الشمس بعد أيام قضوها في البحر والعمل الشاق، كانت قدم إسكندر الصغير تهتز رغم النوم والاسترخاء فشعر الأكبر بما يدور في خُلد نصفه الآخر.

- لديك سؤال تريد طرحه يا إسكندر، هيا أخبرني به، فأنا لا أتردد في الأسئلة.

- في رحلتي لكي أصبح مثلك يا إسكندر ينقصني شيء هام، أريد أن يكتمل لدي حتى أصبح مثلك وهو فهم الحلم، أنت تحلم بعائلتك والأرض والإسكندرية، ذلك لأنك عشت، معهم لديك ذكريات ومشاهد عالقة برأسك، أما أنا فلا أعلم، لم أرَ مصر قط سوى من الصور والمواد الوثائقية القليلة، كل هذا لا يدفعني لأحبها، أريد أن أعرف مصر مثلما تعرفها أنت، أن أستميت في البحث عنها مثلك.

شعر إسكندر أن النجاح حليف خطته، فذلك السؤال لو وضع مكانه لكان أول شيء يريد فهمه، وأن هكذا ميجاس يتحول إلى إسكندر، ليس فقط في الطباع والشكل، بل حتى في التفكير، وهذا تقدم ملحوظ في التحول.

- مصر تاريخ كبير، تاريخ مفعم بالإحباط وخيبات الأمل ومئات المحاولات التي أهدرناها لنسود العالم، ولكن اخترنا أن نكون في الزاوية خلف الظلال نقنع بالعيش الرتيب، المصريون هم أكثر شعب يصعب تفسيره، حتى هم ما كانوا يستطيعون فهم أنفسهم، ولكن يمكن القول إن مصر بلد اللاوَسط، فنحن إما أغنياء جدًّا وإما فقراء جدًّا، إما شعب غاضب جدًّا ويثور ثورة تلو أخرى وإما شعب خامل حتى تظنهم أمواتًا مما يُفعَل بهم ويصمتون، إما يعلو صوتنا جدًّا أو نخنع جدًّا، شعب طيب جدًّا وسيئ جدًّا، كنا نملك أجمل أماكن في الدنيا والأكثر بشاعة أيضًا! لمحاولة شرح مصر سنحتاج إلى قرون لنلخص 7000 عام، ولكن أتعرف، لا أفضل من أن ترى بعينك على أن تسمع، هيا بنا.

انتصب إسكندر واقفًا وهو يرتدي ملابسه، وتبعه إسكندر الصغير حتى دون أن يسأل، غادرا قمة السفينة وهبطا درجات السلم نحو طابقهما، ولكن ليس لغرفهما، فقد استمرا في السير نحو الغرفة الكبيرة ذات الواجهة الزجاجية. ومثل ما حدث من أيام فما إن واجهت عينُه عينَ "مكرم عبد الشهيد" من خلف الزجاج انتفض الأخير واقفًا ليفتح باب الغرفة بترحاب شديد وهو يستقبل إسكندر وابنه الصغير الذي يقف خلفه.

- كنت أعلم أنك ستباركنا بزيارتك بعد عودتك من البحر يا صديقي.

بدا مكرم صادقًا في كلماته وهو يستقبل إسكندر ويفتح له الباب للدخول ويسلم على الشاب الصغير القابع خلفه، في حين افترس إسكندر الغرفة بعينيه، كانت غرفةً كبيرةً تتقدمها خريطة جغرافية لأرض مصر في الماضي،

وبعض الصور المعلقة على الحائط لشوارع القاهرة والإسكندرية والأقصر وأسوان وبعض المدن المصرية، كما يوجد صورتان لأشخاص لم يتعرف عليهم إسكندر الصغير، ولكن إسكندر الكبير كان لا يزال يتذكر أشكالهم، فالأولى برواز كبير لصورة الملك فاروق الأول وبجواره وللمفارقة الشديدة صورة للرئيس محمد أنور السادات، وبجوراهما صلبان وصور للمسيح والعذراء، عن يمينها شعار نادي الزمالك وعن يسارها شعار النادي الأهلي، كما يوجد برواز كُتبت عليه الآية القرآنية:

{فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (27) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (28) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ} [المؤمنون: 27 - 29].

وأسفل الحوائط يوجد عدد من الرجال الجالسين الذين وقفوا ليرحبوا بإسكندر وابنه دون معرفته، ولكن كان السيد مكرم حاضرًا ليدير النقاش كعادته.

- أصدقائي، أقدم لكم السيد إسكندر المصري وهذا ابنه، وهؤلاء يا سيد إسكندر إخوتك المصريون، وهذه قهوة المصريين أو كما نسميها، وهذا ابنه أظن اسمه ميجـ...

- اسمي إسكندر، نحن الاثنان إسكندر.

ابتسم مكرم في تعجب وأشار لهم للجلوس، فمشى الاثنان بنفس الخطوات وبطريقة جلوس واحدة وبنظرات متشابهة جعلت الجميع يتعجب، هل يقدمان فقرة مسرحية أم إن الولد متأثر بوالده بشكل متطابق؟!

- أعرفك يا سيد إسكندر وأنت أيضًا يا إسكندر بأصدقاء القهوة، معنا

اليوم السيد "محمود رجب" و"كريم منتصر" والكاتب "محمد علي منصور".

هز الإسكندران رأسيهما فبادلهما الآخرون نفس الحركة، وكان من بينهم رجل يحمل عودًا مصريًّا قديمًا ولم يمهلهم بنظراتهم حتى تحدث في فخر:

- أنا كريم منتصر من الفيوم، كنت عازفًا في الماضي وصانع محتوى، ما أحمله هو عود قديم يعود إلى فريد الأطرش، اشتريته في مزاد، لقد تركت قصري وسيارتي وهربت من الطوفان، ولم آخذ سوى هذا العود، كان من الزمن القيم حيث عصر الملك قبل أن ينتهي بما سماه البعض انقلابًا وسماه البعض الآخر ثورةً، فجلبت لنا عبد الناصر الذي عاش معه الجميع في الحلم الوردي حتى تبدد الحلم بكابوس النكسة، ومن بعده السادات بالانفتاح، ليعقبه مبارك بالخصخصة.

فتحدث الرجل الذي بجواره:

- أخبرناك مئات المرات ما عاد يوجد داعٍ إلى التحدث بالسياسة، لقد رحلت مصر إلى الأبد ولن تعود. شيء غريب يا سادة، لطالما كنا نمقت ذلك الوطن ونسعى إلى الرحيل منه واليوم نتحسر عليه! الجميع من حولنا نسوا أوطانهم ونحن نجتمع هنا لنحيي ذكرى أم كلثوم وعمرو دياب وكل تلك الأشياء التي ولَّت! أعرفكم بنفسي، أنا محمد علي منصور صاحب الروايات التي لا يقرأها أحد.

ضحك منصور باستهزاء يرثي به حالته، ليتحدث الرجل الأخير الذي لم يتكلم:

- لا أفتقد في مصر سوى زمارات السيارات المزعجة وهتاف الباعة وخناقات الشوارع بالطبع، لن يحب مصري هدوء البحر، فنحن شعب الضوضاء والأغاني المزعجة والصياح بلا سبب. صدقني، لقد كنت وزيرًا ومسؤولًا عن كلماتي، كنا الشعب الأكثر صخبًا في العالم، ولولا هلاك معظم المصريين على السفينة في المجاعة لملؤوا تلك المقاطعة ضجيجًا!

حين انتهى الرجل من كلامه رفع كريم عوده ليغني ليفض الاشتباك، وبدأ في العزف، فنظر الإسكندران أحدهما إلى الآخر وعلى كل منهما نظرة فهمها الآخر.

- هل إسكندر يشعر بالابتهاج؟

- لا، هل يرغب إسكندر بالرحيل؟

- بالطبع، لنكمل جلوسنا في مكان آخر.

وقف الإسكندران وغادرا المكان، فيما انهمك الرجال الأربعة في الغناء والعزف ولم ينتبهوا لصوت الباب الذي انفتح وانغلق، إذ شردوا في الغناء بصوتٍ عالٍ حبيس الجدران الحديدية.

"أول دخولنا الجنينة.. عيط الياسمين يا لالالي

والسيسبان اشتكى.. الورد قال ده مين يا لالالي

قال العنب افتحوا.. دا العاشق المسكين يا لالالي

يا عيني يا لالالي.. يا روحي يالالالي.. يا سيدي يا لالالي"

وقف الإسكندران على أسوار السفينة ونظر أحدهما إلى الآخر وابتسما.

- ستكون إسكندر حقيقيًّا لو عرفت فيمَ يفكر إسكندر الآن.

- بالطبع أنا إسكندر حقيقي ويمكنني القول إن إسكندر الآن يفكر في المرح.

ضحك الاثنان وهبطا درجات السفينة نحو درجات أدنى بثلاثة طوابق، حيث تقع حانات المرح في السفينة، ومثلما فعل إسكندر فعل إسكندر الصغير كل شيء، بداية من الشراب وحتى اجتمع الاثنان على امرأة واحدة، شعر الصغير في البداية بالخجل أن يفعل ذلك، ولكن الكبير أقنعه أن الشخص لا يشعر بحرج عندما يكون مع نفسه وأنه ينسى دائمًا أنهما شخص واحد، فتحمس الصغير واجتمع كلاهما على نفس العاهرة مجددًا، والآن فإسكندر الصغير يفعل كل شيء مثل إسكندر الكبير، وابتهج إسكندر الكبير أن الصغير يشابهه الآن في

الكلمات والانفعالات وحتى في نوع الأكلات وفي النجاسة وفي كل شيء، لم يكتفِ إسكندر بامرأة واحدة فاتجه إلى عاهرة ثانية، في حين خرج الصغير ليشرب قليلًا قبل أن يعود للجولة الثانية من المضاجعة، ولكنه شعر باختناق في المكان من الخمر الكثير وصيحات الراقصين حوله والأضواء الكثيرة، فخرج ليستفرغ ما في معدته ويُخرِج ما في جوفه إلى مياه البحر، وبعد قليلٍ من السعال واحمرار العينين وقف ليتنفس الهواء الطلق، فوجد أمامه إيفا تتجول بملابس الحرس خاصته، كانت عيناها إلى أسفل تشيح بها عن الأضواء، حتى إنها لم تره، ولكنه رآها جيدًا، فقرر أن لا يكلمها، ولكن هذا تصرف ميجاس وهو الآن ليس ميجاس، بل هو إسكندر الذي لا يخشى شيئًا.

- إيفا؟

رفعت عينيها نحوه فتعجبت من مظهره الذي أصبح شبيهًا بوالده من الملابس وحلاقة الرأس.

- ميجاس! ما الذي تفعله هنا؟

- أنا لست ميجاس، لا أحد هنا اسمه ميجاس، هذا اسم فتى مدلل يخشى الجميع، أنا الآن اسمي إسكندر، أليس اسمًا أفضل وأقوى وجذابًا أكثر؟!

تعجبت إيفا من كلماته، ولكن ما شاهدته منذ وصولها هنا أكثر عجبًا.

- هل بتغيير اسمك وتقليد أبيك ستصبح الرجل الذي أتمناه؟! صدقني يا ميجاس، أنت ما زلت طفلًا ساذجًا وما تقوله هو أكثر شيء سذاجةً سمعته، ولكنك لست المخطئ الوحيد، أنا أيضًا كنت حمقاء، ولكن أشعر أن يومين هنا جعلاني أنضج سنوات طويلة. هل تعلم أن الكهرباء التي تضيء المكان تأتي من مساجين يعملون كعبيد في قعر السفينة وأنه كان من الممكن أن أكون معهم لولا أن العجوز الأحمق فرانشيسكو؟! يبدو أنه يريدني عشيقة له فجعلني أعمل معهم.

أفاقت كلمات إيفا ميجاس أكثر من انهمار مياه البحر على رأسه.

- لن يستطيع أن يفعل شيئًا لكِ وإسكندر موجود!

- أتقصد إسكندر أم ميجاس؟

ارتبك ميجاس قليلًا ثم تكلم مجددًا:

- بعد يومين سنرحل على السفينة لنكمل عملنا في البحر، ستعودين إلى طاقمنا، وفرانشيسكو لن يستطع الاعتراض لو أخبره إسكندر بذلك، لا تقلقي.

- أرجو ذلك!

قالت إيفا ذلك ورحلت مبتعدةً وهو يرمقها بعينه، وظل يتتبعها حتى ابتعدت.

- لماذا تأخر إسكندر على إسكندر؟

التفت ميجاس بعينه الشاردة ليجد إسكندر يقف أمامه نصف عارٍ.

- أبي!

اتسع بؤبؤ عين إسكندر لسماعه كلمة "أبي"، فالشخص لا يقول لنفسه يا أبي، ولكن تدارك إسكندر خطئه وصحح كلماته.

- لماذا خرجت خلفي؟ لقد كنت عائدًا.

- ما الذي أطال غيبتك؟

- لقد كانت إيفا، طلبت مني أن تعود إلى العمل في المركب، وأظن أنها ستكون مفيدةً في رحلة الوصول إلى الإسكندرية.

- هكذا تقرر من نفسك دون العودة إليّ! أحيانًا يحتاج الشخص ليفكر مع نفسه قبل اتخاذ القرارات حتى لا يرتكب أخطاء.

هنا زادت ثقة إسكندر وتطلع بعين إسكندر أمامه وقال:

- منذ متى كان إسكندر يسمع لأحد؟ ما أذكره أن إسكندر لم يستمع لأمه عندما طلبت منه أن لا يفارقهم، لأبيه قبل أن يتسبب في غرقه، لغوستافو قبل

أن يأخذه إلى رحلة هلاكه!

توقع إسكندر الصغير أن يصفعه الكبير بقوة من وقع كلماته واستعد لتلقي الضربة، ولكنه فوجئ بابتسامة صغيرة على وجه إسكندر الذي قال:

- كأني أنظر إلى نفسي في المرآة لأقول لها كل ليلة حقيقتي التي لا أحب الاعتراف بها، أنت رائع، لذلك لن يعترض إسكندر الكبير على طلب إسكندر الصغير الذي يحرز تقدمًا مذهلًا حتى لي.

تنهد إسكندر في سعادة ودخل إلى الفتاة التي تنتظره ليناكحها، فيما وقف إسكندر الكبير ينظر إلى البحر.

- فتاتي العزيزة إيفا، يبدو أنه جاء الوقت للتخلص منكِ حتى لا تفسدي كل ما خططت له، لن أجعل أحدًا يفسد خطوتي الأخيرة!

***

مر اليومان كلَمح البصر ووصل اليوم الموعود، ظل إسكندر متيقّظًا ينتظر شعاع شمس اليوم لينطلق، في حين يستيقظ إسكندر الصغير من نومه ويرتدي ملابسه استعدادًا ليتحرك، بينما الكبير على أهبة الاستعداد.

- هل أنت جاهز لرحلتنا الأخيرة وزيارة العائلة أخيرًا بعد غياب طويل؟

قالها الصغير وهو يخرج من الغرفة نحو الكبير الواقف بالخارج، الذي اكتفى بهز رأسه في سعادة، فالكلمات لن تكون كافيةً ليصف ما يمر به.

ابتسم الاثنان أحدهما للآخر بنفس الابتسامة، وتحرك الفتى نحو باب غرفة إيفا ليوقظها وتستعد.

- من الرائع أننا سنجلب إيفا معنا، سنحتاج إلى شخص يحمي المركب ونحن في أعماق البحر.

ابتسم له الكبير مصدقًا لكلامه، في حين ظلت يد الصغير تطرق الباب بلا

هوادة، الأمر الذي أيقظ بعض السكان فقدِم واحدٌ من الحرس نحوه بغضب.

- أنت يا فتى، توقف عن الطرق، الناس نيام، قبل أن تُعاقب.

- أعتذر سيدي! ولكن سنخرج أنا وإيفا -الفتاة في هذه الغرفة- إلى خارج المقاطعة، ولا ترد، أخشى أن يكون أصابها مكروه.

- لا تقلق، المجندة إيفا خرجت في جولة تفقُّدية لسفن المقاطعة، هذا أمر دوري يحدث باستمرار لتهيئة الجنود الجدد.

نظر الصغير نحوه بغضب.

- ما هذا الكلام؟! حتى أمس لم تخبرني بشيء كذلك، وكانت على استعداد لتغادر معنا.

- هل تشكك بكلامي؟! هل تكذبني؟!

وضع الجندي يده على الصاعق الكهربائي، فشاهد الكبير ذلك وهو بالقرب منهما، فتدخل لينهي الأمر.

- ماذا فعلتم بإيفا؟! يجب أن تغادر معي، هل تلك أوامر الحقير فرانشيسكو؟

هرول إسكندر فأمسك بيد ابنه قبل أن تمسك بملابس الجندي الذي كان على وشك أن يسدد الكهرباء إلى صدر الفتى المشاغب وأبعده الكبير فسقط على الأرض، وحال بجسده بينه وبين الجندي.

- عفوًا سيدي! إن ابني متعكر المزاج، سامحه وأنا سأحرص أن لا يرتكب حماقاتٍ مجددًا.

- لولا توصية السيد فرانشيسكو عليكما لكان مصيركما شيئًا آخر!

أنهى الجندي كلماته وابتعد، فيما انكب إسكندر بجسده على الفتى ليطمئن عليه.

- إسكندر، هل أنت بخير؟ هل جننت لتتشاجر مع الجندي؟!

- لقد أخذوها يا أبي! لقد أبعدوها عني!

تماسك ميجاس حتى لا تنهمر دموعه، فيما ساعده إسكندر على الوقوف.

- فقط عدني أن نعمل بقوة وأن نعثر على الإسكندرية، وعند عودتنا، بعد أن ننهي مهمتنا الأخيرة، سأبذل قصارى جهدي لنعفيها من عمل الحرس إلى الأبد، هيا بني، فإسكندر الحقيقي لا يبكي.

تماسك إسكندر الصغير ومسح دموعه ونظر إلى نسخته الأخرى وصاح:

- هيا بنا ننهي هذا العمل بأسرع وقت لنغادر من هنا.

***

للمرة الأولى منذ زمن طويل تتغير ملامح كِلا الإسكندرَيْن، فمع اقترابهما بالمركب من إحداثيات الإسكندرية على الخريطة يبدو الكبير في حالة من العجلة تخالطها السعادة لإيجاد مدينته وعائلته، والصغير في عجلة لاستكشاف الشيء الذي أُعدَّ من أجله، كلاهما يرتدي زيَّ الغوص ويقف كل منهما في مكان بعيد عن الآخر وينظر أحدهما إلى الآخر.

- لنكرر الخطة للمرة الأخيرة يا إسكندر، كل منا تلك المرة سيذهب باتجاهٍ غير الآخر، سنوسع دائرة البحث، وبعد خمس ساعات بالضبط نصعد ونجلب كل ما عثرنا عليه.

- لا تقلق يا أبي، سنعثر على الإسكندرية ونكرم مثوى العائلة.

غضب إسكندر لكسر الفتى شخصيته، وبنظرة واحدة أدرك الفتى خطأه.

- عفوًا! أقصد سأعثر على مدينتي وأمي وعائلتي.

أدرك إسكندر أن الفتاة ما زال تأثيرها على الفتى، تخبل لبَّه، فلا تجعله يفكر في ما يقول، ولكن عزاءه الوحيد أنه تخلص منها إلى الأبد ولن تشغل عقل إسكندر مجددًا.

استعد كل منهما جيدًا وتأكد من الأكسجين وسلامة الأجهزة وكل شيء، وأعد إسكندر على أصابعه ثلاث عدّات لينقلب كل منهما داخل الماء ويتجه كل منهما باتجاه.

الفرحة والسعادة جعلتا عقل إسكندر الكبير ينتشي فلا يدرك ماذا يدور حوله. أخيرًا بعد سنواتٍ طويلةٍ سيستطيع مقابلة أمه وإخوته وأبيه ومدينته، تمنى لو أنه ارتدى ملابسَ رسميةً عوضًا عن بدلة الغوص، تمنى أنه لو جلب معه هديةً كالصليب الذهبي الذي وعد به السيدة تريزا قبل رحيله، تمنى لو أنه بمجرد وصوله استطاع البكاء بحضنها، أن يحكي لها كل ما حدث معه، أن يخبرها كم كان البحر قاسيًا عليه وأخذ منه كل الأحباب. السعادة جعلت إسكندر يتخيل أن السمكة الكبيرة التي تسبح بجواره تتحدث معه وتكلمه وهو ينزل إلى أسفل، نظر نحو السمكة التي كانت تشعل سيجارة وتمررها له لتؤنس وحدته ولتشاركه فرحته فسألته:

- هلا تخبرني عنها قليلًا، أريد أن أستزيد في المعرفة، أريد أن أعرف لماذا ساقتك قدماك إلى الجحيم من أجلها، أريد أن أعرف هل تستحق العناء أم إنك تستحق الشفقة.

أجاب إسكندر على السمكة:

- لقد بحثت عنها كثيرًا في شرق البحر وغربه، كان البحث مجديًا عندما كان يوجد شرق وغرب، حينما كان العالم ما زال يتنفس وينعم بمتنفس. إن أخبرتُك عنها فلن تصدقني، إنها النعيم لو كان النعيم حقيقة، لو كنت تنسَّمت الورد فستعرف أنها زهرة بارعة الجمال أخّاذة الرائحة، لو كنت تعلم ما الأشجار لشعرت بظلها في يوم قائظ الحرارة، إنها الرائحة الجميلة والظل الحارس. ولكنك بالتأكيد لا تعرف ما الورد، لو كنت تعرف لتسرَّب عطرها إلى جوفك، لو كنت تعرف ما الأشجار لتسرب الدفء إلى قلبك، لشعرت بثمارها تشبع روحك قبل جسدك.

لم يرَ من السمكة سوى نظراتٍ كانت تتحدث، أقسم أنه كان يستمع لصوت يصدح من عينيها يقول إنه مجنون مسَّ الخبلُ رأسه. ظل صامتًا لسنوات مرت كأنها قرون من أمواج عاتية في ليل شتاء قارس حتى أشاح بيده لأسفل وهو يبتعد.

- ما تتحدث عنها بالأسفل، عسى أن تجد ما تبحث عنه، عسى أن تهتدي لضالتك أو تهلك، فالأسفل لا يحمل سوى ذكريات عالم انتهى.

"ذكريات عالم انتهى" ترددت تلك الكلمة في عقله، فيما ابتعد الرجل الآخر، لم يتسنَّ له الوقت ليشكره، لا وقتَ للثناء، لا وقتَ لدموع الفرح أو دموع الندم، فكلاهما واحد. الآن تحرك إلى حيث البقعة التي أشار إليها، كانت نقطةً صغيرةً يستطيع أن يضمها بين راحة يده، يستطيع سحقها، ولكنه كلما اقترب توسع الحجم حتى لم يستطع أن يضمها بين ذراعيه، وظلت تتوسع حتى ابتلعته في جوفها. إنها بقعة كبيرة من الأطلال، جيش كبير من الذكريات احتشد خارج أسوار عقله، يباغت بقوة، يناوش، يلقي بمجانيق إرهاصات لتدمر خلايا عقله. تتسارع أنفاسه فيتذكر أنه لا يملك كثيرًا من إكسير السماء، عليه الحفاظ على رباطة جأشه، ما زال الكثير بالأسفل ينتظره.

كان قد اقترب جدًّا، المدينة تبدلت كثيرًا حتى إنه لم يتعرف عليها للوهلة الأولى، كل شيء مدمر، ليس الزمن فقط المتسبب في ذلك، وإن كان تسعة عشر عامًا ليس بالوقت الهين الذي يغيب فيه عن مدينته وأسرته. كان على أعتاب المدينة بالفعل وفي عقله يحاول تذكر كل شيء، ولكنه لا يستطيع التذكر، هل كانت أمه بعين خضراء كعينه أم بلون آخر؟ هل كان أخوه شعره أصفر مثله أم أسود؟ هل كان والده... ولكنه تذكر سريعًا أن أباه رحل وهو في المهد، فلم يتذكر شكله، لقد نسي كل شيء، حتى أطلال المدينة لا تساعده في التذكر. سقطت دموعٌ من عينيه ولكنها ظلت داخل قناعه. ما أسوأ أن تكون

دموعك حبيسةً مثلك ومثل كل شيءٍ على هذا الكوكب!

- أمي، هل أنتِ قريبة أم بعيدة؟

صاح بصوتٍ ظن أنه عالٍ ولكن لم يسمعه أحد، وظن أنه لم يستمع لنفسه، وارتاح قلبه أن لا أحد في لاسلكي القناع قد سمعه، وأن لا أحد على مقربة ثلاثة أمتار منه، بل ليس هناك أحد، هو فقط داخل بقايا مدينة لا يستطيع التعرف عليها، فالمنازل ليس تلك التي شاهدها في صباه، والطرقات مختلفة، هل هذا بفعل السنوات أو الماء؟! دار حول نفسه كأنما الكوكب يدور حول الشمس، صرخ بصوت جهوري، بكى، انتحب، امتقع، صعد وارتفع ثم أدبر يسعى، هبط إلى قاع دار بين البيوت من أعلاها إلى أسفلها حتى وجد لافتةً حديدةً تآكلت وصدئت وبال أمرها، كُتب عليها بلغة غريبة لم يستطع فهمها، لكن ميَّز كلمةً واحدةً "الإسكندرية".

يستطيع قراءتها ولو كتبت بلغة الفضائيين إن وُجدوا وبلغة الفراعنة إن عادوا. بكت عينه وهو يحتضن المعدن البالي، تنهنه بصوتٍ كبُكاء الأطفال، كخوار ثور ذبيح، بعد تسعة عشر عامًا وجدها.

- لقد عدت يا أمي، لقد عاد إسكندر!

حاول مسح دموعه ولكن القناع حال بينه وبين وجهٍ لهث من فرط فرحته، ها هو الآن بعد آلاف الأعوام يعود الإسكندر الجديد ليجد إسكندريته الضائعة، سيؤسس مُلكًا جديدًا ويعلن نفسه سيدًا ومَلكًا على الإسكندرية الجديدة.

- أنا الإسكندر الجديد!

صاح بها بأعلى صوته حتى ظن أن الأسماك استمعت وضحكت ونفرت وبصقت، اقتربت سمكة تهز ذيلها، تبولت على أحد أسطح المنازل الفارهة وسمعها تنادي.

- مباركٌ يا إسكندر! لقد ماتت الإسكندرية وأنت لن تحكم سوى البقايا، مرحى لملك الخراب!

ابتعدت السمكة وابتلعها الظلام، فيما نظر في حسرةٍ حول البيوت المهدمة وبقايا عظام ملأت ما كانت طرقًا. أشاح بنظره بعيدًا، لم يتحمل هولَ ما يرى، أخرج من حقيبته خريطةً بلاستيكيةً ومعجمًا بلاستيكيًّا، أمسك باللافتة وهو يفر بعينه في القاموس، كان سميكًا وقد زادته الأحرف البارزة سُمكًا.

جالت عينه بسرعة حتى توقف على كلمات مميزة كالتي قرأها على اللافتة المعدنية، استطاع فك الشيفرة وأيقن ما يوجد حوله، فلا شيء هنا يشبه شيئًا مما عرفه سابقًا، أيقن أنه ليس في المكان الصحيح.

أيقن الآن أن ما قرأه على اللافتة ليس سوى ما كانت تُعرف سابقًا باللغة التركية، وأن الخريطة التي بيديه أجزمت أنه في الإسكندرية، ولكن ليست المصرية بل التركية، وأنه مر بإحدى عشرة مدينةً تُدعى "الإسكندرية"، وتلك هي الثانية عشرة، وأن السمكة والرجل اللذين قابلهما ليسا حمقى، وأنه هو الأحمق الكبير. توقفت دموعه عن الانهمار وتبدلت بضحكةٍ ساخرة، يضحك على حماقته وخبل لبه، وأنه يحلق خلف سرابٍ قد لا يكون موجودًا في النهاية، وأن أمه وأخاه ورفات أبيه ليسوا هنا، وتذكر كيف كانت نظرتها الأخيرة عندما انهار كل شيء وهو ليس معهم، وأنه تخلى عن عائلته الوحيدة، وأن الشيء الوحيد الذي هجر كل شيءٍ من أجله أصبح سجنَه الكبير الذي لا مهرب منه، وصاح:

- لقد أحببت الشيء الوحيد الذي أكرهه الآن من أعماق قلبي!

وتذكر أنه داخل أعماق الشيء الذي يكرهه من أعماق قلبه، ولكن شبح أمل أضاء في قلبه مرةً أخرى، داعيًا إياه أن يستمر وأنها ليست النهاية،

فإسكندرية تركيا يفصلها عن إسكندرية مصر فقط البحر المتوسط، عندما كان يوجد شيءٌ يُدعى "البحر المتوسط".

وتذكر أنه عليه العودة أدراجه، فإكسير السماء على ظهره قد ينتهي قبل أن يصل إلى السطح، ومن دونه سيهلك، وظل يضحك عندما تذكر أن الإكسير كان اسمه في السابق "أكسجين". ضحكاته مجلجلة لا يسمعها أحد سواه، كل من يراه من أبناء العالم الجديد يضحك عليه، يرونه ضيفًا متطفلًا يقبع في مكانهم وعليه الرحيل، فهو غريب وإن امتدَّ وجوده إلى الأبد.

وظل يتذكر أمه وأخاه وشكل مدينته السابقة الإسكندرية وكم كانت جميلة، وتذكر لعبه مع الأطفال وهو صغير، وأكثر ما أضحكه وهو يقترب من السطح عندما كانوا يطلقون على هذا الكوكب "كوكب الأرض"، والآن تغير كل شيء، ولكن كل تلك الأفكار تلاشت عندما صعد إلى أعلى السطح ولسعت الشمس رأسه أخيرًا ووجد عينًا تتطلع إليه.

- لم أعثر على شيء في موقعي، يبدو أننا ضللنا الطريق، هل عثرت أنت على شيء؟

لم يستمع إسكندر لكلمات إسكندر الصغير، لقد أدرك توًّا أنه خسر آخر آمل له في العودة وأنه أخطأ الحسابات، أو كان أحمقَ كبيرًا وقع في مزحة الأثرياء وانتقامهم.

خرج إلى المركب ولم ينبس ببنت شفة، فلا شيء ليُقال. أدار محرك السفينة عائدًا ونظر إلى إسكندر الآخر الذي خيَّم الإحباط على وجهه وأدرك أنه الأمل الأخير، ولكن ترددت كلمات أمه في عقله، لم يعرف لماذا تذكرها وهي تقول:

- الأمل الذي يبقيك حيًّا هو الأمل الذي سيقتلك.

تحرك نحو المقاطعة والأمل الأخير لديه هو أن يرى إسكندر -أو

ميجاس- الإسكندرية عندما تصعد الأرض مجددًا، وتمنى أنْ لا تكون تلك أيضًا كذبة من السيدة دكوكو، فهذا انتقامٌ قاسٍ جدًّا.

***

هل حقًّا انتهى كل شيء؟! هل تلك هي النهاية الحزينة؟! أم إن في الأفق تتلبد نهاية أكثر مأساوية؟!

لم ينفك إسكندر أن يبرح حزنه، فترك القيادة وطريق العودة إلى إسكندر الصغير ليتولاها، بات يعرف كل شيء، بات هو الأمل الأخير الذي يمكن الاعتماد عليه. وبالفعل، فقد كان يعرف كيف يقود المركب حتى المقاطعة، وقد باتت واضحةً للعيان ويمكنهم رؤيتها من ظلمات البحر جالية، حزن إسكندر جعله لم يرَ الفرقاطة البحرية المحترقة بجوارهم، فقد خمدت نيرانها ولكن رائحة شواء الجنود عليها قادرة على زكم أنوفهم، الأمر الذي جعل إسكندر الصغير يترك قمرة القيادة ويجري إلى إسكندر بالخارج ليشير له إلى الفرقاطة المحترقة.

- ما الذي حدث هنا؟ وكيف احترقت تلك السفينة؟

أخرج سؤال إسكندر الرجلَ البالغَ من حزنه ووقف يحدق إلى الفرقاطة التي تعرف عليها سريعًا رغم تغير ملامحها، فقد كانت واحدةً من اللاتي خرجت من عدة أيام لتدمير "أوين أويل" وغواصاته ولكنها الآن محترقة.

ذهب كلا الرجلين بأنظارهما إلى المقاطعة، للمرة الأولى يريان نورها المترامي الأطراف يتضاءل ويتلاشى، وأصوات صرخات بعيدة تترامى إلى أسماعهما، رغم أنهما يبتعدان بعشرات الأمتار فقط عن السفينة الأيقونة.

خوف إسكندر الصغير جعله يتوتر وينسى شخصيته ويستعيد شخصيته القديمة.

- ما الذي يحدث يا أبي؟

لم يهتم إسكندر لما سمعه من كلمة "أبي"، فهو أيضًا يبدو أن التوتر جعله ينسى أن لا أحد معه في المركب إلا هو ونفسه.

- لا أعرف ماذا يحدث، يبدو أن كارثةً في المقاطعة!

لم تطل حيرتهما، فقد سمعا وشاهدا قطعةً بحريةً تنطلق مسرعةً بالقرب منهما، ولكنها أبطأت بالقرب منهما، كان عليها عدد من الحرس يحفون برجال ونساء ومن بينهم السيد فرانشيسكو الذي اقترب من حافة السفينة ليطل برأسه نحو الإسكندرَيْن المتلمسين لإجابة لما يحدث.

- سيد فرانشيسكو ما الذي يحدث؟

أجاب فرانشيسكو بملامح خالية من أي تعبير.

- لقد فشلت قواتنا في تدمير غواصات أوين، وهم الآن يعيدون الكرة بالهجوم علينا ومباغتتنا، نصيحتي لك يا سيد إسكندر أن ترحل أنت وابنك من هنا، إنهم سيحتلون المقاطعة بالكامل أو سيدمرونها.

- وإيفا، أين إيفا؟

قال إسكندر الصغير في قلق شديد فيما أشار له إسكندر ليصمت وهو يحاول التفكير في ما يحدث.

- سيد فرانشيسكو أشكرك على ما فعلت، ولكن لم نعثر عما نبحث عنه.

- كنت أظنك بالذكاء الكافي لتعرف أنك جئت بقدميك إلى الجحيم، وأن من ظننتها ترشدك إلى الجنة أرشدتك إلى النار عنوة! صدقني، كان من المفترض أن أجعلك أنت ومن معك تلقون مصيرًا قاسيًا، ولكن اكتفيت بتنفيذ أبسط ما طلبته مني دكوكو في الرسالة التي جلبتها بنفسك إليّ، وهو أن أضلك عن مسعاك لتظن أنك وصلت إلى مبتغاك وتكتشف أنك أمسكت بسراب، وقبل أن أرحل أبلغك أني فعلت ما طلبته مني تكريمًا فقط لما جلبته لي معك.

أنهى الرجل كلماته وأشار للمركب أن ترحل وتبتعد قدر الإمكان، وألقى نظرةً أخيرةً مستسلمةً نحو إسكندر وابنه، رحل هو والسادة معه، وكالعادة كانوا أول من يقفزون من المركب مثلما يفعلون دائمًا.

- أبي، علينا أن نذهب لنجلب إيفا ونرحل من هنا.

أفاق إسكندر من شروده ونظر نحوه كمن يتخبط من المس.

- هل جننت؟! المقاطعة تهاجم، علينا أن نهرب أو نبتعد قدر المستطاع!

- أبي أرجوك! لقد فعلت ما فعلت من أجل إيفا، قررت أن أكون أنت من أجل أن أحظى باهتمامها وحبها، من دونها لا قيمة لشيء، سأفعل كل ما تريد، سأكون أفضل نسخةٍ منك. ولكن دون إيفا لن أقدر على ذلك، أرجوك! أنا أعرف مكانًا من الممكن أن تكون فيه، يبدو أنهم أخذوها إليه.

التفت إسكندر خلفه وهو يكتم غيظه، أطاح بأول شيءٍ قابلته يده وهو ينظر نحو المقاطعة التي يتعالى صوت الصرخات منها وتظلم وتنير كأنها شمعة تتلاشى، نفخ في زجر ثم نظر إلى إسكندر الصغير وصاح:

- سنصل بأقصى سرعة لتجلب أنت إيفا، وأجلب أنا المؤن والطعام والمعدات لتكفينا، لن نعود إلى بوسيدون فهي بعيدة، بل سننطلق إلى مقاطعة أطلانتس فهي أقرب كثيرًا من بوسيدون، في حالة عدم عثورك عليها فسنرحل لا نقاش.

هز ميجاس رأسه في سعادة وانطلق مسرعًا إلى قمرة القيادة ليدير الدفة بأقصى سرعة للمحرك الذري نحو المقاطعة، في حين وقف إسكندر. كم من كوارث أخرى سيتحمل قبل أن ينهار تمامًا؟! وهل سيظل دائمًا رد فعل للأحداث أم عليه أن يتصرف لينهي كل ذلك العبث؟!

***

في قعر السفينة تراصَّ المتطوعون في دوائر كلوحة دانتي وهُم في الجحيم، فمنذ أيام مات رجل من فرط الإرهاق والعمل ومن كهرباء الحرس التي لفظت روحه الأخيرة، ولكن لحسن الحظ تبدل بفتاة جديدة شابة ستعمل مكانه حيث مكان موته، تلك الفتاة التي كانت من أيام قلائل واحدة من الحرس اليوم تبدل حالها وأصبحت من المتطوعين الذين لم يكونوا يومًا متطوعين، بل مغصوبين مغتصبين، وبتوصية شديدة عملت أضعافَ ما عمل بقية زملائها، حتى خمدت عزيمتها وفترَتْ قوتها، وكلما توقفت تجد شحنةً من الكهرباء تنهال على جسدها لتدفعها إلى العمل.

ولكن بدا أن اليوم لن يمر بسلام، فالحرس يخرجون ويدخلون كثيرًا والأضواء في المقاطعة تنغلق وتنير من تلقاء ذاتها، وجوه الحرس للوهلة الأولى تلمح عليها الخوفَ مثلما تلمح بها القسوة، يهمس أحدهم في أذن آخر ليتبدل وجه الثاني، تحاول إيفا وهي منهكة أن تقرأ لغة شفاهم فتظنهم أنهم يقولون:

- لقد خسرنا والقراصنة قادمون لتدميرنا!

ولكنها تُكذِّب ما قرأت، فهم لا يمكن هزيمتهم. وفي لحظة عمل يصدر صوت عملاق كأنه يوم القيامة قادم من مكبرات صوت مصدرها البحر، لتقطع كل الشكوك، وكانت إيفا الوحيدة التي تعرف صاحب الصوت فقد سمعته من قبل.

- يا سكان مقاطعة نوح، هم يقنعونكم أننا غزاة ولكننا مُحرِّرون، جميعنا كنا في المقاطعة سكانًا، ولكن من أجل الطعام وراحة السادة زيَّفوا قصة المجاعة وجمعوا كثيرًا منا عبيدًا لهم، ولكن بعضنا هرب وسرقنا الغواصات. استسلِموا تَسلَموا، إنهم يكذبون عليكم، لم تكن توجد مجاعة، فكُّوا أسر المتطوعين وأمسكوا بالحرس وسنحرص على عدم تدمير المقاطعة.

ما إن أنهى الجنيرال أوين كلماته هجم أحد المتطوعين على أقرب حارس منه وأمسك بسلاحه ليسدده نحوه، فجرى بقية الحرس القلائل الموجودين

ليهاجموا، ولكن تشجع بقية المتطوعين أخيرًا وهاجموا الحرس فتحولت إلى مذبحة بحق الحرس وهرب المتطوعون إلى الخارج بصعوبة. تخلصت إيفا من قيودها وحاولت الخروج إلى سطح السفينة ولكن خارت قواها وأسقطها المتطوعون المنتشون للحرية. قاومت إيفا لتقف ولكن بلا فائدة، والغرفة العملاقة أصبحت خاويةً على عروشها، وتدريجيًّا بدأت السفن في الإظلام ليعمَّ كل شيء مع صرخات الجميع بالخارج، تدريجيًّا بدأت إيفا تفقد الوعي ويختلط بعينيها الوجود مع النهاية، وتذكرت سريعًا أنها من المفترض أن تكون مع ميجاس منذ أيام على المركب لتبحر معه، ولكن جاء الحرس ليكبلوها ويقتادوها من غرفتها وينزعوا عنها ملابس الحرس كاملةً أمام عين إيفان وميلينا، وبعد تجريديها ألبسوها ملابس المتطوعين وألقوا بها إلى العمل الشاق أكثر من البقية، فخارت سريعًا واستسلمت ولم تعرف ما سبب ذلك أو من كانت أوامره ليفعل ذلك، ولكنها ظنت أنه فرانشيسكو، لم تدرِ كم من الوقت مضى عليها وهي تفتح عينيها من الدماء، لتجد ميجاس يقف أمامها، بل يحملها على يديه ويغادر بها.

- هل أنتَ هنا حقًّا يا ميجاس؟

- نعم يا إيفا، فقط دعيني أساعدك بالخروج من هنا، لا تقلقي سنهرب من المقاطعة.

خرج ميجاس بها من قعر السفينة وكان الناس يجرون هائمين على وجوههم، سكان السطح يجرون والمتطوعون يتبعونهم، ومن يطُل شخصًا منهم يمسك برأسه ليهشمه في السور الحديدي. امتدت أعمال السلب والنهب والقتل في كل أرجاء السفن الممتد صراخها لتسمع الأسماك والشعاب المرجانية، ومن بين واحدة من السفن خرج جندي بصاروخ محمول على الكتف ليصوبه نحو غواصة فأصابها، لترد بقية الغواصات بطوربيدات بحرية أشعلت

انفجارًا ضخمًا بالسفينة مصدر الصاروخ، وامتد منها صراخ استغاثة وصيحات، والمئات من كل طوابقها يلقون بأنفسهم في الماء والنيران تمسك بهم فيهربون من الجحيم المشتعل إلى الجحيم البارد، وأفكاك الأسماك المفترسة المنتظرة غنائمها من البحر، فيما جعل ذلك المتطوعين يهيجون بشكل أكبر ويُعمِلون السكاكين في كل الأجساد التي قابلتهم، وميجاس بشجاعة إسكندر يطيح كل من يقابله وينكب بجسده ليحمي إيفا، حتى هاجمهم رجل من السكان يحمل مسدس ساقية قديم الطراز، سدده نحو إيفا التي اعتبرها واحدةً من المتطوعين المتمردين، ولكن ميجاس أسقط إيفا وأمسك بذراع الرجل، فجذب المسدس من يده ثم حمله وألقاه نحو البحر ليلقى مصيره، وما إن وصل إلى مرسى السفينة كانت مركبهم متوقفةً ولا يوجد حرس للحماية، فتحامل على نفسه حتى وضع إيفا على المركب وبحث حوله.

- إسكندر أبي، هل أنهيت مهمتك وعدت؟

صاح ميجاس بأعلى صوته ولكن لم تصله إجابة، بحث في كل أرجاء المركب ولكن لم يجده، فعاد أدراجه نحو إيفا.

- اللعنة! يبدو أنه ما زال يجلب الطعام، سأذهب لأبحث عنه.

أمسكت إيفا بيده بصعوبة ونظرت إليه نظرةً مغزاها ألا يذهب، فلم تقدر على قولها.

- لا تخافي يا إيفا، سأعود إليك، سنهرب وسنبدأ حياةً جديدةً بعيدًا عن كل شيء، أعدك بذلك، ومعي هذا المسدس العتيق سيحميني.

ابتسم ميجاس وعاد إلى داخل السفينة العملاقة بحثًا عن إسكندر، لم يدرك أن إسكندر كان يختبئ داخل المركب ينتظر فرصةً سانحةً لفعل ما يفكر فيه. خرج إسكندر واتجه إلى المنطقة المكشوفة بالمركب حيث تجلس إيفا في حالة إعياء شديدة إلى درجة أنها لم تلحظ أنه ظهر عندها من الخلف وليس

من الأمام، وفور أن رأته لاحَ شبح ابتسامة على وجهها، وأشارت نحو السفينة العملاقة بأناملها.

- ميجاس يبحث عنك يا سيدي.

بالكاد سمع إسكندر صوتها وبادلها ابتسامةً شاحبةً وقال بصوت مسموع:

- لا تخافي يا فتاة، كل الآلام والمعاناة مرت، لقد وصلتِ إلى الهدوء والسكينة، فقط أريد أن أقول لكِ اعذريني، فالسيد فرانشيسكو لم يفعل هذا من جراء نفسه، بل بتوصية مني، وأما ميجاس فلا يوجد شخص هنا يدعى ميجاس، بل إسكندر فقط.

ما إن أنهى كلامته تبدل وجه إيفا إلى ذهول كاد يتحول إلى صدمة، ولكن إسكندر عاجلها بحبل صغير بيده لم تلحظه، فكبَّل به يديها من الخلف وأحكم لفه. حاولت إيفا الصراخ ولكن يده على فمها منعت أي صوت من الخروج، حاولت الفتاة الصغيرة بيأس المقاومة ولكن الحرس والمتطوعين وأنوار السفينة كانوا قد أنهكوها تمامًا. حملها إسكندر بيديه حتى أعلى السفينة. يداها مكبلتان وقدماها تضربان في الهواء بلا جدوى، نظرت والدموع تنهمر من عينيها نحو عينه عسى أن تجد رحمة، أن تجد تراجعًا، ولكن نظرته كانت كفيلةً لحسم النهاية، كانت عين شخص كارهة، يتخلص من أكبر عقبة في حياته، لم يتردد لثوانٍ، فور صعوده أطلق يده وقذفها بكل قوته نحو ماء البحر الهادر.

لحظات مرت كالدهر، كالقرون على الفتاة التي حاولت الصراخ والمناص والاستغاثة، ولكنّ يديها المكبلتين منعتاها من السباحة، ومياه البحر منعت فمها من الصراخ. ظلت تهبط إلى أسفل وإسكندر من الأعلى ينظر إلى دوامة الماء التي بدأت تتلاشى وفقاقيع الماء التي توقفت، بعدما اطمئن إسكندر أن الأمر استتب وأبعد الفتاة التي تدمر حلمه بالخلود في جسد وروح ميجاس، وأنه الآن

سيقع تحت سيطرته الكاملة، هبط إلى أسفل المركب مجددًا وخبط رأسه بمعدن صلب حتى نزف دماءً من رأسه وربطه ونظر إلى السفن التي يتعالى منها صوت الصرخات، وبدأت النار في الاندلاع بأرجاء المقاطعة والجميع يقفزون للنجاة بحياتهم أو للانتحار. قلق إسكندر واضطرب من تأخر ميجاس وخشي وهو يبحث عنه أن يحدث له مكروه، وفكر في فك المركب عن السفينة العملاقة والابتعاد قليلًا حتى يظهر ميجاس حتى لا تسقط شظايا النار على المركب فتحرقه، قرر أن ينتظر قليلًا، ولكن عاجله ما هو أسوأ من النار، فقد صعد أمامه ثلاثة رجال شاهقو الطول إلى المركب، ليهربوا به بعدما هربت بقية السفن الصغيرة بمُلّاكها من السادة والمجلس الحاكم، ووقف الرجال الثلاثة المتسلحين بالقطع الحديدية، ولكن إسكندر أمسك حربته وسددها نحوهم.

- احترقوا بالنار أو اغرقوا بالماء أفضل لكم من الصعود إلى هذا المركب، سأقتلكم شر قتلة.

سخر الرجال الثلاثة من وعيد الرجل الكبير في السن رغم لياقته، فهو لا يشكل تهديدًا لهم وهجموا عليه، فتقدم أولهم ولكن عصاه أغفلت إسكندر الذي سدد الطعنة إلى معدته فاخترقت جسده وسالت الدماء، لكن هجم عليه الرجلان الآخران هجمة رجل واحد فأصاب أحدهما إسكندر في قدمه والآخر في يده، فسقط على الأرض وشُلَّت مقاومته وكادا ينهالان عليه ليقتلاه، ولكن صوت رصاصة قريبة تبعها اختراق قلب الأول وجمجمة الآخر ليسقطا في الماء معًا، فوجد إسكندر يد تمتد لتساعده ليقف، نظر الاثنان أحدهما إلى الآخر، ابتسما وتعانقا في حالة لا تنعكس على الرتابة والهلع التي تدور حولهما.

- من غير إسكندر ليحمي إسكندر! بالأمس كنت تحمي ميجاس واليوم إسكندر هو الذي يحميك!

قالها الفتى في شجاعة، فابتسم له واتجه نحو الحبل الذي يربطه

بالسفينة العملاقة ليبتعد، فيما يتبختر الفتى الصغير في سعادة، يتمنى لو أن إيفا شاهدت ذلك لتنبهر به.

- إيفا أين أنت؟

سأل ميجاس السؤال ولكن لم ترد له إجابة.

توتر ثم بحث عنها في أرجاء المركب، ولكن لم يعثر عليها، فقط عثر على حذائها وبجواره خط دماء صغير يقطع طريقًا طويلًا، فسار ميجاس على نهج السير حتى وصل إلى حافة السفينة حيث مكان سقوطها، عندما فكر بعقل ميجاس لم يهتدِ إلى إجابة، ولكن عندما استخدم عقل إسكندر المزروع داخله وصل إلى إجابة لم يكن ليتمنى توقعها، تمالك ألا يفقد وعيه أو لا يصدق ما يفكر فيه حتى وجد إسكندر يقف أمامه.

- نحن مستعدون للتحرك، هيا معي.

- أين إيفا؟

- لا أعلم، لم أرَها عندما وصلت إلى هنا، يبدو أنها نسيت شيئًا أو ليس لديها رغبة في الرحيل، هيا بنا فلا وقت لدينا، قبل أن يهاجمنا أحد آخر.

لم يستمع الفتى لكلمات أبيه الكاذبة فكرر السؤال في عزم.

- لا يمكن لشخص أن يكذب على نفسه مثلما تقول! أين إيفا؟!

تلك المرة استخدم ميجاس أسلوب أبيه ضده، فلم يجد مناصًا من الإجابة.

- لعلها انتحرت أو قتلها أحد من الهاربين.

تلك المرة انتحب ميجاس في صمت، تلك المرة أعاد السؤال وهو يرفع المسدس ليشهره في رأس أبيه.

- لا يمكن لأب أن يكذب على ابنه، أين هي يا أبي؟

بكى ميجاس والمسدس يرتعش بيده، انهمرت دموع من مقلة عينه، تلك

المرة لم يجد إسكندر بُدًّا من الإجابة، فهو الآن ليس شخصًا ونفسه، بل أب وابنه.

- لقد قتلتها يا إسكندر، لقد كانت تكدر صفونا، كانت دخيلةً كالفيروس عندما ينتشر في جسد الإنسان فتفككه، كان يجب أن تموت حتى تعود إلى صوابك، حتى تصبح إسكندر القوي المحبوب الشجاع الثاقب البصر القادر على حماية من معه، وحتى لا يصبح ميجاس ابن عاهرة تفتح ساقيها للجميع، ولد جبان يبكي ويرتجف أمام أصغر تهديد، حتى الفتاة الوحيدة لم تحبه أو تحترمه أو تراه رجلًا، فعلت ذلك لكي تصبح إنسانًا، أعظم غواص ومغامر في العالم، سيتذكره الجميع في البحر والأرض وليس مجرد نكرة لا قيمة لها، مجرد رقم بين عدد مهول من بشر لا قيمة لهم.

يا إلهي! إنه لم يكن يكذب، لقد كانت تلك نظرته من البداية، لم يكن ما فعل بدافع الحب أو المساعدة، بل مجرد مجنون يحلم بالهيمنة على ابنه، رجل فقد إيمانه بالحياة والخلاص والله، فتحول إلى مسخ مجنون أصابه جنون الخلود الذي أصاب من قبله، ولكنهم لم ينجحوا بتحقيقه، وظن أنه هو القاعدة الشاذة. دارت كلمات كثيرة في عقل ميجاس كان يود قولها، لكن اكتفى فقط بالنظر إلى خط الدم والسفن المحترقة وعالم من الصرخات، واهتدى أخيرًا إلى كلمات أخيرة أفضل من قول أي شيء آخر وهو ينظر إلى إسكندر نظرةً أخيرة لم تحمل أي مشاعر.

- أفضل أن أموت كميجاس على الحياة بهويتك الملعونة، لقد عاد إسكندر وحيدًا بلا خلود، الوداع يا أبي!

لم يمهل ميجاس المساحة لأبيه ليتكلم، ثوانٍ معدودة كانت فاصلة، فقط رفع فيها ميجاس السلاح نحو رأسه، فقط ضغطة زناد وحيدة، فقط رصاصة تخترق الجبهة اليمنى للرأس وتخرج في أقل من ثانية. اكتفى إسكندر

بالمشاهدة، شاهد جثة ابنه وهي تسقط في الماء والدماء تتناثر حولها، شعر إسكندر أن ما حدث لم يحدث فعلًا، بل كأنها خيالات أو أضغاث أحلام.

هل حقًّا مات إسكندر توًّا؟! هل حقًّا شاهد نفسه وهو يخرق رأسه برصاصة ويسقط في البحر، ولكن لم يكن إسكندر، لم يكن يومًا إسكندر، بل كان ميجاس الذي هو أهم من إسكندر ومن روحه. أفاق إسكندر من تخشب جسده ومن رفض عقله تصديقَ ما يحدث، مشى خطواتٍ كأنه من الموتى السائرين، نظرة من أعلى السفينة حول الدماء التي طفت على سطح البحر.

ما شاهده توًّا لم يكن وهمًا، بل كان حقيقة.

- ميجاااس!

صرخة دوت بقوة أعلى من صوت المنتحبين على وفاة ذويهم في السفينة، أعلى من الرجال الذين تحرقهم النار وتأكل أجسادهم، صرخة أعلى من كل شيء إلى الدرجة التي جعلته لم يسمع شيئًا آخر بعدها، لقد انتهى كل شيء، انتهى ميجاس، انتهى إسكندر وانتهت الإسكندرية وحلم عودة الأرض مثلما انتهى قبلهم غوستافو وأمه وأبوه الذي غرق أمامه واليوم تغرق جثة ابنه والشخص الوحيد الذي كان يتنفس من أجله، أدرك ذلك متأخرًا، متأخرًا جدًّا بعدما فقد كل شيء، سرح خلف حلمه، خلف أهوائه، خلف غروره ودهس بقدميه كل شيء أحبه، ولم ينتبه له العائلة، الأصدقاء، الحب، والابن، وكل هذا من أجل نفسه، الآن فقط يدرك أن العالم لم يكن بحاجة إلى إسكندر واحد من أجل أن يبتليهم بنسخ كثيرة منه، كان ينبغي للجميع أن يعيشوا وأن يموت هو.

نظر والدموع لا تنهمر ولا أي شيء يحدث، لقد توقفت جميع مراكز الإحساس لديه، لم يشعر بشيء، لم يشعر أن سفينةً في المقاطعة تضرب طوربيدًا وأنها الآن تتمايل لتسقط وأن سقوطها سيصنع موجةً عملاقةً من الماء، ولكنه لم يعد يأبى لحياته، ليت الموت يأتي سريعًا! وليته يكون قاسيًا

ليعاقَب عن كل ما اقترف! ليت المسيح المخلص موجود ليعاقبه على أخطائه، ليخلصه من آثامه، لينقيه من الدنس!

سقطت السفينة وصنعت موجةً عملاقةً اقتربت من إسكندر والمركب، ولكنه تلك المرة لم يهرب، لم يُدِر محركات المركب ويبتعد، بل فتح ذراعيه ليستقبلها بصدر رحب.

ضربت الموجة العملاقة وحملت المركب فوقها بسرعة هائلة، وجد إسكندر أنه رغم تقبله للموت أمسك بقطعة معدنية بقوة ليتفادى السقوط من فوق الموجة.

كان المنظر هائلًا ومرعبًا، موجة أسقطت المئات ودمرت كل ما يقابلها، ولكنها حملته وحملت مركبه فوقه في دقائق كانت كفيلة لتبعده الموجة عن المقاطعة وتلقيه في البحر الهائل، ودمرت المركب فيما هبط إسكندر إلى أسفل.

ظل يهوي في الأعماق السحيقة، النور يتلاشى والظلام يشتد، ترك نفسه للمياه تقلبه ذات اليمين وذات الشمال، تلك المرة لن يقاوم، لن يستبسل في الدفاع عن حياته، أخيرًا سيذهب إلى جوار أمه وعائلته وصديقه وابنه وحبيبة ابنه، عسى أن تسامحه وتغفر له أنه كان لها المسيح المخلص من براثن ذلك العالم القاسي، تدريجيًّا بدأ يفقد الوعي ووجوه الجميع تتراءى أمامه. ظلت المياه تحمله إلى أعلى والأمواج تبعده عن أبعد مكان وصل إليه قط، أصبح جسده تذروه المياه تلعب به مثلما تريد، ظل هكذا لم يعلم لِكم من الوقت.

ظهرت شمس واختفت ثم بزغت مرة أخرى، اشتدت في الظهيرة حتى كانت حامية جدًّا، لسعت جسد إسكندر الذي بدأ يفتح عينه مجددًا، لم يكن في الماء، بل شعر أن جسده مستلقٍ على شيء ما، لم يكن حديد السفن، بل شيء أصفر خفيف يثير الحكة ويجعله يريد نزعه عنه، فتح عينيه في تثاقل بجسد مبتل، جعلت الشمس الحامية الرؤيةَ صعبةً ولكن تحامل على نفسه ليفتحها،

ليجد شيئًا غريبًا، فقد كان أمامه جبل كبير ومجموعة من النخيل والأشجار تحف الجبل، وكان هو مستلقيًا على الرمال، نعم ما زال يتذكر شكلها ولونها بعد كل تلك السنوات.

انتفض عائدًا إلى خلف، في قلق:

- ما هذا؟ هل تلك الجنة، أم إنها أوهام الغرق التي يصورها لهم العقل ليخفف عنهم وطأة الموت غرقًا؟!

- هل أنت بخير؟

نظر إسكندر إلى مصدر الصوت، ليجد سيدةً جميلةً ترتدي جلود النمور المنقطة ويبدو أنها ببطنها المنتفخ حاملٌ بأشهر قليلة عن الولادة، مدت يدها نحوه، كانت دافئةً على عكسه.

كانت هادئةً على عكسه.

كانت تبتسم على عكسه.

ترى..

هل هو يهلوس وهو يغرق؟

هل هو في النعيم؟

أم هي الحقيقة التي قالها الجميع.. إن الأرض لم تغرق بالكامل وبمعجزة ما وصل إليها؟

وهل ما زال في هذا العالم معجزات تتحقق؟

ترى.. يا هل ترى؟

"وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ»، فَكَانَ نُورٌ"

[سفر التكوين ١: 3]

تمت
بحمد الله